

www.kotobarabia.com

رواية

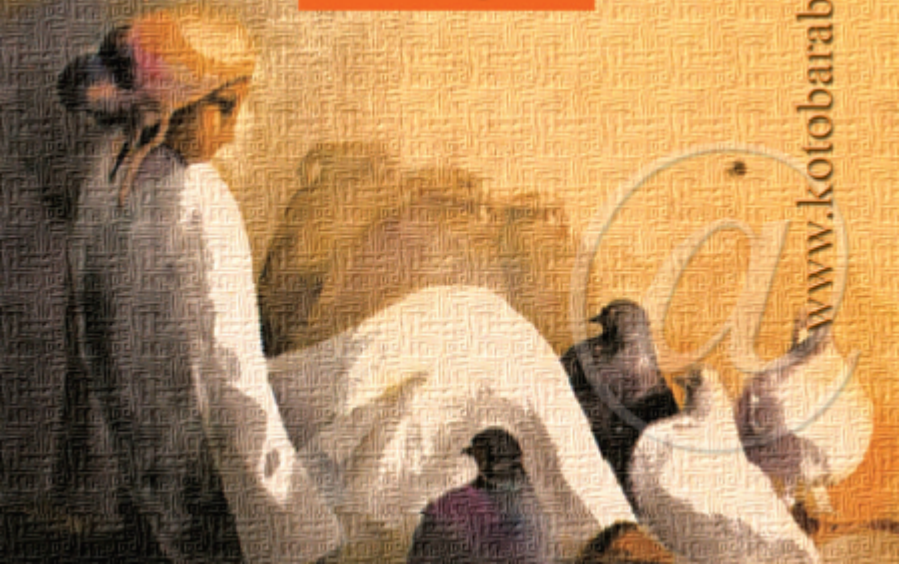
ريحانة



NOUF
27-3-2016

ميسون صقر

www.kotobarabia.com



طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني
لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر
نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع أي جزء من
هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو
للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو أي
وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من
كتب عربية. حقوق الطبع الورقي محفوظة
للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

ريحانة

بقلم

ميسون صقر

الجزء الأول

الأجنحة لا تترك أثراً في الهواء
بل تهییء الروح للانفلات

الطفل الموجود في الصورة

- ١ -

كانت "الرولة" في الصورة القديمة للجد الأول موجودة، يستظل تحتها المحتاجون والآتون بمظالمهم وشكاواهم حتى طلوع الحاكم فتشهد على خروجه وصدور الأحكام، كما تشهد على ضرب المساجين فوق المدفعين دون أن تتطرق. كان بكاؤها جنوناً تمتد في الأرض حتى السجن، فتلامس بعض أجسادهم بحنان أم رعم.. لهذا حين تغير الحكم هدم الحصن وقطعوا "الرولة" أيضاً، ولأنها رمز أقاموا تمثالاً لها من الأسمنت بدلاً منها.

- ٢ -

في الدور الأسفل داخل الحصن كانت غرفة ريحانة والعبادات الأخريات لا تختلف كثيراً عن باقي الغرف المتراسة في الممر، وحين تنام تسد مع أبواب صلبة السلاسل في أقدام المساجين الذين يتحركون من غرفة السجن إلى الحمام بجانب الباب الكبير في الحصن.

كل شيء داخله: الحاكم، والسلطة، والمساجين، والعبيد، الكل داخله، ومرهون هو الوحيد الذي في يده مفتاح كل شيء: البوابة الكبيرة، الباب الصغير داخل البوابة الكبيرة، السجن - الغرفة الكبيرة عند مدخل الحصن في اليمين -، ولا شيء أكثر من كونه حارساً يقف برشاشه الذي لا يذول من على كتفه أبداً، هو وآخران يحرسان الحصن من الخارج بجانب المدفعين المتصدرين بوابة الحصن الخارجية، اللذان يجلد عليهما المساجين كل صباح.

هناك حراس آخرون يداومون على حراسة الحصن من أعلى، فوق "المحلوسة"، ذلك البناء القديم الذي يرجع بناؤه إلى فترة سابقة ولم يتجدد، ولم يتم تغييره. هؤلاء الحراس حين يجولون بأنظارهم من أعلى على القادم يمكنهم رؤية البحر من جهة، ورؤية "الرولة" من جهة ثانية، هذه الشجرة - شجرة الجميز - ارتبط وجودها بوجود الحصن، فلها التاريخ نفسه، وهي قريبة من عمره، لا تملك من المدحلة سوى المحبة. فهي أعرق وأكبر شجرة، وحيدة تضرب جذورها في عمق الأرض، داخلة إلى أعماقها، ومتجذرة في المكان، وممتدة في جميع البيوت القريبة من القصر. حيث

نجد بعض عروقها في هذا البيت أو ذاك. وهي مصدر البهاء الوحيد، كل من يلفظه الحصن، يستظل تحتها. ويستظل تحتها أيضاً من يأتون إلى الحصن فينتظرون إلى أن يفتح مرهون شُرَاعَتِي البوابة المدفوقة بفتحة عالية، ومسامير ترسم أشكالاً وخطوطاً وهندسة جميلة، البوابة الكبيرة التي لا تقف إلا في الأعياد وعند حضور ضيوف كبار لدخول الأهالي والضيوف أو لخروج السجناء إلى الباحة الخارجية، أو لخروج موكب الحاكم أو خروج بعض من كان بالداخل.

وها هو قد هدم الحصن، هدموه ليهدموا تاريخه الحالي وبينوا مكانه حصناً كما كان قديماً كي يحمي التاريخ الحديث منه. حيث أزالوا القصر بكامله عام ١٩٧١ ولم يبق منه إلا البرج الصغير "المحلوسة".

تحصن فيه أجداد الحاكم، ناموا وقاموا وفتحوا صدورهم للقتال تنازعوا وتحاكموا قاتلوا واقتتلوا. هو رمز السطة المتنازع عليها. وكان الحصن بيت الذاكرة وذاكرة لتاريخ قديم يعود تاريخه لعام ١٨٢٠ بناه الشيخ سلطان بن صدقر، وكان كل حاكم يضيف إليه ويوسعه حتى بلغ أوجه في عهد سلطان بن صقر الثاني ١٩٢٤.

ظل يتعاقب عليه الحكام منذ الأمير القاسم بن راشد بن محمد القاسم ١٥٧٥ - ١٦٠٠، ثم محمد بن القاسم، ثم سيف بن علي بن صالح، ثم رحمه بن محمد بن القاسم، ثم مطر بن رحمه القاسم، ثم رحمه بن مطر بن رحمة، ثم مطر بن رحمه، ثم راشد بن مطر، ثم صقر بن راشد، ثم سلطان بن صقر بن راشد، خالد بن سلطان بن صقر، ثم سلطان بن صقر بن خالد، ثم خالد بن أحمد، ثم سلطان بن صقر، ثم صقر بن سلطان..

له بوابة تبدو أمامها وكأنك أمام حكم أبدي يجرك إلى الماضي، حيث يحكي عن القبائل التي تنزح إلى الخليج من شبه الجزيرة، وتستقر في السكن هنا عند هذه البوابة، وحين تخرج منها تجد حريقك في الطريق وكان البشر يملأون الشوارع بجانب الحصن، وكل يوم يساق المسجونون في الظهيرة أمامهم، كي يجلدوا على المدفع الرابض والذي سمي بالرقاص ويتوسط ساحة الميدان أمام تلك البوابة. كان مدفعاً برتغالي الصنع قديماً، استولى عليه الشيخ سلطان بن صقر في معركة بين القواسم وآل بوسعيد وكان مداه ١١ كم ولا يستعمل إلا في الأعياد وسمي بالرقاص لاهتزازه عند دفعه.

وفي المناسبات العامة والأعياد يجتمع الأفراد تحت
"الرولة" وتبدأ المراسم.

هنا، في هذا العيد رأت حبيبا تحت "الرولة" مباشرة، وهنا
أحبته، ومن هنا دخل إلى البوابة ثم إلى الحصن ليكون سائق
الحاكم وزوجاً لها.

كان حبيب قد أتى من عمان عن طريق "خورفكان" إلى
الإمارة، وسط تضاريس قاسية وكثبان رملية وصحراء قاحلة
إلا من أشجار الخاف والسدر. ماراً بساحل الباطنة وهو سهل
عند مدخل "خورفكان" به مزارع للتمباك الذي يصدّر إلى
أفريقيا والخليج العربي. من الباطنة أتى حبيب نازحاً من
عمق عمان الداخل ليدخل إلى الحصن مباشرة - بيت السلطة
- وهناك أصبح السائق المقرب إلى الحاكم، وزوج ريحانة
عبدّة زوجة الحاكم.

كما تشير المصادر:

"ألزم الإنجليز الشيوخ - حكام الإمارات - أولاً بمد يد
العون لهم في مراقبة ما يجري في البحر، وثانياً بإعلانهم
منح حق اللجوء لأولئك الذين يعتبرونهم عبيداً بأن يطلبوا
حماية المندوب السامي أو القنصل البريطاني أو إذا كانت

هناك ممثلية سياسية لبلاده، وعلى هـؤلاء أن يحمّوهم
ويعتقوهم ويسفروهم إلى بلدانهم الأصلية. وعليه فقد صدرت
التعليمات إلى الوكيل الوطني المقيم في الشارقة أن يعتق أي
فرد يطلب اللجوء والعنق - فشهدت الثلاثينيات من القرن
توافد عدد كبير من أولئك العاطلين إلى مقيم الشارقة
وغيرها من المقيّمات في الخليج وأفادت التقارير البريطانية
أن معظمهم لم يأت طلباً في الحرية أو العنق بل للتخلص من
الديون المعلقة برقبته لسيده الناجر .

- ٣ -

" أطلقوا على الإمارات أسماء ومسّميات منها الساحة
القرصنة" و"المشايخات المتصدحة"، و"إمارات الساحل
المتهددن"، و"ساحل الهدنة". فلقد كانت بريطانيا تزعم منذ أن
وجدت لها وكالة سياسية في منطقة الإمارات عام ١٨٢٠ إثر
تخطيطها قوة القواسم البحرية، التي كانت تهدد أساطيلها التي
تمخر مياه الخليج بأنها تتبع سياسة عدم التدخل في الشؤون
الداخلية أي أن سبب وجودها السياسي في أرض الإمارات

هو للمحافظة على أمن البحار، وأنها لن تتدخل فيما يجري في الداخل من قضايا وأحوال".

كانت ريحانة قد رحلت مع العائلة التي تملكها، تركت زوجها حبيباً وذهبت معهم، لم تستطع أن تخالف أمرهم حين أمروها بأن تهبيئ نفسها للرحيل. هي عبدة مؤمر فتطيع، أمروها لأنها عبدتهم، ولم يأخذوا حبيباً معهم.

أعدت ريحانة ثيابها وثياب ابنها، بعد أن قررت العائلة الرحيل إلى القاهرة إثر انقلاب على الحاكم من قبل ابن عمه، الذي ظل يترصد له، ويتحالف مع الإنجليز آن ذاك لتتحيته وأخذ السلطة منه، كان الإنجليز لا يحبون عمها الحاكم لأنهم كان ضدهم دائماً، يساند الثوار في ظفار وينتمي إلى حركة القوميين العرب، بل ويذهب إلى القاهرة التي كانت كعبة الثوار والمناضلين، لكي يساندوه ضد الامم وتعمار وضد الجهل، وحين اتفق مع جمال عبد الناصر على أن يزور عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية الشارقة ليرى عن كثب أحوال المدينة ولإعداد تقرير حول الأوضاع داخلها والترتيب لتوسيع تجربة فتح مدارس التطعيم والتجريب بدأت

ببعض المدارس الصغيرة وبأعداد متواضعة، كان يُطمح في معونة مصر أيضاً في أشياء عديدة أخرى.

ما زالت ريحانة تذكر حين طلب الإنجليز من الحاكم أن يحتذر عن استقبال عبد الخالق حسونة، وبدلاً من أن يذعن للأمر بدأ الإعداد لاستقباله كما يليق بحاكم دولة آنذاك. سمعت الحوار الذي دار بين عمها الحاكم وعمتها حين طلبت منه أن يتريث ولا يواجه الإنجليز بعناد زائد، لكنه برغم ذلك أصر على أن يفعل ما يراه دون إذعان لهم، ودون أن يأبه لتحذيرات أولي الأمر الذين يحلمون بمقدار ما يترب عليه هذا الاستقزاز، ودون الإصغاء لما تنصح به زوجته.

هيئ المطار للاستقبال وانطلقت المظاهرات العديدة التي رتبها الحاكم بنفسه خروجها، بل وقامت حفلة وبعض النسوة في الحصن بحياكة لباسين لابنته شمس وصديقتها شهلة لحضور الاستقبال وتقديم الورد للضيف، حال نزولهما من الطائرة. وما زالت تذكر كيف ألبست عمها الصغيرة شمس اللباس الذي على هيئة علم مصر أما صديقتها فألبسوها اللباس الذي على هيئة علم إمارتها، وكان علم مصر ذا ألوان كثيرة أبيض وأحمر وأسود، وبه نجوم خضراء في المنتصف

فرحت به شمسة، أما شهلة فكانت تلبس علم مدينتها الأبيض
ذا المربع الأحمر في الوسط وكانت ريحانة غير بعيدة حين
ارتفعت السيارة وبها الأمين العام، والحاكم، وابن الحاكم،
وبعض كبار المدينة على أكثاف الهاتفين بالتحرك والمنادين
بأن تساعدكم مصر في ذلك. وكأن الزيارة انقلبت من مجرد
فتح مدارس أكثر ومساعدات عينية إلى المطالبة بمساندتهم
ضد الإنجليز، ورأت عمها الصغيرة وهي معلقة من إحدى
نراعيها في الهواء لتستقر داخل السيارة المحمولة على
الأعناق. كان السائق هو حبيب، وكان سعيداً وخائفاً. رأت
كل ذلك وهي الآن تجمع ملابسها وملابس ابنها لتخادع مع
عمها والعائلة، بعد أن أعد الإنجليز مع ابن عم الحاكم انقلاباً
سريعاً حاسماً، بعد أن فشلوا في ترويض عمها الحاكم ولم
يستطيعوا نسيان الجهر بالتحرك والاستقلال مخافة إن تناسوا
تطفو الرغبة، وتعلو الأصوات في عدة أماكن أخرى متشبهة
بما فعله وربما أكثر أيضاً.

هي الآن ترحل معهم حاملة طفلها ابن الثالثة وحاملاً في
شهرها السادس، ها هو هذا الطفل الموجود في الصورة مع
ابنة العائلة شمسة وهي تحمل أخاه الرضيع عارياً فيما يخائل

هو بملابس ضابط شرطة، وكانت من الملابس المحببة للأطفال آنذاك.

"نصّور" هذا هو اسم الطفل الصغير المدلل ناصر الذي ولدته ريحانة في القاهرة فسمي بهذا الاسم تيمناً بجمال عبد الناصر، أما محراك، محراكوه فهو الطفل الآخر ذو الملامح القُرسة والطباع الفاسدة منذ طفولته والذي يصدر على أن يلبس ملابس ضابط شرطة بيضاء ونظيفة دائماً.

لم تربهما ريحانة كثيراً، كانت الأسرة جميعها تربّي محراكاً ونصّوراً بعد وصولهم إلى القاهرة في رحلة طويلة وشاقة، يستقرون فيها على أمل العودة التي ظلوا ينتظرونها ولا يعلمون متى ستأتي. هم رحلوا لوضع سياسي لا يعلمون متى ينتهي، لكنهم أتوا إلى القاهرة، كعبة المناضلين كما كان سيدها يقول دائماً، وفي فترة انتظارهم انشغلوا بتربية طفليها، فبعد أن كان بيتهما يعج بالأطفال والكبار والسادة والعبيد، هما وحدهم هنا يدخلون حياة غريبة يكشفون للمرة الأولى أوجعياتها ويعانون من الوحدة والفراق حتى وهم يتناسونه بالتذكر الدائم في جلساتهم اليومية، إنه واقع مخالف لطبيعتهم

وعاداتهم، لذلك ينشغلون بقضاء يومهم في الحائِة الفائقة
بأمور صغيرة.

أما هي، ربحانة، فبالإضافة إلى الاعتناء بطفلة العائِة
شمسة - ابنة عمها - الصغيرة، كانت تحتفي بأمور البيت
والخدم وعمها وعمها.

عمها وعمها.. هكذا كانت ربحانة وجميع العبيد ينادون
من يمتلكونهم وأطفالهم وعائلاتهم جميعها، لهذا كانت ربحانة
تتادي ابنة عمها، الصغيرة شمسة، بعمتي شمسة أيضاً.

" ولم يكن البريطانيون موفقين في معالجة الأوضاع التي
يتدخلون فيها فحينما نادوا بالحرية والحق للعبيد وفتدوا
الباب على مصراعيه لهروب عدد كبير من الخواصين من
أسيادهم فإن هؤلاء الهاربين وجدوا أنفسهم بعد فترة يعيشون
في العراء بدون مسكن أو مأكل ففضلوا العودة إلى أسيادهم
والعيش في كنفهم".

في عام ١٩٢٩ كان عدد الأشخاص الذين طلبوا حريتهم
٤٧ شخصاً منح الإنجليز منهم ٢٧ شخصاً فقط. " أما في
عام ١٩٣٤ فكان عدد الأشخاص الذين طلبوا حريتهم شخصاً
واحداً".

امتلاً البيت بالضوضاء والتساؤلات العديدة والصد راح
والعويل، امتلاً بالنساء والرجال على السواء بالحراس
وبالجنود الإنجليز أيضاً الذين التقوا حول الحصن.

شردت ريحانة قليلاً وبدت كأنها تتذكر حلمها مع حبيب
الأغوار حين لفت حول خصر وظهر عمته أوراق عمها
الرسمية عند رحيلهم مثلما لفت عمها شمسة من قبل بالعلم
المصري، فحين سمعت عمها برحيل زوجها لم تنتظ
لحظة. أمرتها أن تتسل من الجمع. ذهبت معها وحدها إلى
غرفته، فتحتا خزنته وأخذت عمها الأوراق الموجودة به،
وضعتها في قطعة قماش ثم ساعدتها ريحانة على لفها جيداً
حول خصرها وعلى ارتداء ملابسها. أفلتت عمها الخزنة
وأخذت المفتاح معها ووضعت في صدرها، كأنها قد وجد
مفتاحاً كبيراً أسود داخل الخزنة عرفت ريحانة أنه مفتاح
السجن الذي كان هناك مفتاح مثله لدى مرهون الدارس
فأخذته وخبأته هي أيضاً في صدرها مثلما فعلت، لم تنتب
عمها لما فعلته ريحانة كانت منشغلة بحالها حيث انتقدت

بشكل ملحوظ، لكن مع الضوضاء والجلبة الحادثة لتسفير زوجها لم يلاحظ أحد سميتها المفاجئة.

بدأت بوضع ملابس عمها وعمها الذي رحل قبل بلهم وملابس عمها شمسة أيضاً في الحفائب وقبيل أن تغلقها، فتحت عمها دولابها وأخرجت ثوبها الجديد الذي أعدته منذ شهر لحفل خاص بعد عودة ابنها وابنتها اللذين يتعلمان في مصر وبمناسبة تحولهم إلى بيتهم الجديد، تأملت عمها الثوب بسرعة ووضعت داخل إحدى تلك الحفائب.

تذكرت كيف حصلت عمها على ذلك الثوب حينما كانوا على ظهر مركب عند عودتهم من الهند حملت عمها بابنتها شمسة وسط الماء. وكان على ظهر المركب مع عمها بعض التجار. كانت عمها قد رأت بعض الأقمشة الملفوفة تدخل إلى الكابينة السفلية للمركب فتعلق قلبها بقطعة قماش سوداء ذات نقش ذهبي على أشكال أوراق شجر تلمع. طلبت من زوجها أن يهديها لها بمناسبة حملها فارتبك وأشار إلى أن هذه الأقمشة ليست ملكه وإنما هي ملك للتجار الذين معه ولا يعلم كيف يطلبها منهم. كانت تسمع صوته وهي تذكر من بأغنية أم كلثوم:

" على بلد المحبوب وديني .. زاد وجدي والبعد كاويني "

وكان عمها يعلم أن هذه الأقمشة يخبئ الذوار والنجار بداخلها بعض الأسلحة وبعض الذهب المهرب من الهند إلى المنطقة، ظلت عمها تلح عليه طيلة عودتهم، وعند وصولهم فاجأها بها دون أن يخبرها بما كانت تحمله داخلها.

فرحت عمها بها كثيراً وظلت تحتفظ بها وفي كل مناسبة تخرجها لتقصلها، ثم تغير رأيها وتعددها مكانها بعد أن تضمخها بالعطر والبخور إلى أن حان وقت تحويلها إلى فستان مناسب لها، له مناسبة الحقيقية التي تستحق أن تلبس فيه مثل هذا الثوب الثمين والجميل، والذي لم تر مثل جماله عند كل السيدات اللواتي تعرفهن.

فصالت عمها قطعة القماش بحيث تكون ثوباً مفقود الصدر والظهر على شكل سبعة، مكتنزاً قليلاً عند الخصر لكنه واسع من أسفل، تتلألأ عليه أوراق الذهب اللامعة. وتتسع كدويرة الصدر بحيث تستطيع أن تلبس ذلك العنق اللؤلؤي، الذي أحضرته من الهند وظل معلقاً في عنقها فترة طويلة من العمر.

" كان عالم اللؤلؤ هو العمود الفقري لجميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند أهل الإمارات والخليج العربي، فهم الذين غاصوا في أعماق البحر واسد تخرجوا اللؤلؤ وصنعوه وباعوه وتاجروا به فقدموا للعالم أفضل جواهره، وهكذا وعلى محور عالم اللؤلؤ دار نظام العمل ونظام التقسيم الطبقي والاجتماعي والكثير من الأنماط المعيشية والممارسات اليومية والحياتية والفكرية عندهم. فلما أفل نجم اللؤلؤ حار الناس في أمرهم وبرزت مشكلات مالية خانقة ومشكلات اجتماعية كثيرة كانت أهمها مشكل البطالة، إذ سرعان ما وجد الكثير من الناس خاصلة طبقة التجار والممولين أنفسهم بدون عمل، فراحوا يبحثون عن مجالات عمل جديدة اتسمت معظمها بالمخاطرة، مثل تجارة جب الأيدي العاملة من أفريقيا وبعض مناطق بلوجستان وتجارة الذهب مع الهند وتجارة السلاح والطعام مع إيران.

فالأولى كانت عندهم تجارة عبيد ورقيق، والبقية كانت عمليات تهريب، لذلك فقد حرموا تداولها. غير أن التجار والأهالي لم يكتفوا لذلك فراحوا يمتهنونها لكن الذي حصل بعد ذلك هو أن طبقة الحكام الذين سبق لبريطانيا أن جعلتهم

يوقعون على معاهدات يحرمون فيها ما هو ذا الضد رب م ن
الأعمال، أجبروا على عدم ممارستها. فكأن أن تحسنت
أحوال التجار المادية بينما تدهورت أحوال الحكام.

لكن الصورة تغيرت بعد ذلك عندما جاء الإنجليز
بموضوع الخط الجوي وطلبوا امتيازات من الحكام لقاء
مبالغ مالية وأحكموا قبضتهم على فعاليات التجار.

تذكرت شمسة خروجهم وهي تروي لها انف في أول
تعارف بينهما في الجامعة عن طبيعة أسواقهم وكان
يجلسان أمام مكتبة جامعة القاهرة.

لبست أمي عباءتها السوداء فوق ملابسها غطت نفسها
بالكامل حتى وجهها وضعت عليها وشاحاً خفيفاً أسود
وخبأتني معها داخل العباءة، كنت خائفة من العسكر والجنود
الإنجليز الذين امتلأ بهم صحن الحصن وعند البوابة، لم
أستطع أن أصرخ مثلما كنت أفعل دائماً في مرهون حتى
يسمعني ويفتح الباب الصغير لي وأنا قادمة أو ذاهبة من
الحصن، ولم أستطع أن أذهب إلى جانب باب غرفة السيد
وأنق عليه بأصابعي الصغيرة وأنا أسمع أصواتهم وصلصلة
السلال في أقدامهم، ولم أستطع أن أشاهد وجهه الدرس -

حرس والدي وهم يحملون الرشاشات فأركض وأهزها وهي على أكتافهم وهم يرتجفون خائفين أن أضع يدي على زناد أحد الرشاشات فتتطلق رصاصة طائشة تصيب أحداً ما، كما أصابت رصاصة ما طائشة من قبل أحد الرعايا فمات في الحال، واتهم حاكم المنطقة بقتله بلا دليل إلا دليل واحد وهو أن الإنجليز أرادوا أن يبعده فترة عن الحكم فأمسكوا به، وهو الحاكم، وسجنوه في عدن سبع سنوات عاد بعدها حاكماً وكأن شيئاً لم يكن.

خبأتني أمي تحت العباءة لخوفي بعد أن ظلمت أبكي كثيراً وأنا أشاهد صورة أبي التي كنت أحملها وأنا صاعدة من الدور العلوي كي أدخل إلى غرفته تنكسر أمي وأمسقط متدحرجة بعد أن دفعني أحد هؤلاء الجذوم من الأعلى فسقطت صورة أبي وسقطت متدحرجة قبلها، وبعد أن رأيت مسدماً موجهاً لرأسي مهدداً أمي حتى تعطيتهم مفتاح خزانة أبي لينظروا فيها. لم تعطهم والدي مفتاح الخزانة ظلمت محتقة به في صدرها مدعية أنها لا تعرف عنه شيئاً، حتى لا يكتشفوا خلوها من الأوراق قبل خروجها من الحصن. خبأتني لخوفي ولرغبتها في إشغال الآخرين بما يتحرك تحت

العباءة فلا ينتبهوا لكبر حجمها المبالغ فيه مع تلك الأوراق
التي أخرجتها عند وصولها إلى القاهرة ملوثة ببعض دمه
بعد أن جرحتها الأوراق فظلت تتداوى لعدة أيام.

خرجت في ظلام العباءة يومها لم أودع أحداً ولم أهد
شيئاً من المكان سوى لحظة السقوط العنيفة ولحظة ركوب
الطائرة التي نقلنا إلى القاهرة. رأيت وأنا أخذ نلّس النظرة،
ريحانة تتسلل بجانب باب حجرة السجن وتفتح بابها بهدوء ثم
تعود بجانب أمي، لكن مرهوناً الحريص دائماً، أحس بصوت
صرير الباب وهو ينفّث فركض مسرعاً إليه ظناً منه أنه
نسي قفله، ثم تذكر أن ريحانة قد فعلتها من قبل. أقفل الباب
مطمئناً أنه ليس هناك أحد من المساجين يستطيع الهرب حتى
في ظل هذه الجلبة الحادثة، ذلك لأنهم مقيدون بتلك السلاسل
الحديدية التي تحيق حركتهم، والتي تسمع صلصلتها بقوة إذا
ما حاول أحدهم التحرك.

نظر بتحدٍ إلى ريحانة التي بادلتها النظرة نفسها، إنه يعطى
أنها هي التي فعلت ذلك، إنها لا تكف عن رغبتها في إطلاق
سراح المساجين وفتح الأبواب المغلقة حتى وإن كان باب
الحصن مثلما فعلت من قبل. كل مرة تسرق منه أحد المفاتيح

وتفتح الأبواب وحين يمسكها متلبسة يذهب بها إلى عمته
ويشتكي منها، تزرعها عمتها وتضربها أحياناً ثم تدعها إن
عادت لفعلتها ستخبر زوجها الحاكم الذي سيجلد لها
الحسن، وها هي لم تنب برغم خوفها السابق.

عند وصولنا إلى القاهرة، دخلت أمي إلى غرفة في
المنزل الذي كانت ضيفة فيه ومعها ريحانة، خلعت ملابسها
وأخرجت تلك الأوراق التي وضعتها داخل حقيبة جلدية
سوداء صغيرة ملفوفة مع فستانها الأسود ذي أوراق القدر
الذهبية إلى حين عودتنا.

من هذه الأوراق بعض رسائل بين الحاكم والمعتمد
الإنجليزي، أو بينه وبين بعض الحكام في الخليج أو المنطقة
العربية ومنها أيضاً رسائل إلى جامعة الدول العربية وبعض
الأوراق التي تدل على حقه في الحكم بعد وفاة والده، كما أن
بعضها الآخر هي أوراق خاصة بأملأكه المتدثرة والتي
صودرت فور خروجه. كذلك أختام الإمارة وبعض الأحكام
الصادرة وبعض جوازات السفر أو شهادات الميلاد أو
الطوابع الأولى التي صدرت للإمارة أو شهادات الجنسية أو
أوراق المراسلات المطبوعة والمختومة.

قَلَّةٌ حَيْلِي

- ١ -

أنا ملك لعمتي، لهذا فأنا لست أمة لسيدي، لست مما ملكت
يمينه ولم تهني عمي له، ومن ثم لا يستطيع أن يطأ رجلي
الفراش، لكنني أخدمه كعبدة مخلص وأمانة ولهذا استطعت
أن أتزوج حبيباً دون أية عقبات، عبدة ورثتني عمي من
أبيها وحملتني معها كأمتها حين تزوجت. وحين رحلت
كنت في البداية سعيدة بالسفر والمكان الجديد وكأني في
رحلة ساعد منها وكنت أحمل داخلي حزن خروجي أنا
والعائلة بشكل متعسف، وحزن فراق لي لزوجي، ومع طول
الوقت وزواج حبيب من فطوم فقدت السيطرة على نفسي.
دخلت حالة اكتئاب شديد، انزويبت عن العائلة بل أظهرت
عدوانية شديدة تجاههم خصوصاً مع ازدياد إحساسي بالفرق
عن والدي سعيد وقلة حيلتي تجاه زواج حبيب، وتربية ولديه
بدون أب بالرغم من وجوده في بلد آخر واهتمام العائلة بهما
وبي، العائلة التي تمتلكني، لكن للصبر حدوداً وللملكة حدوداً
أيضاً.

أنا أنتمي لهذه العائلة لا أعرف غيرها منذ طفولتي كل ما أعرفه أن أبي سعيداً كان خادماً مطيعاً له ثم ورثه عنه أجدادهم، أصبح العبد المشتري ملكاً لابن الحاكم ثم للدائم ذاته بعد وفاة أبيه ككل العبيد الذين كانوا معه في الحصد في ذلك الوقت.

لم أعرف أمي مهيّرة، لكن أبي عهد بتربيّتي إلى إحدى العاملات بصناعة البراقع تسمى عذيجة وكانت تدب أبي حباً كبيراً، تزوجها ثم تركها وتزوج مباركة بعد أن كبرت ودخلت الحصن كعبدة لصد أحبته الذي تعهد بتربيّتي وتزويجي وتربية اثنين من أطفالي حتى أنها حتى رحلت مع عائلتها، لم تأخذ معها غيري باعتباري التي تربيّت في كنف هذا البيت، الحصن، وأنني بمثابة الابنة والعبدة أيضاً، أعرف أسرارهم وأحفظها فمن سيكون أكثر حرصاً عليهم في الغربة مني.

بالطبع كنت سعيدة بالسفر والإقامة الجديدة. إنني أكتشف عوالم جديدة على، أرى نسوة يضعن ألواناً على وجوههن، يقصصن شعورهن، ويلبسن ملابس قصيرة، وأحذية ذات كعوب عالية، يحملن بأبديهن حقائب صغيرة وينتفن حواجبهن. كنت قد رأيت مثلهن حين أتت بعض المدرسات من القاهرة للمرة الأولى في مدرسة في القدارقة. ذهبت وجميع النسوة إلى بيت الحاكم لنرى هؤلاء النسوة المعلمات اللاتي حضرن من مصر ليعلمن الفتيات القراءة والكتابة بدلاً من المقرئين الذين يحفظونهن القرآن ويجلدونهن إن إخطأن. كان عرساً حقيقياً نساء بلا رجال يأتين ليس كن في المضيف وهو مسكن للحاكم يجعله كاستضافة لهن أثناء أداء واجباتهن المهنية لكنني لم أحتك بهن هكذا مثل هذا لقد تغيرت الحياة حولي. أشكال النساء والرجال أيضاً، أحاديثهم ولهجتهم، طريقة أكلهم ونوعية الأكل. للمرة الأولى أعرف ما يسمى "ساندويتش"، عندما عادت عمي شمسة من المدرسة وهي تبكي وتطلب أن أعطيها "ساندويتشاً" معها

في المدرسة لأنها تجوع وجميع التلاميذ يحضرونه معه م
سألته:

- شو " الساندويش " هذا؟

فقلت عمتي شمس:

- خبز داخله شيء.

سألته:

- أي شيء؟

فقلت عمتي:

- إيه، أي أكل.

في الصباح أخذت الخبز ووضعت داخله أرزاً ولحمًا
وخضروات كثيرة ثم لففته ووضعت في حقيبة عمتي. هكذا
ستسعد عمتي شمس اليوم ولن تجوع.

حين عادت عمتي من المدرسة كانت حقيبتها ممتلئة
ومبللة بالمرق كذلك ملابسها وقميصها الأبيض وكانت
عينها مثل كاسات دم أحمر.

سألته لماذا تبكين قالت إن الأطفال ضحكوا عليها كثيرًا
ولأنها جائعة اضطرت أن تأكل الخبز والأرز مع ضحكهم
المتواصل.

تعلّمت بعد ذلك كيف أصنع " سندويشاً لاً " ملائماً لاً مع
مساعدة الخدم، خصوصاً عم زكي وعم عبده النوبيين اللذين
كانا يشاغبانني كثيراً.

- ٣ -

أحسست بعد عدة أشهر من سفرنا بآلام المذاض، ولم
تعرف عمّي كيف سألد في المنزل كما كنا نفعل في بلادنا
ولا نعرف من يستطيع توليدي ومع اشتداد الألم استجذت
عمّي بالجيران وأخذوني إلى أقرب مستشفى إلى البيت،
هناك، أرقدتني الممرضة فوق سرير في غرفة به لاً سرير
آخر عليه امرأة أخرى في حالة مخاض أيضاً، لا يفصل بيننا
سوى سائر من القماش الأبيض.

مع خروج رأس الطفل ركضت الممرضة وفي يديها كتلة
من القطن تحاول إعادة رأس المولود إلى الرحم بالضغط
عليه إلى الداخل انتظاراً لحضور الطبيب.

لم تفهم عمّي ولا أنا التي استجذت بها صارخة ما الذي
تفعله تلك الممرضة لكنها بفطنة المرأة العارفة، أسرعت
بجذب يد الممرضة الضاغطة بالقطن على رأس المولود

الخارج ثَوًّا من بين فخذي كي ينزلق الطفل من دفعًا إلى
الخارج في الوقت ذاته بين صراخ المرأة الأخرى وصراخي
الذي كانت عمّي تزجرني بأن أخفضه لابل أكتمه، وبين
صراخ الطفل، واندفاع عمّي لحمله، وتوبيخ الممرضة لها
على جذب يدها قبل مجيء الطبيب الذي سيوبخها حتمًا فور
وصوله ككل مرة لا تستطيع فيها تأجيل ال ولادة للحظة
دخوله.

استغربنا أنا وعمّي انتظار الولادة للطبيب وفي تلك
اللحظة دخل وهو حائق ونظر بغضب إلى الممرضة التي
ارتعدت فرائصها كلها وقالت بخنوع شديد:

- والله هما اللي شدو إيدي يا دكتور.

فرد بانفعال هادئ:

- حصل خير، حمد الله على السلامة.

هكذا ولدت نصورًا في شبه احتقال الصرخات والذي لم
يكن قد مر علينا من قبل، لا علي ولا على عمّي أيضًا.
أخذنا الدواء الذي كتبه الطبيب لي، وع دنا إلى البيت
مستغربتين أن الطبيب لم ينصحني بأن أضع الملح على هيئة
بيضة صغيرة يتم عجنها بقليل من الماء وتركها حتى تجف

ثم وضعها كل يوم مكان الطفل كمطهر طبيعي، حتى يذهب
شفائي وتتدمل جروحي دون خوف من حمى النفاس، والذي
أصاب كثيرًا من النساء في بلادنا، كما أصابت الكثير من
الحوامل والوالدات بهلع ورعب أشد من رعبهن من تلك
البيضاضات الحارقات وكأنهن يضعن نارًا متقدة داخل أجسادهن
تسير معهن طيلة النهار والليل بل وتجعل ولادتهن التالية
أشد صعوبة وألمًا، ومع ذلك لم يكن هناك مفر منها.

لم نفتح أن تلك الحبوب البيضاء التي وصفها الطبيب لي،
والغسل الذي طلب مني أن أغسل به كل يوم ثلاث مرات
هما بديلان لبيضة الملح اليومية.

أخذت عمّي الورقة من يدي ونظرت إليّ قائلة:

- ما فينا ثمتين هنا بعد، وقطعت الورقة.

رددت متهكمة:

- هذا ولا يعرف شيء يا عمّي، خاينا منه.

نصف ليمونة

أخذت عمتي نصف ليمونة ووضعت بها قليلاً من الملح
ودخلت إلى الحمام فدخلت وراءها ابنتها عمتي شمسة وهي
تسألها:

- أميه، شو تسوين؟

وضعت عمتي مروّداً من العاج داخل نصف الليمونة
بالمح وتكحلت به في عينيها اليمنى، غسلته ثم وضعته في
نصف الليمونة مرة أخرى وكحلت عينيها اليسرى دون أن
ترد عليها، صرخت عمتي شمسة فزعة وهي ترى دموع
أمها تتساب غزيرة، وعينيها مثل قطعتي دم.
قالت لها:

- شو اللي تسوينه، هذا بيلهب عيونك.

وركضت عمتي شمسة تتادي أختها وتتاديني كي ننجد
أمها، فقالت لها عمتي:

- لاها بيطهرهم من التراب، وبيقوي نظري.

ضحكنا على عمّي شمسة، فوضعتْ هي أيضاً المروود في
الليمونة بالملح ووضعتْه في عينيها، صرخت، وظلت عيناها
ملتهبتين أسبوعاً، أما عمّي فكانتْ عيناها مثل عقيق يلمع.

بيضة الملح اليومية

- ١ -

لم أستخدم أدوية الطبيب بل تحملت آلام وحرق بيضات الملح اليومية خوفاً من حمى النفاس، زائرة النساء الوالدات وقابضة أنفاسهن وأرواحهن، واعتقاداً بأن الطب الذي يحاول إيقاف الولادة بإعادة المولود ساعة ولادته إلى رحم أمه حتى مجيء الطبيب ليس هو الطب الذي يوثق فيه، وكيف يمكن هذا والحكيمة " سارة هوسمان " التي حضرت مع كل من الحكيمة " سوزانة " والمرضة " مريم خاتون " في حملة تبشيرية من أمريكا حين ذهبن إلى عمان ومن ثم أثين إلى هنا، لم يعترضن أبداً على تلك الطريقة في المعالجة.

لقد التقين المعتمد البريطاني في ذلك الوقت والذي عرفهن بدوره على حاكم المنطقة الذي أهدى لهن عمه بيتاً أجراه خصيصاً من أحد التجار في دبي لكي يسكن في دوره العلوي ويمارسن عملهن كطبيبات في الدور السفلي منه باعتباره مستوصفاً مصغراً للولادة وعلاج بعض الجروح وأمراض النساء.

الحكيمة " هوسمان " كانت الأكبر سنًا ذات ق دم خشد بية واحدة، تتكى في سيرها على عصا تد تخدمها أيضًا في معاينة بعض الصغار الذين يفتربون من جلستها في بيوتات الأسر المعروفة ليلمسوا قدمها الخشبية ويحركوها. كل ما هنالك أنها تضع صورة يسوع وبجانبه الكثير من الش مع وصليًا واحدًا ثم تضع على السبورة التي أمامها ص ورة أخرى للمسيح وتثير بعصاها إليه وهي تقول: إنه " اللهوا "، وتطلب من المريضات لديها أو المتعسرات في ال ولادة أن يصلين له وأن يضئن شمعًا من أجله لكي تتسهل ولادته ن ويشفين، مرودة صلاتها " أبانا الذي في السماء ".

كانت تلك المحاولات لا تقرب النسوة لها، ولا تجعلهن يعتقدن في ذلك، لكنهن يذهبن إليها لافتتاحهن بقدرتها على مساعدتهن، وما إن يشفين حتى يذهبن إلى الحصن ليشن نكين من محاولة تنصيرهن أو تبشيرهن كما كانت تعتقد هي، أو تغيير دينهن كما كن يرين.

لم تستطع دكتورة " هوسمان " أن تنصر إيًا منهن لكنه ا ظلت تحاول إيمانًا منها أن ذلك لصالح ال دنيا وال دين، ل م تستطع أن تشكك إيًا منهن في إيمانها، ولم تنقاعس أيضًا عن

العلاج حتى بعد أن أنذرنا الحاكم بعدم تدخلها في إيمان تلك المنطقة بعد أن استكثرت له بعد ولادتي الأولى بمحراك لكنها تعاملت بشكل واع وهدهد مع سكان المنطقة وعدم الخضوع المباشر لتلك الأوامر .

حتى الممرضة " مداماناز " التي تقوم بدور الداية الباكستانية المسلمة التي تذهب إلى بيوت تلك النسوة لتولدهن دون الذهاب إلى المستوصف وهي الأكثر اقتراحاً لمن عاداتهن وتقاليدهن لا تحاول أن تتكلم في الدين سواء دينها أو دين الحكيمه " هوسمان " وهي التي تعمل عند الطبيب " ماکولي " ، الإنجليزي الأصل السكر الذي مات على يديه الكثير، ومرض الكثير أيضاً من سكره الدائم وإعطائه الحقن الطبية وهو يسأل المرضى: أياور؟ أي هل يوجعك " إيعور " أم لا . لم يعترضاً هما أيضاً على الملح كمادة مطهرة يمكن استخدامها كخسول للولادة دون أضرار .

عدت إلى المنزل مع ابني المولود وعمتي التي تركت للمرة الأولى محراً دون أن يذهب معنا، وبدأت تداعب هذا الابن المدلل نصوراً .

حين دخلت عمّتي غرفتها كان محراك يلبس أحد قمصان نومها ويجلس أمام المرأة واضعاً كمية من بودرة الجسم البيضاء على وجهه وكمية من الفازلين على شعره وملوذاً شفّتيه بأحمر الشفاه، وقد رش كل ما تبقى من عطر في الزجاجاة الموضوعة أمام المرأة على جسده، ذهلت عنه من منظره، ومن اتساخ قميصها الذي يلبسه، ومن حالة الغرفة وقد انسكبت كميات كبيرة من العطر والبودرة والفازلين على أرضيتها.

ذهلت من تفكير طفل صغير يهفو إلى أشياء امرأة وليس إلى ملابس رجل ينظر إليها وقال:

- ليش جيّتي؟ وخرج مسرعاً مختبئاً في أحضان زوجها حتى لا تعاقبه.

ضحك زوجها كثيراً وقال لها إنه ما إن تخرج حتى يتقمص شخصيتها.

لم تمر هذه الواقعة بسهولة فكان محراك معاقباً ومهذّباً بأنه إن فعل ذلك مرة أخرى فسيكون العقاب أشد. خاصة وهي تخاف على بعثرة الأوراق وضياعتها مثلما تخاف على

فستانها من الاتساخ، لكن تلك الغرفة كانت تشدّ دة دائماً
والألوان والروائح التي أمام المرأة وملابس عمته.

ليس ذلك فقط لكنه كان متعلقاً بها فلم تكن تخرج إلا وهو
في يديها ولا يعود إلا وفي يديه الحلوى والملابس.

برغم تدليل العائلة لمحراك و"نصّور" فإن شخصيّة
محراك كانت مربكة في المنزل، لا يهدأ ولا يهدأ يهدأ في
مكان، وكل يوم يعاقب بأنواع شتى من العقاب الذي يستحقّه
أحياناً والذي لا يستحقّه أحياناً أخرى.

يوماً ما عاود دخوله إلى غرفة عمته في غيابها، كانت
تعاقبه بعدم أخذه معها كما عودته من قبل، فعاود لعبته وكأنه
هو أيضاً يعاقبها. خرج للعائلة بتلك الملابس وتلوين الوجه
وتقليد العمّة في طريقة كلامها ومشيتها، ذهب يومه إلى
عمه وقال له:

- عمّتي ماتت خلاص، أنا اليوم عمّتي.

كان في تقليدها مغرماً بها، وكأنه في تلك اللعبة يلمس
تحقيق وجوده وتقليد حالاتها ووضعها في السلم الاجتماعي.

هل كان يقلدها أم يتطلع إلى الخلاص منها؟ يفتقد
وجودها؟ ربما حاول أن يفتقد من جبروتها الواضح له،

ومن هالة العظمة التي تبدو في هيئتها. فرغم سنواته الخمس كان يرى ذلك الحبل الخفي الذي يقيده وأمه بهذه الأسرة التي تقتنيه مثلما تقتني الأشد ياء دون إحساس، وهو يدق ناقص وجودها لعله يفلت من الشرقة التي تضيق عليه كلما اتسعت مداركه وكلما انفتحت مسارب الحياة، فلا يملك غير التطلع المرهون بما يمن به أعمامه عليه.

إنها العبودية التي أدركها بإحساسه البادئ في التفتح. ضُبط مرةً يجمع أعقاب السجائر من شد رفة المذزل ويدخلها حين سألوه ماذا تفعل، قال:
- أخمس.

انزعجت عمته مما فعله أكثر من مرة فأخذته إلى شد جرة في الحديقة وربطته فيها طيلة اليوم كعقاب له، بعد أن لحقوه في اللحظة الأخيرة قبل ذلك بساعات وهو يدرك من المطبخ ممسكاً بسكين كبيرة إلى غرفتهم وحين سألوه:
- ماذا ستفعل بالسكين يا محراك؟

أجابهم بأنه سيخلص نصوراً من السرير، وحين ركض وراءه كان يهم بقطع رقبة أخيه ليفصل رأسه الذي اختدق بين أعمدة سريره وهو يحاول النزول منه.

كيف يفكر الأطفال هكذا...؟ أيقن أن أخاه كمحاولة
لتخليصه...؟

ربما من فرط مشاعره الدفينة قد تنفلت منه هذه المشاعر،
وتصبح ضده حين يكشف عن أفكاره فقد ينتبأ وقد يلتقط
صوراً ثابتة يحركها ثم يلتقط طريقة الحركة وبكثير من
النقصان قد تكتمل فقط في ذهنه كطفل حين تصدح المادة
جاهزة.

هو يفكر كيف يخلص أخاه لكنه لا يفكر ماذا بعد ذلك،
فقط صورة واحدة ثابتة ثم ينتقل مباشرة إلى صورة أخرى
مبنية في ذهنه بأن أخاه بلا أعمدة سرير. هكذا فكر محراك،
لهذا ظل طيلة يومه مربوطاً في جذع شجرة في حديقة
المنزل، الشجرة المقابلة لباب المنزل. كل من يدخل يراه
وكل من يخرج أيضاً، لم يصمت صراخه الذي عم البيت
والحديقة والمنطقة كلها.

كان يريد أن يحرر أخاه من ذلك السرير الشرير، يخلصه
من البكاء والصراخ ولقد حاول جذب رأسه فلم يتحرر، ثم
حاول جذب جسده فلم يفلح فماذا عساه يفعل سوى أن يفكر

بفصل الاثنین حتّی یستطیع أن یحرر نصور م ن اشدّ تباکھ
المعقد بهذا السریر.

رجُلُ بنطلون

- ١ -

لقد علمت بزواج زوجي من أخرى بعد أن فقد صدوره على تحمل حياتنا، كل في مكان مخالف للآخر. لم تصدح الوحدة دائي بل أيضاً المرارة والانتكاس. لقد تزوج بقطوم الصغيرة ابنة عوشانة صاحبة دكان العطور والدخون التي كانت دائماً تخجل ويحمر وجهها كلما رأت حبيباً زوجي يأتي ليأخذني من عند أمها وتنتظر إليه باستحياء ودلال مفرطين.

قطوم التي دخلت الحصن متشبثة بثياب أمها، دخلت طفلة وظللنا جميعنا نتعامل معها هكذا إلى أن تركت المدينة، ورحلت. لم أتصور أبداً أن هذه الطفلة التي تمسك بتلابيب أمها ستكون في يوم من الأيام ضرة لي، حين كبرت وظلت تتخج وتتكلم بدلال مغفل لم يكن في حساباني أن ذلك كله سيكون من أجل حبيب، حتى حين كنت أضحك معها عندما أذهب إلى الدكان لأشتري لعمتي العطور والدخون وأعود بها إلى الحصن إن لم تأت عوشانة إلينا وأقول:

- لن تحصلني عليه ولا على غيره، أنت كرجل بنظرون لا يسير إلا بصاحبه وأقصد أمها القوية التي تَحكم فيه أ. أضحك وأحيي الأم التي تبتسم هي الأخرى وأخرى إلى زوجي الجالس في السيارة اللاندروفر التي يفوده أ، أف تح الباب بثقة وافتخار وأدخل كي أجلس بجانبه، أف تح النافذة وأحييهم ثم أنظر إلى حبيب وأشير إليه أن يسير، فرحة به وبنفسه، فأنا عبدة زوجة الحاكم لي أن أمر وأنهي الكثيرين باسم عمتي وأنا زوجة سائق الحاكم، وهو ليس بعدد لكن تزوجني ولم يتزوج بأية واحدة من الأخريات في المدينة. في ذلك اليوم حين ردت عليّ فطوم دون خجل بعد أن طفح الكيل بها:

- سأسرقه منك يا ربحانة وسأسرق جميع الرجال الذين سيتوددون إليك الواحد بعد الآخر، سأجركم منهم جميعاً أ، انتظري أنا شابة جميلة وسأتزوج حبيباً يوماً لأغيطك وأخذه منك وسترين رجل البنطون هذه ماذا تفعل، أنا لا أدري ما الذي أعجبه فيك أنت؟

أسكتتها أمها، فضحكت لأنني استطعت إغاضتها أ، كنت أظن الأمر مجرد فكاكة نتندر بها، لكن من الواضح أن

الفكرة ظلت داخلها ولم تتمح، وأن كلماتي ظلت توجعها وها هي اليوم بعد أقل من ثلاث سنوات حققت ما تريد.

ها هي تتزوجه ويتركني لأجلها، ها هي تجر عذبي ألمًا أشد، كان يجب أن أغلق فمها في تلك اللحظة ولا أجعلها تختزن كل ذلك الإصرار على سرقة حبيب مني.

ربما أخطأت حين أخبرت حبيبًا، فمن الواضح أن ذلك صانف هوى في داخله هو أيضًا ولم يفصح عنه في حينه وإلا فلماذا تزوجها الآن بعد أن ذهبت أنا.

نظرت إلى وجهها في المرأة، هل هي كبيرة حقًا؟ قالت لنفسها وهي تتأمل هذا الشحوب الذي اعتدى وجهها:

- عندما يكون المرء كبيرًا فعليه أن يفعل ما يريد، بأي شكل وبأي طريقة فالوقت ليس في صالحه تمامًا.

وكانت تسأل نفسها وهي محتجبة في غرفة السطح:

- كيف أسترد ما سرق مني، كيف أعيد حبيبًا إلى دون أن أفكر الآن في الذي فعله، لدى وقت طويل بعد ذلك لمحاسبته، إذن سأقبل ما فعله الآن فقط لأرد عليه وعطى السارقة فطوم.

هم يهتمون بأطفالي كدمي وأنا أهتم بطفلتهم كواجب لكنني اليوم حين علمت بزواج حبيب لم أستطع أن أذهب لأحضر رعمتي شمسة من المدرسة، ولم أشرف بنفسي على البيت ولا على أي شيء. ظللت في غرفة في السطح أبكي وأضع للمرة الأولى سيجارة في فمي ثم بدأت أدخن وأدخن، بعد ذلك لم أبك لكنني خرجت أشترى زجاجة خمر، أي نوع منه، المهم زجاجة خمر وبدأت أشرب، لأول مرة أشرب خمرًا ثم بدأت أشرب وأشرب. لكن الاكتئاب لا يزول. بدأت أبتلع بعض أدوية الكآبة والنوم والمهدئات. للمرة الأولى استخدمتها وبدأت أدخن وأشرب وأبتلع المهدئات وأفقد سيطرتي على نفسي وسلوكي، لا أهتم بالعائلة ولا بطفلي لكنني رفضت أن أتركهما لهذه العائلة، وضعتهما في غرفة السطح وانزوييت في ركني.

لم يحتمل جسدها تلك الروح المعذبة المهزومة المنهكة، ولم تتحرر أيضًا روحها من الجسد. كان خلاصها شكلاً من التحرر وكان التحرر بالنسبة لها مستحيلًا، والمستحيل هو الاستمرار في هذه الحال.

الحب علاقة خيانة مع الذات وحين أحببت حبيباً أ خانته
عبوديتها لهذه الأسرة، ظلت روحها تهفو هناك عند الحبيب
يظهر لها كصور تتتالي ثابتة الدلالة تتاديهما أن تخلع خنوعها
وتعود إليه، كانت تحسب ذلك كارثة حقيقية تسحقها، كيف
يمكنها أن تتخلص من ذلك وكيف تختزل موقفاً نهائياً له
ولأسرتها الصغيرة بشكل فريد واستثنائي لم تتعوده من قبل،
أن ترفض انسحاقها في تلك العائلة حيث يمكنهم أن يستبدلوا
بها أخرى وأن يتركوها، أن يتنازلوا عنها من أجل نفسها
التي تجدها بقرب زوجها الذي خانها وتزوج غيرها... وهم
كيف يتنازلون عنها وهم يحبونها؟ هي أيضاً تد بهم لكنه
تحب حبيباً أكثر مما تحب نفسها فكيف تقبل في هذا الحب؟
إن حبهم مضاد للإنسانية والطبيعة أنهم يحبونها كعبدة لا
تقرر مصير نفسها إذن لابد من الشك في هذا الحب وهذا
تتكون طبقات عديدة من الشك في كل تفاصيله.

القاعدة الأساسية التي يمكن من خلالها التعبير عن الحب
لديها هي التنازل، تنازلهم عن حقهم فيها ولا يعني ذلك أن
التعبير المماثل في حبها لحبيب هو أن تتنازل عنه لغيرها بل
أن تمتلكه أكثر، أن تحيطه بها وبأولادهما وبحياتهم، هذا

حب متوازن بين زوجين أما الآخر فهو حب الأعلى للأدنى
لأنه ملكه، وحب الأدنى للأعلى لأنه مملوكه، إنه حب مفتعل
غير صادق وغير حقيقي مثل العملة لها وجهان، الحب
والحب مقابل الملكية والقسوة.

الحب عقد ضمنى للعبودية بدون أدلة.. يكاد ذلك يك
عكس ما تراه أصلاً لكنها لا تفهم غيره أيضاً.

- ٣ -

بعد الولادة جلست في غرفتي أريض نصوراً حين سمعت
صفارات الإنذار وصراخ عم عبده العامل النوبي في البيت
وهو يقول:

- غارة يا لالا يا ريحانة أنت والولاد انزلوا البدروم. طفوا
النور عندكم، أحسن يشوفوكم وشهلوا يا لالا المس ت القديخة
بتسأل عنكم.

أطفأت الأنوار سريعاً، نزعت ثديي من فم نصور وأدخلته
سريعاً في ثيابي، ظل ناصد ريص رخ، أمسكت محراً
وناصراً وخرجنا من الغرفة. مررنا على ممر طويل إلى

السلم. كان البيت كله مظلمًا إلا الشمعة التي أمسك بها ع م عبده حتى نستطيع السير.

كل زجاج المنزل كان ملونا باللون الأزرق ظلت أذ وار السيارات تشع عليه حتى خبا نور الشمعة وأصبحنا في شبه ظلام دامس أزرق. نزلت إلى الدور الأول ثم إلى الب دروم كانت العائلة جميعها هناك تجلس بجانب بعضها بعضًا. عند دخولنا مباشرة انتزع محراك يده من قبضتي وركض إلى عمتي، جالسًا جانبها وب دت أصد وات طلق ات الرصد اص والمدافع قريبة وكثيفة جدًا مما جعله وعمتي شمسة يرتعدان خوفًا.

هذا ما حكته أيضًا شمسة لهادف ضد من حكاياته ا ع ن أسرتها، وعن تاريخها الذي كثيرًا ما كان يتج ادلان ح ول تحليله.

قالت: - هزيمة ٦٧ جعلتنا ننخلع من هزيمتنا الصد خيرة إلى هزيمة الوطن العربي بكامله. لم يستطع أبي أن يتكلم في هزيمته بعد ذلك. كيف يتكلم عن هزيمته في حكم إمارة وها هو الشعب الذي يؤمن به، الشعب العربي، يهزم بكامله. وها هو عبد الناصر يمر بأزمة، وها هي كعبة الثوار والمناضلين

تدخل حالة استنزاف حاد، سيدخل هو أيضاً فيها لئلا تنزف حياته.

قالت أمي بصوت مرتعش ونحن في البدرود:

- شو هالحالة اللي إحنا فيها هاي.

فرد سكرتير أبي الذي جاء لزيارتنا هو وزوجته حدين بدأت الغارة فنزل معنا:

- جيبك يا عبد المعين تحيني لقبك... أهو إحنا اللي تعلقنا كده، الموضوع مش باين له حل سريع.

كان يرى أن خروج أبي من بلده على أساس ما يشده سياسياً إلى هنا، وأن هنا الآن أصبحت تبعه كثير راعين هناك. فنظر له والذي بغضب مما أربكه، فصدمت. كانت زوجته إحدى المدرسات اللاتي حضرن في أول بعثة مدرسات. حضرت هي وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية الذي تقرب سريعاً إلى الحاكم ومن ثم أصبح سكرتيره الخاص وحين ترك أبي الإمارة عاد معه إلى القاهرة على أمل أن يعود معهم حين يعودون.

كانت فكرة الرجوع تراود أبي كثيراً رغم أن الوحدة، والقومية، وعبد الناصر، انشغلوا في الهزيمة، فهي بوتقة

الصراع الأساسي. أصبح الخليج وتهدد دات إر ران بشد أن
الجزر الثلاث التي تدعي ملكيتها مسألة مؤجلة بعد التدرج
من عبء الهزيمة. إلا أن هذا لم يستمر طويلاً إذ لجأ عبد
الناصر بعد ذلك لتحرير المناطق الأخرى وتصدير الثورة
إلى كل من عدن وظفار، وليبيا كمحاولة لتضيق نطاق
الهزيمة بالانتفاف عليها ببدائل التغيير في تلك المناطق لعمل
حزام قومي يساعد على إنعاش فكرة الناصرية والانشغال بها
إلى أن تتم إعادة تقوية الجيش والامدّ تعداد للدرب مرة
أخرى.

- ٤ -

- لم أتكلم وأنا أرى ابني مربوطاً إلى جذع الشجرة، بل
كنت أساعد على ربطه معهم. لكن قلبي كان ينزف وينفطر.
وأعلم أن ولديّ بلا أب وأن أباهما هناك في بلاده متزوج من
أخرى لأنني تركته وجئت مع عمتي التي تعاقب ابني الآن.
حبيب ليس بحبد عندهم مثلي، لا يفهم كيف تتركه زوجته
لمجرد أن تذهب معهم أينما ذهبوا، تاركة زوجها سنوات عدة

ولا تعرف متى ستعود بل لا تعرف أصلاً إن كانت ستعود أم لا، مجرد سديم زمني لا أعرف كيف أتخلص منه.

وكان الخيط في يديها ثلثه مثل دائرة على إصبعها، ثم تقرده إلى آخره وثلثه دائرة على إصبعها، ثم تقرده بطولاً، مثل الزمن دائرياً لكنه كالسهم.

تعبت العائلة من حالي وشربي وتدخينني وإدماني، ظللت طيلة النهار منكوشة الشعر لا أخرج من غرفتي لا أنا ولا ولدي إلا لشراء الخمر والسجائر والمهدئات والعود. بعد ذلك ظللت أرسل من خدم البيت من يجلب لي ذلك ويدأب أنزوي.

تدخلت أخت عمتي في زيارتها الأخيرة لنا بأن يترك وني أعود معها أنا وولدي لأنني أصبحت حملاً ثقيلاً عليهم بهذه الحالة المزرية فلا يجوز أن يظهروا كمن يأوي في بيوتهم مدمناً كما قالت وأردفت: - وإذا كان ابنها وهو ما زال طفلاً بهذه الصورة فما بالك حين يكبر؟ وحفاظاً على صدوركم وعجزكم عن حل مشكلاتها أو مشكلاتكم معها سأخذها معي. وأثبتت ابنة عمتي الكبرى على كلام خالتها، متواطئة معها على ترحيلي، هي التي لا تطيق وجودي بتلك الحالة.

فرضيت عمّي أن تتنازل عن ملكيتي مجبرة إلى أخيه أ
 الشقيقة الوحيدة، التي أخذتني معها في رحلة عودته أ إلى
 بلادها حاملة ناصراً بين يدي، ومحراك ممسك بثيابي ومرئد
 ملابس بيضاء لضابط شرطة، وواضع الكاب على رأسه
 ومسدس بلاستيك في جراب حزامه.
 تماماً كما في الصورة السابقة وكما في الصورة التي ل م
 نلتقط.

- ٥ -

ظهرت عمّي في الشرفة، جلست على كرسي عريض
 وندبتني، أنيت لا أعني، مغيبة عن العالم، لم تنظر إلى عمّي
 لكنها قالت:

- ستسافرين غداً مع عمك صفية، جهزي نفسك.
 احتجت إلى لحظات كي أعني ما أسمع، ل م أسمع أن
 أفرح أو أحزن، الوقت قليل حتى في التفكير في أحدهما.
 عدت إلى غرفة السطح، لملمت أغراضي وأغراض ولدي
 ووضعتهما في حقيبتين، ثم حممت محراك أ ونصت وراً،

وغسلت ملابسهما التي سيلبسانها في الغد. استحممت، وحين نزل الماء على رأسي كنت كمن يقشر جلدًا سميكًا.

في الغد، بدأت صباحي بكي ملابسي وملابس ولديّ ثم ألبست الصغيرين ملابسهما مغسولة ومكوية. لم أهتم بأمور الغرفة وكيف سأتركها، كانت ممثلة بزجاجات الخمر وعلب السجائر الفارغة، أما أعقاب السجائر فكانت متدثرة في جميع أنحاء الغرفة وعلى السطح المقابل، كنت بعد أن أرميها يركض محراك ويدخن آخر نفس فيها وكنت أراه ولا أعقب أو أنزعج.

قبل خروجي نزلت عند عمتي وأسرتها، حاولت أن أقبل رأسها فرفضت، اكتفيت بتقبيل عمتي شمسة قبل أن أركب السيارة بعد أن أعطيتها مفتاح السجن الذي ظل لديّ فترة من الوقت منذ أن تركنا الحصن. كنت قد علقت في رقبتي محراك كما كان يفعل هاشم زوج أختي عليونة، كان البعض يشير لها بأن هاشمًا يحمل مفتاح الجذلة الذي قد أودعه له الإمام في إيران لتوجهه إلى القتال لكنه هرب وجاء إلى هنا، والبعض قال إنه أخذه من الإمام لأنه جاء لتحرير الأسلحة إلى هناك لمحاربة الشاه وأنه اعتبر مجاهدًا ومن ثم

فإن مات فهو شهيد، لم نكن نعرف الحقيقة، ولم نكن نكدر
عليه إذا كان هاشم شيعياً أم سنياً، ولم نكثر إن كان قد
فر من القتال أو أنه يمتلك مفتاح الجنة.. إنها منشغلة عن كل
ذلك. فرحت عمي شمسة بالمفتاح. هي تعرفه جيداً ورأتني
حين فتحت به السجن يوم خروجنا. أمسكت بيديها وهي تنظر
إليّ. أدركت الآن أنني سأرحل دون ترك أية مسافة يمكنني
من خلالها العودة، لقد تقطع كل خيط بيننا اليوم.

قال السائق لي:

- والله حنوحشينا يا ربحانة.. ابقي اكتبيلنا جوابات والا
ابعتيلنا حاجة من هناك عشان نفكرك بيها.
رددت بانفعال، وكان عم عبده ينظر إليّ من بعيد وهو
حزين جداً:

- لا أبعت رسائل ولا غيره ما أريد أنذكر هاي الأيام ولا
اللي فيها، وأشحت بوجهي متجنباً نظرات عم عبده الذي
تخترقني. وهو واقف برداء أبيض وعمامة بيضاء أيضاً
مشيراً بيديه نحوي وحين ابتعدت العربّة بي نظرت إلى
الوراء، كان عم عبده بتلك الملابس مثل شراع مركب في
مهب الرياح.

" على بلد المحبوب وديني .. زاد وجددي والبع د
كاويني ."

- ٦ -

حين سافرت ريحانة وعمتها الجدي دة وبع ض عي داتها
اللاتي حضرن معها. اختفت الأوراق والثوب. وجدت عمتها
الحقيبة ملقاة تحت سريرها ظنت أن محراكاً ع اود لعبت به
و حين سجنتها صرخت غاضبة:

- سوتها ريحانة، سرفت الأوراق وثوبي وسافرت.

لكن الوقت كان قد انتهى. سافرت ريحانة مع عمته ا
الجديدة ولم يعد بالإمكان اللحاق بها فأوصت إلى أختها صفيّة
أن تبحث عن الأوراق عندها، فأخبرتها صفيّة في اله اتف
أنهم وجدوا ذلك الثوب، وأن ريحانة لم تتكر وجد وده لكنه ا
أخبرتهم أنها فوجئت به في ملابس محراك، وحين سألتها قال
لها إنه وجدته مرمياً تحت سرير عمته ولم يكن في الحقيبة
أصلاً، أما الأوراق فهي لا تعلم عنها شيئاً.

لم تصدق عمتها كلامها، وظلت تتهمها بسرقه كل
تاريخهم ودليل عودتهم .

لم تتسرب العاطفة من بينهم، لم يبكوا، لا العائلة ولا العمة ولا ريحانة أو ولداها. كان وداعهم مشوباً بكثير من نقصانه.

قد تتفادت رعدة صوت يمكن إعادة تكرارها للنقطة حالة أحدهم. كان ما هو مدرك أقل بكثير مما هو غير مدرك في المشاعر والأحاسيس، تماماً كما لو أنها حالات إنسانية فائقة الروعة في لحظة تدمير أرواحها كلما سكنت إزاء وجودها، لكن ريحانة تهفو إلى حياة تعوضها ما حرمت نفسها منذ لأجلها، حياة تخلقها وتعيش الوهم مقابل تركها الحياة أيتها كانت.

كيف نعي تعقيد الأشياء، بالعودة إلى ما كانت عليه...؟ هي لم تع أن هناك عناصر مفسدة دائماً تدخل لته دم مقابل لا شيء. لم تع أن المعرفة من خلال العالم، معرفة جارية، وحين نتوغل نخدش ملمسنا الناعم، وحين نمتلك تلك الصبابة التي اسمها الوهم ويذهب بنا الحلم وتتفرط حبات الحنين

سيفتنيها الآخرون ظناً منهم أنها السعادة، يظلون هناك على أطراف أصابعهم حاملين أرواحهم على شفرة حادة.

هكذا ربحانة تعيش الإحساس المؤقت بالزمن بين الخط والدائرة. الوهم يتحقق لأنه لا وجود له، وهي عبارة في المكان هناك، خارج سياق أي شيء. هامت روحها ولم يحتملها الجسد. مشيت كثيراً في القاهرة سيراً على قدميها حتى خفت روحها في السير، كانت تسير مع عممتها وكأنهما ستصلان نقطة ما حتماً سيكون هذا السير إلى شيء ما، بحثاً عما هو خفي عنهما، إهلاك الروح وتصفيتها كل يوم.

والمسافة بينها وبين ما ترغبه ليست مستوية ولا متصلة أيضاً، حيث لا يمكن في الأساس العمل على وجود خط بين النقطتين.

الجزء الثاني

لم أرَ السمرَاءَ وإن رأيتها³

مقطع من أغنية

في المكتبة ابترست المشرفة عند دخولنا أن لا وه انف
وحيننا، كانت تحب علاقتنا، علاقة الحب الذي تشد أ في
الوعي، بين طبقات الكتب وبين المدرجات، ربما كان لها
علاقة قديمة مثل هذه، وربما تشاق إلى الحب كما نحب
نحن، جلسنا، أنا أكمل بحثاً عن المعزلة، وه ويقرأ في
كتاب. أمامنا جريدة اليوم كتبت له عليها:

- "مشتافة وعندي لوعة"

ضحك وكتب لي:

- وأنا كذلك.

قلت:

- هذا مقطع من أغنية لأم كلثوم.

فكتب: إنها قصيدة لأبي فراس الحمداني يا أساذة، عرفني
المكتوب بالكاتب.

فكتب: حاضرين.

وقفت المشرفة على رأسي، ارتبكت، فدفنت رأسي بين
أوراقها.

لكنها بادرنتي بابئسامة وهي تقول:

- ممكن الجرنال عاوزه أقرأه.

شطب هادف ما كتبناه على الجريدة بسرعة قبل أن يجيبها

باسمًا:

- طبعًا لحظة، وهو يبئسم.

ابئسمت وقالت:

- ما فيش داعي، أنا بس كنت عاوزه أقرأه.

كان قد انتهى من شطب جميع الكتابات بيننا وكأنه يمد و

بسرعة كبيرة ما بنيناه في فترة طويلة.

خجلت وأنا أقوم مع هادف تاركين أوراقنا على الطاولة،

ركضت المشرفة لتعطينا الجريدة، فقال لها هادف:

- خليه، إحنا فقط رايعين نشرب الشاي ونرجع.

حين نزلنا عند بطة في الركن الصغير داخل مكتبة جامعة

القاهرة في الدور السفلي، الركن الدافئ بالعاطفة وبدفء

الشاي والبوتاجاز ابئسمت في وجهنا محبة:

- يا صباح الفل.

بطة تحبنا، تحب علاقتنا، تقدم لنا شايًا خاصًا، شاي

كشري غير مغلي، تضع الشاي في كوبين وتضع عليه

ملعقتين من السكر ثم تترك الملحقة في أحد الكوبين وتُصب الماء الساخن ثم تُضع بجانبهما عليّتي بسكويت، يحمل هادف الكوبين وأنا أحمل البسكويت ونقف أمام الغرفة في الممر ونضع الكوبين على حافة الشرفة التي أمامنا حتى يبردا قليلاً وننعم بالدفء في هذا الجو البارد، كل مرة أدي المكتبة يعرفون بعضهم بعضاً تقريباً خاصة من يأتون إلى بطة.

- بطة شبه ربحانة، الخالق الناطق. قلت لنفسي، تُدس حين يطلبون منها الشاي أنها تتكرم عليهم وتختار من تميزه في الأكواب ووضع السكر وطريقة وضع الشاي، هناك من تضع له الشاي المغلي، وهناك من تقدم له الشاي الكشرري، هناك من تضع له بنفسها السكر، وهناك من تقدم له أنبقة السكر ليضعه بنفسه من ملحقة موضوعة فيه عموماً، وهناك من تُخصه بملحقة خاصة مغسولة وأكواب غير مكشورة حوافها، فبرغم صغر سنها، تستطيع أن تختار من تميزه حسب قلبها ومعاملاتهم معها.

- أبوه يا سيدي حتى المشرفة وبطة يحبوك.

- أنا؟

- طبعاً.

دخل صديقه طه وقال:

- تَبَقَى عِبِيْطَةُ لَوْ افْتَكِرْتَ اِنْ دِه كَلِه لِهَادِف.

- اُمّال لمين يعني.

- دِه لِيك وحياء عِينِيك.

ضحكت بابنْسامَة حِيَّيَة وَقَلَّت:

- دِه مَقْطَع مِنْ اَغْنِيَة جَدِيْدَة؟

فغضب هادف منه ومني واعتبر التَّبَسُّط يعيب الاحد رام

فعدت إلى وجومي، أما صديقنا فنظر إلى مودعاً:

- الله يعينك عليه، سلام.

- الله يعينني.

دخلت الجامعة. هكذا تركض السنوات بي منذ أن دخلت

المدرسة في الصف الأول إلى اليوم، وحين التقيت هادفاً كان

ذلك الطالب الذي يكبرني بعدة سنوات، يتكلم في السياسة

التي تركتها في المنزل فوجدتها مشتعلة أكثر في الجامعة.

كنت أرى تلك المشاحنات الدائمة بينه وبين صديقه طه،

أحد زملائي الذين أستطيع الحديث معهم، كنت أقف أمام

إحدى صحف الحائط بجانب المدرج أقرأ ما فيها لا فاقترب

مني وقال لي:

- أنا إسمي طه، معاك في الكلية، ولي مقالة في المجلة دي.. لما تقرأها قولي لي رأيك.

نظرت إليه بتمعن ثم ابتسمت نصف ابتسامة بتحفظ شديد وكأنه افتحم علاقتي بالصحيفة، وحين انتهيت وجدته عند باب المدرج يسألني: - ها ايه رأيك؟
رددت: - كويسه.

فقال: - يعني إيه، بس كده...؟

ابتسمت نصف ابتسامة أخرى، ودخلت المدرج.. بعد ذلك أصبح طه يأتي إلي ببعض الكتب، ويحكي لي عن أصدقائه وصديقاته، وعن بعض المظاهرات التي تحدث في الجامعة.
قال لي: - يا ريتك يا شمسة كنت دخلت الجامعة من بدري، كنت شغفت النضال على أصوله.. وعندما عرفتني على هادف كانت يدي ترتعش في يده وحين عدت إلى البيت كنت محمومة أهذي.

رجل أسمر ضعيف

- ١ -

كان بيتنا يطل على شارع المطار، دخلت على أمي وهي جالسة في الشرفة المطلّة على شارع كبير يصدّل المطر بار بوسط البلد، الطائرات فوقنا لا تكف عن التّحليق الواحدة إثر الأخرى.

- صباح الخير.

نظرت إلى وقالت: - مساء الخير، الحين الظهر ابتسمت وجلست بجانبها. أمس كتّ الجريدة وب دأت أنصفحها دخل عليّ السبّاك علينا، رجل أسمر ضعيف ليس وسيماً لكن ابتسامته طيبة إلى حد ما.

- مساء الخير يا شيخّة.

- أهلاً يا علي، شو الحمام بعده خربان.

- عاوز له شغل كثير، إزيك يا ست شمسة.

نظرت إليه بابتسامة عريضة: أهلاً، إزيك انت.

- أنا الحمد لله، حمد الله على سلامتك أنا سمعت أنك مريضة.

- كنت، بس الحمد لله أنا دلوقتِي بخير. قلت ذلك، وأذا
أنظر إليه فانقلب وجهه محمراً وارْتَبَكَ، وظل واقفاً متسماً،
وأمي تحادثه. نهضت وأنا أضع الجريدة على الطاولة وأنسل
من بينهما.

قال: - يا ست شمس، فيه ورد عشانك

- لي أنا...؟

- أيوه عشان قمت بالسلامة.

- شكراً يا علي، ودخلت غرفتي.

ظل علي يأتي كل يوم إلى أن انتهى من تصليح الحمام
وفي هذه الأثناء لاحظت أنه بدأ يتغير قليلاً لا يصلح بيده،
أحضر معه أكثر من صناعي وهم الذين يحملون وهو فقط
يشرف عليهم.

مرة قلت له: - إيه يا علي أذا بت بقوت أس طي كبير

دلوقت...؟

فقال لي: - دا أنا باشمهندس يا ست. ودول الصدايحية

بتوعي وكمان شويه حفتح محل سيراميك

- ربنا يوفقك.

- الله يخليك، دا أنا كمان حايني عمارة.

.....
وظل على يأتينا كل فترة متحججاً مرة بالحمام ومرة
بالمطبخ ومرات بالسؤال.

مرة حاملاً الورد ومرة حاملاً عروس حلاوة المولد
ومرات علب شيكولاتة لي.

قلت له: الظاهر علي ده بيحبني.

قال لي: يا لله مبروك خليفنا نخلص منك.

- تصور بالأمس جاب لي عروسة حلاوة وابنة داي بس
بدل شيك، قال لي إنه أدخل أولاده مدارس أجنبية واشد ترى
سيارة مرسيدس، قلت له: وما لها الفيات اللي كانت معاك،
قال: لا.. الفيات للصناعية لما ببيع واشد ايلين الحاجات،
والبيجو للمشاور بس المرسيدس دي لما آجي ليكم .

تغير وجهه هادف وانتشغل بالتخطيط في أوراق عتي
المنضدة .

قلت: - خليفنا في المذاكرة .

رماء الحديق

حين أخذت ريحانة أكواب الشاي من أم أم بي وأبي
ودخلت المطبخ كان عم عبده يغسل ل الص حون. وضعت
الأكواب في المغسلة أمامه وانشغلت بإعداد العشاء فقال لها:
- وماله أغسلك الكبابات والصحون وال دنيا كله لا بس
ارضي يا جميل، سيك من النفل دا أنا حاهنيك واستك بس دل
المشحطة ديه.

فقلت له:

- وحبيب يا عم عبده؟

- سيك منه إيه حبيب ده حتى اسمه مش حل و، ثم وفي
عبده أحلى كثير. فقلت وهي تنظر إليه باستخفاف:
- مب كافي إننا عبده، بعد اسمك عبده.

رد عليها:

- لا أنا مش عبده، أنت بس اللي عاوزه تبقي عبدة، ما
تيجي أتجوزك وأكسب فيك ثواب، وأخليك كمان حرة.
ابسمت وقالت له:

- ليش انت مب عبده؟

اشتط وتترك الأطباق والصحون والأكواب، نزع الماء من
على ذراعيه ونظره في الهواء بغضب وقال لها:
- عمر أهل النوبة ما كانوا عبيد، السواد ده أصلي يا بنت
دا إحنا كنا سادة وحاربنا، إحنا أولاد حابي اللي ضامم بـ بلاد
الذهب بين كفيه من آلاف السنين وإحنا نأخذ لـ الـ وادي
المتغربين لكن جبال النوبة ممكن نتطق أسامينا.
قاطعه قائلة:

- بس استعبدوكم.
- بعد إيه، إحنا دلوقتٍ أخذنا حريتنا مش زيك مش
عارفة تأخديها لحد دلوقتٍ.
- أخذتوها ورجعوا تشغلوا عبيد.
- لا بإرادتنا تشغل ولو مش عاوزين نسيب، بس إن بنت
لا، يا بنت الحلال سيبك من وجع القلب وحبوب والهـم ده
ونتجوز، ده أنا شغال في الحكومة، ده أنا سفرجي قد الدنيا
ولما أسيب حبيقي لي معاش كويس.
ضحكت ريحانة بصوت عالٍ وهي تقول:
- ما أتس من سيدي إلا سني، تاركة المطبخ، حاملـة
الصينية العشاء لعمها.

بدأ عبده يردد لها الموالية النوبية بصوته الرخيم:

- " أنا لم أر السمراء وإن أراها، ولكنني أتغزل فيها مع
من رأوها إن ضحكائكن للداخل تجعل الرجل مع زوجته
يرقصان أنت دائماً الضحك لا تغضبين أبداً وقد تعدت -
لحبي لك - هذه العادة فأنا أضحك دائماً بلا سبب أنا لم أر
الفاتنة السمراء ولكنني أبكي الغرام من رأوها ."

- بلاد الذهب النوبة، بلاد الذهب، أشري أشري.

ابتسمت ريحانة وظلت تدندن بالكلام وهي حاملة الصينية
متذكرة زوجة أبيها مباركة الزنجية التي اختطف من زنجبار
وأنت إلى مدينتها، مباركة عبدة أيضاً ومن أفريقيا وعم عبده
كذلك ربما كانوا من أصل واحد وربما ترجع عروقهم إلى
الجد نفسه مثلاً، لكنها لا تعرف عنها سوى أنها من زنجبار.

دخلت إلى عمتها وهي تدندن بكلام عم عبده دون أن تنبه

فقالت لها: شو هالخربطة شو أشري أشري هاي...؟

- ها عم عبده كل ما يشوفني يقولي أشري أشري. كلام
نوبي يتكلمونه عم زكي وعم عبده ولما سألتهم قالوا لغ نهم
القديمة النوبية وكل ما أتخافق معاهم قالوا لي إحداهم
الحق، يعني شو يا عمتي رماة الحق...؟

خطبة التوبة

سألت طه صديق هادف الصعيدي القادسي من جنوب

مصر:

- أتعرف رماة الحق؟

قال بدهشة:

- وأنت إيه اللي عرفك بيهم؟

فقلت:

- "أشري أشري".

نظر إلي بعين فاحصة:

- م أنت أهو بتعرفيهم.

- لا صحيح ليه اسمهم رماة الحق...؟

اعتدل في جلسته كأني حكاة قديم بدأ يروي لي بعد أن

وضع قدمًا واحدة تحت الأخرى وأشعل سيجارة وهو يقول:

- لزوم الشيء يا سني نبتي من الأول، بعد أن فتح

عمرو بن العاص مصر جهز جيشًا بقيادة عبد الله بن سعد

بن أبي سرح لفتح بلاد النوبة فشلت هذه الحملة بسبب ما

أبداه أهلها من شجاعة ومهارة في رمي السهام. هم قاتلوا

المسلمين في الفتح الإسلامي كانوا يصوبون على الأعين
بسهامهم مباشرة وقد برعوا في تصويبها إلى حقائق العيون
لهذا سموا " رماة الحدق " وكان أحد القادة العرب الذين فقدوا
عيونهم في الحرب سهم بن أبرهة بن الصباح ومعاوية بن
جريح.

بعد فشل الاستيلاء على أرض النوبة لم يجد عبد الله بن
سعد بداً من أن يرضي بالحد الأدنى فعقد اتفاقية معهم يقدم
النوبيون بمقتضاها القوة العاملة من الفتيان والنساء ويحصل
رماة الحدق من فرسان النوبة على معاهدة متكافئة نصها "
وللرعايا من كل الطرفين حق عبور الحدود على ألا يك
قصدتهم الإقامة " وبعد الاتفاقية أهدى ملك النوبة إلى عبد الله
بن سعد منبراً للصلاة لوضعه في مسجد عمرو بن العاص
وظل هذا المنبر إلى عهد ذات قرّة بن شريك أحد قادة الفتح
الإسلامي.

ظلت النوبة على ديانتها المسيحية حتى عصر ابن قلاوون
حيث جهز جيشاً كبيراً بقيادة الظاهر بيبرس الذي استطاع
فتح بلاد النوبة فسقطت دنقلة وقتل من أهلها الكثير وبع

الأسرى كجبيد وإماء، انتقاماً لما فعلوه في الفتح الأول،
ولرفضهم الاستسلام.

هكذا كان النصر هو بوابة الهزائم وكاشف ثغرات
الضعف ومهيج الغرور في النفس الذي تحسسه الظاهر
ببيرس، فحمل عليهم بخيرة جنده، سادة باعهم من كان يريد
أن يشعر بتخلصه من عبوديته التي لم يتخلص منها إلا وإن
جلس على عرش القلعة.

- ماذا تقصد أتريد أن تقول إن المملوك بدأ مع الأحرار
حتى يصبح الكل عبيداً في عبيد؟ أهمل ملاحظتي وواصل:
- هم يا سني بقايا الدولة الفرعونية، في عهدا حكمها
مصر لفترة طويلة في عهد ملكهم قوش ولا يزال هذا الوهم
يعشش في أفكارهم، فهم لا يزالون يتزاجون رجالاً ونساء
من قبائلهم حتى اليوم. ولما دخلت المسيحية اعتنقوها لأنه
التقت مع ديانتهم التي قامت على التالوث المقدس لإيزيس
وأوزوريس وحورس.

بعد انتصار الظاهر ببيرس دخلوا الإسلام. وظلوا حتى
حررهم الخديو إسماعيل حين منع تجارة العبيد، يسكنون
جوار قصر عابدين، والحقيقة أنهم أحرار ويرون أنهم

العنصر الوحيد غير المختلطة دماؤه، فكل أبيض في مصر ر مختلطة دماؤه بدماء أخرى، وما زالوا ينكرون دولة ق وش ملك النوبة الذي استطاع أن يحكم لفترة طويلة في العهد الفرعوني.

- افدتمونا، شكراً، أتعرف أنتم حررتم العبيد منذ أيام الخديو إسماعيل وظلت العبودية في مجتمعاتنا إلى بداية السبعينات والآن ما زال العبيد موجودين في بعض الأسر....

وين راح يروحوا، كان لدينا عبيد في البيت وكانت جدتي تحكي لي أن في أيامها كانت هناك حطبة داخل بيت المعتمد البريطاني في فناء بيته مباشرة من يريد امتلاك حريته من العبيد والإماء عليه أن يأتي إلى بيت المعتمد البريطاني ويلبس هذه الحطبة فيعطي صك حريته وكأن يا أخي الحرية تؤخذ بصك أنت أحق مني، نحن جميعاً عبيد، والا أقولك عبيد الله وخلاص.

- تأخذون حريتك بلمس حطبة وفين في بيت المعتمد البريطاني...!

- تصور ! لقد كانت لدينا خطبات كثيرة، كانت هذالك أيضاً خطبة التوبة، هكذا سميت، ففي المساحة الخارجية المقابلة للقصر أمام شجرة الرولة يحدها في المقابل باب القصر العتيق الذي يقف أمامه مدفع قديم جداً، كانت خطبة التوبة هذه للزناة يجلد عليها الزاني والزانية والسكارى أيضاً.

- إيه الرعب ده...؟

نظر إلى بدهشة مفتحة وكأنه يتقن دوره وقال:

- أي رعب هذا يا سيدتي..؟

- الرعب..؟ لا هذا مثلث الرعب بين الخطبة والمدفعين والسجن الذي يوجد داخل الحصن، لم تكن مسألة قطع يد السارق مطروحة هنا كما في مناطق أخرى في الخليج لكن في فترات سابقة كانوا يسملون العيون أي يكحلونها بالذمار حتى العمى وألغيت هذه العقوبة في فترات لاحقة، لكن الجلد ظل إلى فترة قريبة. وأذكر أن المحكوم عليه بالجلد كان يساق إلى أحد المدفعين بعد أن ألغيت الخطبة ويربط على أحدهما في الظهر ويجلد، ولا فوكو يا أخي في " المراقبة والمعاقبة ".

- وأنت من أحفاد هؤلاء؟

- تصور .

- تصورت، وأريد أن أقابل جدتك أكيد لديها الكثير، أكثر منك.

قلت: - بالتأكيد.

فقال له هادف:

المادة التاريخية لديهم غنية لا كمادة أرشيفية لكن كم مادة معاشة، والتجربة الإنسانية فيها وعي وإدراك كبير .

رددت:

- انفضلها يا سيدي.

فرد:

شكراً، أنا إنسان واقعي، مع الإنسان ونطوره ويمكنني استيعاب هذا الواقع، لكن لا يمكن له أن يستوعبني، لأنني واقع يعني بالحفاظ على شكله الخارجي فقط مع فقدان شكله بالداخل وكأنه حالة استاتيكية.

وردة حمراء

- ١ -

قطعت وردة حمراء من الحديقة وحملتها وأنا ذاهبة إلى الجامعة، وضعتها جانبي على المقعد المجاور في العربة حتى لا تذبل ووضعت حقيبتني على المقعد الخلفي وكتبني أيضاً.

- الوردة أولاً، هكذا قلت. يعني السباك يجيبني بوكيه ورد وأنا اللي أجيب له وردة. مفروض هو اللي يجيبني الورد مش أنا، نفسي ببقى رومانسي شوية، نفسي بحمس نفسي إنه مهتم بي بشوية هبل حتى.

عند باب الجامعة أوقفت العربة ونزلت. حملت الحقيبة والكتب وأمسكت الوردة بيدي. لم تذبل بعد.

- أيوه يا ورد، الورد شايل ورد النهارده.

- ده انتي اللي بتجابلك الورد.

- الوردة دي من مين؟

هكذا بدأ أصدقائي يشاكسونني، خجلت وبحثت عن هادف كي أعطيه الوردة، لم أجده لفترة وحين أتى كان نصف نائم.

- صباح الخير .

مَدَدْتُ يَدِي بِالْوَرْدَةِ. أَخَذَهَا وَقَطَفَ مِنْهَا أَوْرَاقًا، وَأَكَلَهَا.

- يَا نَهَارِي أَنْتِ بَتَّاءِلِ الْوَرْدَةِ.

- أَمَّا أَعْمَلُ بِيهَا إِلَيْهِ، أَصْلِي لَمْ يَمُتْ مَفْطَرْنَشْ.

ثُمَّ أَخَذَ بَقِيَّتَهَا الْمَهْلَهْلَ وَوَضَعَهُ فِي وَسْطِ كِتَابِ يَدِهِ.

- أَنَا اللَّيْ أَسْتَاهِلُ.

- طَبِّ دَوَّقِي طَعْمَهَا وَقَوْلِيلِي.

قَدِمْتُ لِي وَرْقَةٌ مِنْ أَوْرَاقِهَا، أَخَذْتُهَا وَأَكَلْتُهَا وَأَنَا أَقُولُ:

- مَا هَمُّهُ بَرَضُهُ بِعَمَلِهِ مَرْبِي، يَا لَازِي الْخَرْفَانِ نَاكِلِ

أَيِّ حَاجَةٍ قَدَامَنَا.

- هُوَ أَنَا لَمَّا أَكَلَهَا مَشَى أَحْسَنَ مِنْ لَوْ أَخْلِيَهَا تَدْبَلُ؟

خَلِيهِ نَافِرَةٌ لَا تُشَبِّهُ خَلَائِي الْأُخْرَى مَجْرَدَ خَلِيَّةٍ غَيْرِ

مُشَبَّعَةٍ لَا يَدْرِكُهَا هَادِفٌ، لَا يَظُنُّ أَنَّهَا ذَاتُ أَهْمِيَّةٍ قَصْدِي

لَدَيَّ، بِحَاجَةٍ إِلَى وَرْدَةٍ، فَقَطَّ وَرْدَةً. فَكُلَّ فِلَسْفَةَ الْجَمَالِ الَّتِي

كُونْتُ لَدَى رُؤْيَا إِنْسَانِيَّةٍ وَمَنْهَجِ حَيَاةٍ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَمْلَأَ مَكَانَ

الْوَرْدَةِ. يَقُولُ إِنِّي رُومَانَسِيَّةٌ وَكَأَنَّ ذَلِكَ عَيْبٌ فِيَّ، وَأَقُولُ

أَنَّني بِحَاجَةٍ إِلَى مَجْرَدِ إِحْسَاسٍ بِسَيْطَرَةِ رَبِّهِ عَلَى الْوَرْدَةِ إِلَى

روحي وهي تتفتح، برائحتها، ولونها، ورهافتها التي تَذبل
سريعاً.. فينك يا باشمهندس علي.

- ٢ -

خرجت مسرعة، ركبت سيارتي ووصلت إلى كافيتريا
الجامعة قبل هادف، انتظرتُه ثم أخرجت كتاباً أطلع فيه بدلاً
من مواصلة التحقيق في وجوه الآخرين، أحضر لي الذئب
كوب الشاي الذي طلبته.

أمسكت قطعة سكر ووضعتها في الشاي ثم وضعت قطعة
أخرى في فمي، تماماً كما كنت أفعل في طفولتي حين أضع
قطعة سكر في فمي والأخرى في فم حصاني، ذلك الفرس
القوي في نادي الجزيرة والذي كان يأخذني أخي معه ليتدرب
هو على القفز وأتدرب أنا على ركوب الخيل.

ليس من عادة هادف أن يتأخر هكذا ربما حدث له طارئ
أو ربما فاجأه أحد أصدقائه. أمسكت القلم وكتبت: عادي زي
كل مرة، وأقفلت الكراس.

أطل عليّ برأسه مع صديق له، ابس ما وك أنني أنا
المتأخرة لم أبدِ غضباً شديداً.

- فيه إيه؟

- عادي ولا حاجة بس طه جه وجابني معاه.

- طيب اتأخرتُم ليه...؟

- أبدًا.

اتفقنا أن نكمل حديثنا ونحن نسير ككل يوم من مكان إلى مكان وكلما تحبنا جلسنا في مقهى أو كافيتيريا. قادتنا أقد دامننا خارج الجامعة إلى حديقة الحيوانات.
قلت:

- أنا مش عاوزه أدخل.

- ليه بس، دي النعمة اللي جوه تمام زيك، بتشبهك قوي.

- أنا لا أخبئ رأسي في الرمل يا أستاذ.

- صحيح لكن عينيها حنينة زي عينيك تمام.

لم أستطع أن أرفض هذه الدعوة إلى الدخول على الأقدل
لأنكأكد من أن النعمة تشبهني فعلاً في العيون والاختباء.

ونحن نسير تحدثنا كثيراً عن علاقتنا، عن نفسي، عن الوجود والعدم، كان يقول دائماً: - أنت وجودية، وأنا أقدول له: - أنت معقد. كان يعلمني أبجديات الحياة، وأنا أضد يف إليها الكثير.

قَرَأْتُ بِالْأَمْسِ مَذَكِرَاتَ بَابِلُونِيرودا - أَشْهَدُ أَنَّنِي قَدْ عَشْتُ -
وَسَأَلْتُ نَفْسِي هَلْ حَقًّا سَأَشْهَدُ يَوْمًا بِأَنَّنِي عَشْتُ. بِ الطَّبْعِ
الْيَوْمَ أَقُولُ إِنَّنِي عَشْتُ. أَلَمْ أَحِبْ وَأَحْزَنْ وَأَفْرَحْ؟ أَنَا أَذْ ذَنْتِ
وَأَعْطَيْتِ، عَشَقْتُ وَعُشِقْتُ، تَعَلَّمْتُ عَمَقَ الْحَيَاةِ بِكَامِلِهِ أ إِنَّنِ
أَنَا عَشْتُ حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُكْتَمَلْ هَذِهِ الْحَيَاةُ لَكُنَّنِي عَشْتُ نَهَا. قَدْ
أَكُونُ لَمْ أَوْلَدْ بَعْدَ، لَكُنَّنِي أَيْضًا وَلَدْتُ مَرَاتٍ عَدِيدَةً، وَلَدْتُ فِي
الْغَابَاتِ وَالْأَحْرَاشِ وَمَرَّةً أُخْرَى أَذْكَرُهَا جَيِّدًا حِينَ خَرَجْتُ
مِنْ بَيْضَةِ سَمَكَةِ حَمْرَاءَ.

هَذِهِ الْوِلَادَةُ الَّتِي عَمَدَتْهَا الشَّوَاطِئُ فِي بَلَدَةِ الْحَيْرَةِ الَّتِي لَمْ
أَرَهَا فِي حَيَاتِي إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ كَأَن عَمْرِي يَتَجَاوِزُ
السَّابِعَةَ عَشْرَةَ، جَلَسْتُ أَجْمَعُ الْقَوَاقِعَ يَوْمَهَا فَذَكَرْتُني بِحَدِيثِي
تَحْتَ الْمَاءِ، كَانَتْ الْحَيْرَةُ بَيْنَ إِمَارَتِي الشُّدَارِقَةِ وَعَجَمَانِ،
هَنَّاكَ فَقَطْ سَلَكْتُ حَدِيدِي بِفَصْلِهِمَا. وَقَفْتُ بِمَدَايِزِ الشُّدَارِاطِيِّ
أَسْتَرْجِعُ ذَاكَرَتِي حِينَ خَرَجْتُ سَمَكَةً مِنَ الْبَدْرِ - الْمَدْمَكَةِ
نَفْسَهَا الَّتِي خَرَجْتُ لِلْفَتَاةِ الَّتِي كَانُوا يَحْكُونُ لِي عَنْهَا وَأَذْكَرُ
صَغِيرَةً - كَانُوا يَقُولُونَ لِي إِنَّ فَتَاةً يَتِيمَةً كَانَتْ تُعْيشُ مَعَ
زَوْجَةٍ أَبْيَهَا الْفَاسِيَةِ وَالَّتِي تُجْعَلُهَا كُلَّ يَوْمٍ تَذْهَبُ إِلَى الشَّاطِئِ
تَنْظِفُ الْأَسْمَاكَ الَّتِي يَجْلِبُهَا الْأَبُ وَتَغْسِلُ الْأَطْبَاقَ وَالْأَوَانِي.

مرة تحدثت معها سمكة من السمكات التي تقوم بتنظيفها
خافت الفتاة وارتعدت طلبت السمكة منها أن تتركها في البحر
وستلبي لها الكثير من الأمنيات وتزوجها بأفضل الرجال
خافت الفتاة أن تعود إلى زوجة أبيها دون تلك السمكة
فتعاقبها أشد العقاب لكن الحلم والرغبة كانا أقوى لديها من
خوفها لذا حررت السمكة بمجازفة أكبر كي تستطيع تحقيق
بعض أحلامها.

ها هي السمكة تخرج إلى مرة أخرى لكن لتخبرني عن
تاريخي في البحر. سحبتني إلى الأعماق وعرفتني بالعمق
أسفل الماء، قالت لي: إنني سمكة بحر. أنا أيضاً أستطيع أن
أنتفس من خياشيمي وأن أعوم بذيول رائحة، انتظرت أن
تهديني هدايا البحر مثلما فعلت مع تلك الفتاة أو تُعطني على
الأقل بما وعدتها به، لكنها اختفت منذ ذلك اليوم وبعد أن
عدت مبالة من البحر أجمع الفواقع في حجري. استدار
جسدي في شكل سمكة وأصبحت أسير كما لو أنني أسير في
وكل من يراني يقول لي: أنت تشبه بهين سمكة بحر. ولا
أعرف كيف أشبه سمكة.

التفت إلى نفسي، نظرت لها في المرأة بحثت عن خياشيم
اختفت وقلت أنا سمكة بحر. ملت تحت سد ريري، فتدبت
حقيبة بيضاء بها محارة كبيرة كانت قد أخذتها عذوة من
هادف، سمعت أصوات الموج تتاديني فأرتج ورتج معي
الغرفة كلها، هدير الموج في أذني إذن أنا سمكة البحر التي
تحب أن تتحلى باللؤلؤ وتنام في حضن صدف، وضمن
بالصدف والأساطير والتي تخبئ تحت وسانتها البدرف في
شكل محارة وتغرق في الماء سريعاً.

أنا ابنة اليابسة أيضاً. هذه الأرض حملت بي وحملتني،
أنتمي إلى ترابها ولي رثان ضعيفتان لا تدنملان ملوحة
البحر، إذن من قال إنني سمكة بحر؟

كان يقول دائماً أنني أشبه النعامة لأن لي عيني سحرتين
ووجهاً نحيفاً.

كنت أغضب لأن النعامة تخبئ رأسها في الرمال ولا
تواجه أبداً، كنت أخاف على نفسي أن أظل أشد بها حتى
أراني أخبئ رأسي في الرمل مثلها.

كنت أرفض تشبيهي بالنعامة - برغم جماله ١ - وله ذا
ارتعد كلما مررت بأزمة في حياتي وتذكرت شكل النعامة
التي أشبهها. ومع ذلك يظل هناك شبه ما.

مرة وأنا أقلب صفحات مجلة ما رأيت أحد رسامي
الكاريكاتير يشبه الشخصيات المعروفة بحيوانات تقترب من
شكلها فرسمهم كقردة وكلاب وديكة منذ ذلك الحين ومنذ
قراعتي ألف ليلة وليلة وسماعي بعض القصص القديمة
ونسُميها " الخرافات " ومفردها خروفة، أي قصة غير
حقيقية وربما جاءت من كلمة خرافة وكان الساحر يتحول
فيها إلى قط أو حيوان أليف في البيت، أقول منذ ذلك الحين
ظلت عينايت تلتقطان الأشكال والتفاصيل وتحاولان ردها إلى
منابع أخرى أي المقارنة أو التشبيه، وكنت في دراستي أحب
بحوث المقارنة حيث أجدني أفرق بين نظامين أو بحثين من
حيث التحليل والمقارنة، لكنني كنت أفنع ذاتي بأن التحليل
مادة ذات خبرة عميقة وأنا أقل من تحملي ل ذاتي بوجوده ١
التحليلي إذ تجد ذاتك تخضع في علاقاتك وما يمر عليك
ضمن منظومة تحليلية تجعلك في مختبر حياتي معقد، وأذ ١
أدخل ضمن الإبداع والتدبر والسذاجة الجميلة أحياناً ١

والجراءة المرتبطة بالتخبط بعض الشيء وكسر التحليل
والتيقيد والاتلاق من منطلق الطيران لا الخضوع لنظريات
ومنظومات مقررة وموضوعة سلفاً، أسير دون هدى ودون حدود في
خطوة ولا يعني هذا أن أسير دون هدى ودون حدود في
التصور، لكن لي أن أسطح وأتجاوز وأخطئ وأكون نعمة.

- ٣ -

لم يأت باشمهندس علي منذ مدة.
لم يرسل ورداً ولا عروسة حلاوة ولا شيكولاتة
لا أرى أية عربة من عرباته أمام المنزل
المرّة الأخيرة التي أتى إلينا أخبرني أن ابنه الأكبر دخل
الجامعة وأن بقية أولاده ما زالوا في المدرسة وأنه استطاع
أن يبني لهم عمارة، لكل فرد شقة فيها وس يهتم بحاله الآن
بعد أن اطمأن عليهم وأن المحليين مدّل الس باكة ومدّل
السيراميك بكفيانه.. بعد عدة أيام سألت أمي:

- وبين باشمهندس علي...؟

فردت علي:

- سأرسل إليه، منذ مدة لم يأت.

دخلت المستشفى مصابة بأزمة حادة في التنفس ك ان
أصدقائي يهدونني وردًا أبيض كل يوم ويقولون صد باح
الورد، أشكرهم وأظل أشمه طيلة اليوم زهور اللافندر كانت
رائحتها جميلة وقوية. بعد أيام قليلة أصابتنى أزمة حادة
في التنفس وحين جاءوا إلى زيارتي قلت:

- ابعدوا محبتكم عني، وأقصد الورد الذي حملوه معهم.

زرع أبي أيضًا شجرة جميلة اسمها ملكة الليل في الصباح
ينبل وردها وحين تغيب الشمس يتفتح وردها الأبيض ويشع
ويطلق رائحة مذهلة في أركان البيت كله.

كنت أنا ملكة الليل، أتفتح حين تغيب الشمس وأكون أجمل
وأرق لكنني لم أحتمل ملكة ليل غيري، أصابتنى أزمة حادة
في التنفس أزمة أخرى وقلت اختاروا بيني وبينها.
ملكة ليل، وسمكة بحر، ونعامة، وماذا أيضًا....؟

اضطراب قلبي

في الجامعة اليوم رأيت د. سامي، فتحت باب قاعة المحاضرات، أدخل وجهه وجال بنظره ثم أقفل الباب ورحل، لا أدري عن كان يبحث، لكنني أحسست أن قلبي يدق كثيراً كلما رأيته، أنا معجبة به، لكن لا أتصور أنني أحبه، كيف ذلك لا أدري، أنا فقط أحب اضطراب قلبي كلما رآه.

عندما فتحت القاعة كانت هناك أصوات عديدة والطلّاب جميعهم داخل الكلية، والكلية مغلقة أبوابها من الداخل سألت:

- فيه إيه...؟

قالوا هناك مظاهرات والحرس يطوق بالجامعة ومن يخرج يضرب.

انفتح الباب قليلاً وجدت أكثر من عصاً تسقط على رؤوس الطلبة وكثيراً من الدماء، وقع أحدهم على الأرض وسمعت أصوات هتافات بعض المتظاهرين في الخارج:

- "خير خير يا يهود جيش محمد سوف يعود"، إذن هي مظاهرات الجماعات الإسلامية في الجامعة ضد هذا أنور السادات إلى إسرائيل.

وجدت طه أمامي فقلت له: - صباح الخير، خير في ه
إيه..

كان متضايقاً وحاداً.. قال: - أب دأ ال ولاد دول ه مش
هيجيبوها البر كل ما ننقّ معاهم على حاجة يخالفوها..
فقلت له: - أنتم أصلاً مختلفين، إزاي ع اوزهم يتقّ وا
معاكم.

رد: - مش وقت كلام دلوقت بس إحنا كلنا ضد د حاج لة
ومتفقين على أن المظاهرات تكون سلمية وبدون عنف لكن
الظاهر مافيش فائدة، السلطة عاوزة العنف عشان ترد بعنف
زيه، هي كده على طول، المفروض العنف ده يكون موحّد
تجاه العسكر مش ننقسم على بعضينا كده. وتركني.

عند بوابة الجامعة الداخلية وجدت أحد زملائي يسلم عليّ
فأجبتّه محبباً إياه، هو طالب خدول لا يتكلم مع أحد
واستغربت حين حياتي ثم اقترب مني وقدم لي كيساً و هو
يقول لي:

- هذا لك، أرجوك اقبله.

سألته: - ما هذا..؟

قال: - أرجوك لا تردني.

لم أفهم، واختفى.

فَتحَتِ الكيس، كان به جلاباب طويل وخمسة أرومسة بحة
وقرآن. بحثت عن هذا الطالب طيلة النهار لكن دون جدوى.
في نهاية اليوم الدراسي وجدته منسحباً من المخرج،
أوقفته وأرجعت له أشياءه قلت له:

- التحجب لابد أن يأتي من داخلي.

فقال: - ده فرض عليك.

قلت: - أنا سأخذ القرآن، بس الباقي أعذرني لا أستطيع
أن أقبله.

أخذ أشياءه ممسحاً وهو يقول: - الله يهديك
ولم أراه بعد ذلك.

الله يهديني...!

الله يهديه.

ولكن مثلي لا يذاع له سر

كانت رائحة الطعام تملأ البيت وكنت جائعة. ذهبت إلى غرفة جدتي قبلتها، كانت تقرأ القرآن أفقت المصحف واعتلت على كرسيها كانت عاجزة لا تتحرك إلا بمشد آية خشب صنعها لها د. صالح حين أتى ليديرها على السرير، وجد ركبها مكسورة ولا تستطيع السرير بمفردها تصح والدتي أن تصنع لها مشاية خشب، كانت ثقيلة وحين تسير بها في الليل إلى الحمام يصحو كل من في البيت بسبب صوتها العالي وهي تتلو:

- بسم الله الشافي، بسم الله المعافي، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء.
جلست بجانبها مسندة يدي على المشد آية الذي أمامها، سألتني:

- اليوم أتأخرت وأيد.

فحدثتها عن المظاهرات والعسكر ولم أخبرها عن محمد الذي أعطاني الخمار أو عن هادف فسألتني.
- وشو صار.

- أبداً حاصروا الجامعة وهدأت المظاهرات، على ك ل
هي مظاهرات سلمية تقريباً.

دخلت أُمي فزعة وقالت:

- من بكرة ما بتروحين الجامعة إلى أن تهدأ المظاهرات
وبعدين أنت ما تتدخلين مالكَ دعوة إحنا هنا ضيوف.

- بس هذي قضية عامة.

- أنا قلت ما تعمليننا مشاكل.

- يعني أنا بس اللي أعمل مشاكل....!

أمسكتُ جدتي بيدي وضغطت عليها ونظرتُ إلى أن
أسكت.

كنا منذ فترة أمام التلفاز أنا وجدتي وأمي وأختي وبع ض
الأصدقاء حين نزل السادات من الطائرة في القدس فإذا بفردة
حذاء تطير وتضرب التلفاز كانت أختي منهارة تبكي وحين
صافح مناحم بيجن سحب فردة حذائي وصد وبتها للتلفاز
التفتنا إليها مندهشين نعم كلنا غاضبون لكن ما ذنب التلفاز
ركضت إليه بسرعة وجذبت حذاءها الثاني وظلت تضرب
الشاشة بكعب الحذاء. حاولنا تهدئتها وإقفال التلفاز وخافت
أُمي أن ينفجر في وجهها لم أكثرث كثيرًا بخوف أُمي

وحذرهما سكّت وأنا غاضبة وقلت: - أنا هاتخذى مع ج دتّى،
وقلت لها:

- شغفّي يا جدتّى شو أمي تقول لي؟ يعني أنا بس اللا بي
تعمل مشاكل؟

قالت: - هي أكبر منك وتعرف مصلحتك وبع دين ه ا
الحين أبوك وأمك ما تقوليلها إلا حاضر قلت لها:

- يعني أنا بس اللي ما أشغل سياسة، أبويا كان سياس بي
وأخويا وهي وأختي وإنّ بعد، بس جت عندي ولا.

ضحكت وقالت: - هي السياسة شغل، واللي يشغل يتكلم؟
نظرت إليها بتمعن وفهمت وسكت.

أكلنا وهي تقول: - " ولكن مثلي لا يذاع له سر ".

فقلت لها: - خلصينا من أبي فراس الحمداني هذا.

فقالت: - أبو فراس الحمداني وبصوت أم كلثوم شو تبغين
بعد؟

فقلت: - أبغى أشياء وايد.. أبغى أكون أنت.

ضحكت من قلبها وقالت: - هذا الشيء الذي لا تقدرين

عليه

- ليش طيب...؟

- لأنك شمسة مب مريم.

- وشو لو كنت مريم؟

فألت: - كنت بتجلسين على هذا الكرسي وأمامك ه ابي المشاية وبجانبك القرآن وشريط أبو فراس الحمداني.

كم هي امرأة قادرة وقوية لو كنت مكانه ا ه ل كنت أستطيع أن أتحرك في مساحة الغرفة والحمام فقط دون أن أجعل روعي محصورة في مكانها هكذا؟

كانت قوتها ورباطة جأشها تبدوان واضحتين في نظرتها التي احتوتني بها، فسرت جرأتها إلي، اندفعت قائلة دون أن أحسب ما أقوله:

- أنا أحبه وأريد أن أتزوجه.

- ماذا...؟

- أريد أن أتزوج هادفاً.

قالت: - عليونة اتزوجت هاشماً، عليونة الخادمة عذ د جدتك.

- جدتي، هي عليونة شمسة، والا هادف هو هاشم.

- شو تقولين؟

صرخت:

- أنا أريد أن أتزوج هادفاً، وخرجت.

عليونة والنار مُسْتَعْلَةٌ بها

عليونة إحدى بنات فرقة خموس كانت عكس أخوتها
بيضاء وجميلة أحبها الإيراني القادم من طريق البحر وظل
يسكن في القصر ويهتم بالحظيرة، يطعم البقر والأحصنة
والجمال والثيران والخرفان. يجمع بيض الدجاجات، يحلب
البقر والجمال، يحمل البيض والحليب كل يوم إلى القصر إلى
إحدى سيدتي القصر زوجة الحاكم أو أمه ومع المنافسة
الشديدة بينهما أصبح ميزان القوة في يد الأم برغم اعتكافها
وانزوائها، انزواء محتشد في ذاته كشكل قوي في الحضور،
وظل هاشم يحمل كل يوم البيض واللبن إليها وهي التي
تتصرف به، ترسله إلى المطبخ عن طريق العبدات أو
تسبقي ما تسبقيه كوسيلة لإغراء بعض النسوة والأطفال بأن
تقدمه كهدايا لهن أو لهن.

حضر عن طريق مركب صيد إلى تلك المنطقة من ميناء
المحمرة بشط العرب، وكان يسمى " خور مشهر ". وأسقطوه

في البحر بعد المياه الإقليمية بقليل في ليل ما، ظل يسبح حتى وصل إلى اليابسة وانتظر هناك.

شك بعضهم في أن يكون جاسوساً، واستدعاه الآخرون ليتقصوا عن سبب حضوره. وكان لا يتكلم العريضة، لكن وجهه البشوش وشعره الأحمر وسكوته بل صمته الدائم أدخله بهدوء إلى تلك المدينة وإلى القصر مباشرة. إلا أن المفتاح الذي كان يعلقه في صدره جعل الأهالي تتشكك في سبب وجوده هنا، خاصة أن هناك مشكلات على السلطة في إيران وكانت المنطقة في تلك الفترة مكاناً لبيع الأسلحة.

لم يحنك بأحد غير حيوانات الحظيرة خصوصاً الخيول التي كان يعشقها فيدربها ويحممها، والإبل التي تتدرب هي الأخرى على السباق الذي يقام كل شهر.

كانت تلك الإبل المعدة للسباق لا تشرب إلا السمن واللبن وحين تقوز الواحدة منها يُصب على رأسها العطور الثمينة والزعفران الأصفر ذو الرائحة الحادة فيصبح لون رأسها وبعض من رقبتها ذهبي اللون، خاصة الإبل البيضاء أو الفاتح لونها حين تسطع عليها شمس الظهيرة. كان يسمتع بصيد الصقور التي يلبسها البرقع ويضعها على ذراعه فلا

تَرى إِلا وَقْتَ الصَّيْدِ حَيْثُ يَرْفَعُ عَنْهَا تِلْكَ الْبَرِاقِعَ وَيَفْكَ قَيْدَهَا
فَتَطِيرُ لِنَصْطَادِ الْغَزْلَانِ وَالْحَبَارِيِّ وَالِدِجَاجِ الْبَرِيِّ وَالْأَرَانِبِ.
حِينَ دَخَلَ الْقَصْرَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى أَيِّ مِنْ تِلْكَ
الْعِبْدَاتِ. كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ وَظِيفَتَهُ لَا تَتَعَدَّى عِلَاقَتَهُ بِسَ يَدَّتِهِ فِي
الْقَصْرِ، وَإِنْ سَاعَدَ قَلِيلًا فِي حَمْلِ بَعْضِ الْمَوَادِّ الْغَذَائِيَّةِ أَوْ
تَدْرِيبِ الصَّغَارِ عَلَى رُكُوبِ الْخَيْلِ أَوْ شُرْبِ حَلِيبِ الْإِبِلِ
طَازِجًا.

عَلِونَةُ أُخْتُ رِيحَانَةَ وَالْإِبْنَةُ الْأَصْغَرُ لِمُبَارَكَةِ الزَّنْجِيَّةِ الَّتِي
اخْتَطَفَتْ مِنْذُ طِفُولَتِهَا مِنْ أَفْرِيقِيَا. أَحْضَرُوهَا إِلَى عَمَانِ فِي
سَفْنٍ صَيِّدَ ظِلَاتٍ فِي الْبَحْرِ عِدَّةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ بَيَّعَتْ هُنَا مِنْ قَبْلِ
صَاحِبِهَا الَّذِي اشْتَرَاهَا فِي عَمَانِ، اشْتَرَتْهَا مِنْهُ جَدَّةُ الْحَاكِمِ
لِأَبِيهِ وَرَبَّتْهَا مَعَ ابْنَتِهَا، ظَلَّتْ مَعَهُمْ تَحْدُمُ وَتَطْبُخُ وَتَعْلَمُ
الْعَرَبِيَّةَ بَلَكِنَّةً تَتَكَسَّرُ أحيانًا وَالَّتِي كَانَتْ حِينَئِذٍ مَعَ طَبَّوْلِ
الْفِرْقِ الْكَثِيرَةِ يَنْقُضُ جِسْمُهَا كُلَّهُ كَمَنْ مَسَّهُ جَانٌ وَتَسْقُطُ عَلَى
الْأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا وَفَمُهَا يَزِيدُ وَيُرْغِي وَتَنْتَهِي دَجْ بِكَلِمَاتٍ
زَنْجِيَّةٍ لَا يَفْهَمُونَهَا. فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كَانَ شُرَاءُ الْعَبِيدِ لَا يَكْلِفُ
شَيْئًا.

منذ اختطافها وهي تحمل في رقبتها حرزاً متواضعاً من جلد حيوان وحين كانوا يسألونها عنه كانت ترد عليهم بلمحة سواحيلية لا تذكرها جيداً أي إنه حرز من العين الحاسدة. كانت مباركة من قرية الكايا التي تحوطها الأسوار بقوائمها الخشبية المدببة لتحتمي فيه القبائل من بطش القبائل القوية مثل الماساي والجالا والبرتغاليين قديماً، وكانت تخاف كثيراً من الظل فهي ككل قبائل البانتو الذين يعتقدون أن الإنسان روح وظل. وأن الظل يتحرك وحده ويمكن الإمساك به وسجنه وهذا ما يتشابه مع عقائد الفراعنة عن الكا والبال كما أخبرني طه.

وكان سعيد زوجها منسجماً مع هذه الفكرة وكلما خرج أخبر مباركة أنه سجن ظلها تحت حجرة فلا تس تطيع أن تتحرك من مكانها حتى يعود.

كانت حين تفريق لا تعلم شيئاً عما حدث لها، لكن صدوت تلك الطبول كان كمن يستدعيها إلى بلاده في الأدغال البعيدة، حيث كان العمانيون يذهبون هناك للتجارة واختطاف الأطفال والعودة بهم كتجارة رائجة لديهم، ثم بيعهم مرة أخرى لتجار العبيد حيث يتم شحنهم إلى السواحل وبيعهم

الخليج. وربما هذا ما يقصده المسعودي في سياق حديثه عن المحيط الهندي:

"والأسافل من بحرهم، هي أقاصي بلاد ال زنج وإليه ا تقصد مراكب العمانيين وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية البربري من بلاد الزنج والحبشة ويسمى " الخليج البربري "، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة " قلنبو " من بحر الزنج. ه هؤلاء القوم ال ذين يركبون البحر من أهل عمان، عرب من " اللزد " وينتهي ي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قلنبو وإلى بلاد الس فالة والواق الواق من أقاصي أرض الزنج وهي غاية مقاصدهم " ولقد وصفهم القلقشندي بقوله " ولهم متاجر مربحة وواصلهم إلى الهند لا ينقطع ".

تلك الطبول التي تشبه تمامًا طبولاً سمعتها في صد خرها حين كانت تعيش مع والديها في الأدغال الأفريقيّة. كان والدها واسمه العقل مال، فناصر أفيال أصله من منطقة تسمى ياوو. اختطف هو أيضًا، لكنه هرب في نجوو ومنها أتى إلى الكايا، استقر وتزوج وأنجب مباركة، وها هي تختطف.. ومنذ أن اختطفت وفي كل مرة تسمع ه ذه الطبول تعدود

روحها إلى الرحيل إلى هناك وظلت هكذا حتى بعد زواجه
من سعيد بعد أن كبرت ريحانة قليلاً وأخذتها صاحبة القصر
لتربيته.

أنجبت منه كلثوم وعليونة، وحدها عليونة التي لم تشبههم
بل تشبه هاشماً لهذا حين رآها للمرة الأولى تزور مباركة في
القصر هفا قلبه لها وظل مقيمًا بها وهي التي كانت متزوجة
وابنة ليل تعمل في فرقة خموس، ترقص وتغني وأحياناً
كثيرة تكون علاقات خاصة برجال كثيرين تشرب كثيراً إلى
حد السكر لكن روحها الجميلة وضحكتها الواضحة الصريحة
تلف قلبه بحبل ناعم من الدلال، لم ير أحداً بمثل دلالتها الفاتن
والوقور أيضاً لم تكن كموس بل هي امرأة تختار حياتها،
تتكلم بشكل هادئ وممتع تنظر بحياد ودعة، ولا تبتسم إلا
قليلاً ربما لأنها تلبس البرقع على وجهها فلم ير فيها إلا في
المرات التي كانت تلبس برقعاً قصيراً حيث يرى سنا ذهبية
واحدة تبرز من بين صفوف أسنانها كان يحلم بها كثيراً،
وحين طُلِّقَ ارتعدت أعضاؤه كلها، ركض ليدته
واستعطفها أن يتزوجها، شتمته سيدته، كانت تريد له عبة
صالحة لكنه يحب علياء، تزوجها في هدوء لم تكن تحب

فروحها معلقة بالخمر والغناء، وجسد دها معق بـ الرقص والرجال. لكنه كان يحبها كثيراً تحمل منها خيانتها وسكرها الدائم تحمل ذهابها مع الفرقة. حاول كثير راً أن يمنعه، أن يقتلها لكنه رضح في النهاية لها وظل صابراً محباً حتى شوهت النار مشتعلة بها ورائحة الجاز تملأ المكان.

قالوا لقد سكبت على نفسها الجاز وهي سكرانة، واحترقت لكن حكايتها ظلت سرّاً لم يبح به على الإطلاق، كثير رون اتهموه بها، وكثيرون اتهموها بعد رحيلها بأكثر من تهملة، لكنها أثرت كثيراً على فرقة خموس حيث كانت أجمل بذات فرقتها وأحسنهن رقصاً أو حتى دلالاً، تشرب حتى تنمل، لكنها تظل في جلستها كما هي وحين مانت ظل هاشم في الحظيرة فترة ثم اختفى تماماً.

قلت: - أريد أن أتزوج هادفاً.

قالت أمي

- ١ -

لم تتجاوز المظاهرات حدود الجامعة، هكذا كان مقرراً لها وهكذا صار، بعض الأفراد فقط اقتربوا من باب الجامعة ثم تراجعوا بسرعة مذهلة.

كان يجب أن تكون أقوى كما كانت في نوفمبر ١٩٧٦.
وجدت طه، فقلت له: - طه.. " ما أنزلنا عليك القرآن
لنشفى.. "

قابله في الجامعة.. كان يوزع بعض الأوراق المصورة،
قدم لي إحداها فسألته:

- إيه ده؟

- دي فسيلة خدى ازرعها، " فمن كان في يده فسيلة يوم
القيامة فليخرسها " .

ابتسمت وقالت:

- يا عيني، دي بقى فيها أي ثمر؟

فرد:

- دى يا ستي فسايل أنور كامل في آخر عمره وثمره ١
المرّة دي ليبرالي.

- وقبل كده كان إيه؟

- كان " الخبز والحرية " .

- ومين بقى أنور كامل؟

- والله ما تعرفهوش؟ آمال هانف بيهرش دماغك ط ول

الوقت في إيه؟ في الحب من غير خبز ولا حرية؟

- عمره ما جاب سيرة حد..

- سيرة حد؟ يا بنتي دي سيرة حركة مش حد.

- سيبنا من أنور كامل كنت عاوز أتكلم معاك.

- أنا مش فاضي دلوقت.

- يا أخي إفضالي شوية، عاوزة أتكلم معاك، هانف مش

عاوزني أتناقش معاك في أي حاجة خايف منك عليّ، فيه إيه

بينك وبينه؟

- أبدا، اختلاف أيديولوجي يا ستي.

- أنا كل ما أكلّم حد منكم يقول اختلاف أيديولوجي، في ٤

إيه؟

- إحنا متخافين من إمبراح.

- إليه؟

- في الأفكار، مالكيش دعوة.

- يعني إيه ماليش دعوه وهو أنا مش لـي رأي كم إن

وبعدين تتخافوا انتوا وأنا ذنبي إيه. وأفكار إيه اللـي انتـوا
اتخافنوا عليها؟

كان ذلك الحوار ما بين الماركسيين والثروستكيين دائـم
الحدوث. يرتفع أحياناً إلى حد الاتهام بالخيانة، وتجنـد
بعضهم بعضاً هذا الداء المتمكن في حركة اليسار عموماً منذ
الثلاثينيات لا يزال ينخر قوتها ويجعل الـهـم الاجتماعـي
يتراجع مع اندفاع الصراع الفكري.

فمنذ النقي " هنري كورييل " ذلك الفتى الصغير أخـذ
العينين ذو الخصلة الساقطة على جبينه عند سفح الهرم لـم
يتوقف أتباع هنري عن النظر إلى أنور كامل ومن معه على
أنهم جماعة من الفنانين ذوي تعاطف مع الطبقة الفقيرة.

قال لي طه: - هذا حق يراد به باطل فمع جورج حـزـين
ولطف الله سليمان والبير قصيري كان هناك أفراد من سلاح
الطيران ونقابات العمال انضموا إلى أنور كامل لاقتـداعهم
بالأفكار التي يطرحها وليس تعاطفاً مع ما كتبه.

أحببت أن أفهم تغيّرت أمور كثيرة حول حركة الطلبة، حاولت أن أسأله وأنقل من كلية إلى كلية ومن جماعة إلى أخرى، أن أجد من يجيب عن أسئلتي.

كلف نفسي هذا الصيف بالكتابة حول ثورة ظفار، ذهبت إلى د. سامي وطلبت منه مساعدتي في البحث، نظر إلى من وراء نظارته بتمعن شديد وقال: ابدئي.

تجرّني قدامي مع حركة المظاهرات دون إرادة ندو العمق، أبحث عن هائف، عن وجوده، عن ظله، كأن يده على كتفي، هكذا سأرى العالم ما زال هادئاً رغم قسوته الواضحة.

- ٢ -

فتحت عيني اليوم على صوت أمي. لا صوت لها في أنفي، لكن وجودها مؤثر ومتحكم في البيت، ومع ذلك كلمت كبرت استطاعت أن ترى قسوة العالم، كانت تقول: لم اذا يمتعنا الله بقوتنا ثم يسحبها منا، وكأنه يظهر لنا ضعفنا هكذا، وكلما كبرنا انسحبت منا القوة والمسة يطرد حتى على أنق الأشياء وأبسطها، وكانت تدعو أن تموت وهي ما زالت قوية

وعلى فراشها ولا تحتاج إلى أحد. حين ماتت أوصتني وصية واحدة فقط قالت أُمِّي: لا تنلني نفسك لأحد وماتت.

تقول أُمِّي دائماً: إن الحياة مثل غرفة بها بابان تدخل من أحدهما لتُمر فيها وتخرج من الآخر وكأنك لم تدخل، أو كمجرد ضيف عابر، وكانت مع ذلك تقبل على الحياة برغبة عارمة في الاستمتاع بها بأشكال بسيطة وعميقة، ثم ثلث فرحها في تجمع البشر حولها، ومع ذلك كانت تؤمن بالمدل القائل " لكل مقام مقال " فلا تخلط الأشكال مع بعضها بعضاً، ولا تجالس الضدين مع بعضهما بعضاً. كانت الحالة الإنسانية هي التي تدخل من خلالها، وكانت تقول: إن الإنسان البسيط أجمل وأصدق في محبته فهو لا ينتظر منك إلا المحبة الخالصة فقط، ومع ذلك فهي تتعامل بهذه البساطة دون أن تنسى في لحظة أنها أميرة عليه. أن توازن بين حالتي بشكل هارموني جميل، لم أستطع أنا الذي تناسى ذلك وتفاجأ به كل مرة، وكانت تعيب على ما تقوله هي، لأنني أقوم به دون النظر إلى ما تحت قدمي. وكأنني أحبس الظل تحتي. أُمِّي على حق، وربما كنت أنا أيضاً على حق، هذا ما أراه. فأنا أحاول بعقلي اقتلاع قدمي من جذورها، لكن

ذاتي ترنو إلى البعيد وإلى هذه الجذور، تتأملها وتمتص منها تراكمات ماضٍ بدأ يجمع ذرائعه على مآدون الحيرة مارة بالإمارة ليستقر هنا في القاهرة لالتقاط أنفاس المقاتل، وكأن الموج يمسح معه تلك الحيرة التي تغمرني كي ألقى درع المحارب وأرتكن في انتظار ما يوحى القدر.

لم تحدثني يوماً وهي تلمس جنورها الممتدة إلى الحصد والعابرة منه إلى سفن القواسم لكنني أمد له كالشفق في عينيها، أحداثه متداخلة لكنها تزيد قوتها، وحين ألمحها ترنو إلى البعيد وتتحسس بطنها أدرك تماماً أنها تتحسس أوراق أبي السرية التي لفتها قبل أن ترحل عن الوطن الذي غادرته، ولم تعد له إلا في ثابوت ومعها أحداث طمست ولم تبح بها كما لم يبح بها أبي أو أخي من قبل حتى يتخففوا من ذلك الحمل.

ما زالت جالسة تستقي من مريم حنكها، كي تخفي ما يدور بداخلها وتظل ملامح وجهها ثابتة لا تتغير على عكس ملامحي التي تقضح تؤثر وتدفعني إلى البوح والذي جعلها تمنعني من الذهاب إلى الجامعة حتى تتوقف المظاهرات التي

يُحلم أفرادها بما كان زوجها يُحلم به وتُشاركه هي ومريم ذلك الحلم.

محمد دولار

كنتُ أهم بالخروج، حين فتحتُ باب البيت وجدتُ محمد دولار أمامي حاملاً بيديه سلّة بها بعض الدجاج المذبوح، فقالتُ له:

- اللي مالوش أول، مالوش ثاني. إيه ده يا محمد دانت رجعت تبّيع الفراخ؟

- أيوه يا ست شمسة خلاص أهّي دي الشغلّة اللي الواحد عارفها من الأول مضمونة وفي حالها لا تدخل السجّ ولا تخليّني هربان وكمان ما عند ديش فلوس كثير أعمل مشروعات زي نجم كده.

- ياه هوه نجم بقى عنده مشروعات !

- يوه، هو إنت ما سمعتيش عنه، ده ربنا فتح عليه من وسع.

- لا والله، أنا كل اللي عارفاه منك ومنه بس.

- ده بقى الحاج نجم، وعنده محلين صرافة ف د ال دنيا،
وبقى أكبر مستورد للأدوات الكهربائية.

- نجم؟

- أيوه، ده اللي باين بس، ده بقى عند ده ب زنس كثير
وعمال زي المنشار في السمسة والعقارات وفي كل حاجة..
ربنا يرزقنا.

- طيب وانت؟

- أنا...؟ ما لِحَبِش معايا.

- هي إيه دي...؟

- الدنيا يا ست شمسة، كان الداخل زي الخارج أنا كنت
بشيل البضاعة وأوصلها لكن معنديش مسالك هو اللي كان
عارف الأساندة الكبار اللي بيحبيب منهم الفلوس.

- ليه هوه مش كان زيك...؟

- أيوه، بس هو فهلوي أكثر مني، وغامر ودخل سد كك
كثيرة عشان كده اتسجن أكثر من مرة وهرب أكثر من مرة
من البوليس.

- ليه كل ده، وانت يا محمد؟

- أنا بخاف وعندي عيال عايزهم يعيشوا، بس لو كنت
أعرف السكة صح وكان عندي فلوس ألعب بيها، ياه كنت
زمانى زيه كان عنده ناس واثقة فيه وبتديله يلعب بفلوسها
ويأخذ المكس ليه وبعدين دخل المكسب في اللعبة ضد ريت
معه، أنا كنت بس بوصل وبصرف وملا عرفت أسلك
أموري.

- أمال إيه حكاية محمد دولار محمد دولار، ده الواحد
فاكر الكل في الكل.

- سمعة بس والله.

- وبلوقت؟

- دلوقت اللي كانوا بيسموني محمد دولار بقوا بيسموني
محمد فراخ. شايعة الزمن بيعمل إيه.

- معلش، ربنا يرزق.

- آه والله نفسي أعمل مزرعة فراخ، ما تشاركيني يا ست
شمسة ده مكسبها مية مية.

- آه دى اللي ناقص كمان، أنا مستعجلة يا محمد معلش،
ماما جيا لك بعد شوية ألاقولي، هو أنت جيت كام فرخة؟

شخص طارئ في الحياة

لبست أمي فستاناً أسود وخرجت، سألتها حين عادت:

- أين كنت؟

قالت إنها ذهبت إلى التعزية في الأسطى علي السباك.

- علي مات؟ شو كان فيه؟

سكتة قلبية، رحى أعزى أهله والحين مسكين ابنه خال د
يدرس في الجامعة ويشغل في المحل ويصرف على البيت
وعلى إخوانه.

- علي مات؟ لم أكن أعلم أنني سأحزن على شخص

طارئ في الحياة هكذا. في لحظة أصبح هذا الشخص جزءاً
من عاطفتي. لقد كان يهتم بأشياء صالحة، مناسبة بات لا
يتذكرها أحد مثل العيد، المولد، رأس السنة، كان يبحث عن
آية مناسبة ليرسل الورد لي، آية مناسبة.. وحين لا يجد
مناسبة يأتي بالورد ويقول إن هناك مناسبة من بعيدة عنده
أحضر لأجلها الورد، وكانت أمي ترسل الورد إلى غرفتي
وتقول: - من الباشمهندس علي. أنظر إليه باستخفاف وأطلب

منهم أن يضعوه في أي مكان إلا غرفتي متحججة بضيق النفس.

هأنذا اليوم لن أتحجج بشيء لأن باقات الورد قد انتهت، ولم أعد أقطف الورد لهادف أيضاً. بعد عدة أيام أرسلت أمي إلى الباشمهندس خالد ليحضر، هناك مشد كلة في الحمام، حضر وكان يركب سيارة أبيه، ويلبس الملابس نفسها، هو علي لكنه أصغر بكثير من ٢٠ عاماً ربما أكثر قليلاً، لقد تزوج صغيراً وأنجب صغيراً حتى ابنسامته كانت مثل أبيه إلا الورد لم يحضر ورداً ولم يحضره بعد ذلك أبداً. تخرج في الجامعة وبنى عمارة أخرى جعل دورها الأرضي كاملاً محلاً آخر للميراميك وانتقل إلى العمارة الجديدة وجعل لكل ولد من أولاده شقة ولم يرسل لي هو ولا غيره وولد واحد.

قدم مريم

- ١ -

فَتَحَتْ رِوَايَةً " بَجَعَاتٌ بَرِيَّةٌ " وَقَرَأَتْ:

جَدَّتِي " رَصِيدُهَا الْأَكْبَرُ كَانَ قَدَمَيْهَا الْمَرْبُوطَتَيْنِ تُسَدُّ مِيَانَ
بِاللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ زُنَابِقُ ذَهَبِيَّةٍ بِطُولِ ثَلَاثِ بُوَصَاتٍ، سَدَانٌ -
تُسُونٌ - عَن - لِيَانٍ، وَكَانَ هَذَا يَعْنِي أَنَّهَا تَمْشِي كَأَنَّهَا عَوْدٌ
صَفْصَافٌ طَرِيٌّ، غَضٌّ فِي نَسْمَةٍ رَبِيعِيَّةٍ كَمَا كَانَ خَبْرَاءُ
النِّسَاءِ الصِّينِيِّينَ يَقُولُونَ تَقْلِيدِيًّا إِذْ كَانَ يَفْتَرَضُ بِمَنْظَرِ الْمَرْأَةِ
الَّتِي تَتَهَادَى عَلَى قَدَمَيْنِ مَرْبُوطَتَيْنِ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْثِيرٌ مِثْلُ
فِي الرِّجَالِ لِأَسْبَابٍ مِنْهَا أَنْ انْكَشَافَ ضَعْفُهَا يَثِيرُ لَدَى النَّاضِرِ
إِحْسَاسًا بِالْإِحْتِمَاءِ. رَبَطْتُ قَدَمَيَّ عِنْدَمَا كَانَتْ فِي سَنَتِهَا
الثَّانِيَةِ إِذْ قَامَتْ أُمُّهَا الَّتِي كَانَتْ نَفْسُهَا مَرْبُوطَةٌ الْقَدَمَيْنِ بِلَفِ
قِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَاشِ الْأَبْيَضِ طَوْلِهَا حَوَالِي عِشْرِينَ قَدَمًا حَوْلَ
قَدَمَيْهَا طَاوِيَةً كُلَّ الْأَصَابِعِ بِاسْتِثْنَاءِ الإِصْبَعِ الْكَبِيرِ إِلَى الدَّخْلِ
تَحْتَ بَطَانَةِ الْقَدَمِ ثُمَّ وَضَعْتُ حَجْرًا كَبِيرًا فَوْقَهَا لِمَحَقِّ قَدَمَيْ
الْقَدَمِ وَكَانَتْ جَدَّتِي تَصْرُخُ مِنَ الْعَذَابِ، وَحِينَ كَانَتْ تُسْتَعْطَفُ
أُمُّهَا أَنْ تَفَكَّ رِبَاطَهَا كَانَتْ أُمُّهَا تَأْخُذُ فِي النَّحِيبِ وَتَقُولُ: لَا..

إن القدمين غير المربوطتين ستخربان كل حياتها. وعند دما
أنهت جدتي صلاتها سجدت لبوذا ثلاث مرات ولدى نهوضها
فقدت توازنها قليلاً حيث كان ذلك سهلاً الحدوث بقدمين
مربوطتين.

عندما أنهت جدتي صلاتها سجدت لله داعية من قلبها،
ولدى نهوضها من الكرسي الذي سجدت من فوقه لأنه لا
تستطيع السجود على الأرض فقدت هي أيضاً توازنها قليلاً
حيث كان ذلك أيضاً سهلاً الحدوث مع قدم مكسورة لا تستوي
أبداً.

تركت الكتاب وركضت لأساعدها على التوازن أمسكت
بها وأمسكت هي بالمشاية التي أمامها ومن ثم استطاعت أن
توازن نفسها وتقف.

. ٢ .

كان والدي يقول لي دائماً:

- سنضعك في صندوق صغير حتى تكبري لا يظهر منه
إلا رأسك حتى لا تطولي أكثر مما أنت عليه، ثم ونظرة
بمتوئين؟

فقد كنت أطول من في البيت أنا القصيرة بالنسبة إلى
الآخرين، وكلما جلست معه نظر إلى قدمي وقال:

- لو كنت صينية لما تركوا رجلك تكبر هكذا.

إن هو يعلم أشياء كثيرة عن الصين وأنا أتعرف عليها
من خلال " بجعات برية " .

ذهبت اليوم إلى الجامعة ورأيت هادفاً، اتفقت أن نسير
مشياً على الأقدام من الجامعة إلى وسط المدينة لنشترى
بعض الكتب من مكتبة تتوسط الميدان الواسع الكبير، لم
أستطع السير كثيراً، قدمي موروثة من جدتي وممن جدة "
يونغشيانغ "، إذ أنها برغم كبرها، وبرغم أن والدي يسخر
منها ويقول لي:

- كان لازم نربطها لك مثل الصينيين.

فإنها أصبحت مثلهم ولا أستطيع السير بها طويلاً.

أوقفت هادفاً وقلت له:

- لا أستطيع السير أكثر.

نظر إلى وقال:

- نحن ما زلنا في البداية، إذهب بتراجع بي بسرعة

وتضعفي، خليك جدعة شوية والا تربيتك تربية متدلعة؟

نظرت إليه بضيق وقلت:

- عمر الدلع ما كان عيب، أنا متلعة بس جدعة أكثر منك ومتربية في المصاعب مش في السهولة، وتحملت آلام قدمي وواصلت السير إلى جانبه.

- ٣ -

مرضت مريم اليوم كانت ترتجف بحرارة عالية، يعادوها هذا الحال كثيراً، تنام عدة أيام، تهذي قليلاً وتقرأ القرآن إن أمكن لها ذلك. لا تأكل إلا قليلاً لكنها تواظب على شرب القهوة وعجن الزعفران بماء الورد ووضعه على قمة رأسها وفي أنفها ووراء أذنيها، وحين تنام تصفر الوجه لثديها وبلون ده ويختمر مع دهن العود الذي تضعه في ثيابها وفي جلد شعرها. حين تدخل غرفتها تبدأ بشم رائحتها المميزة ورؤية اصطبغ ثيابها وشرافتها باللون الأصفر.

منذ أيام تعاني من صداع شديد، أهملته كالعادة، ثم ازداد عليها فبدأت طفوسها. سبقي هكذا عدة أيام أخرى ثم تصحو تنفض الغطاء من على جسدها كأن لم تكن بها علامة أبدًا، وكعادتها تومض عيناها بالوهج الذي يوحى بسطوتها وقوة روحها.

- خالتي مريم.

هكذا كان يناديها الحاكم دوماً لكن هذه المرة رأت في عينيهِ قلماً يوحى بأمر مهم، فتبعته إلى غرفته الذي انتظر على بابها حتى دخلت وأغلق الباب خلفها.

- شو علومك...؟

- مب زينه.

نظرت إليه ملياً وأيقنت أن الأمر مهم، بل وربما يكون خطيراً.

صمت قليلاً ونظر في عينيها مباشرة، ومنذ تلك اللحظة أصبح منزل مريم مأوى لثوار الجبل الأخضر، لأن بيتها نعم المكان وهي بعيدة عن أعين الإنجليز وجواسيسهم دون أن يلاحظ أحد ذلك بالرغم من أن بيتها مفتوح دائماً وكان المترددون عليها كثيرين لكنها بقوة المعهودة وثقتها بقدرتها هي العاجزة عن الحركة استطاعت أن يكون الأمر لديها عادياً جداً، يظنون لديها حتى تأتي عربات الفاكهة بالموز في الليل تحملهم في الخفاء إلى مدينة رأس الخيمة "جلفار" حيث تنتظرهم السفن والقوارب لتقلهم إلى السعودية وبغداد. لم يكن هذا المنزل إلا مأوى كبيراً لثواب الجبل الأخضر.

يأتون إليها يسألون عنها بالإسم ليختبئوا عندها هرباً من عمان والإنجليز وكل ما يمكنه الوشاية بهم فيفشد في مسرهم ويمسكون بهم ليعيدوهم إلى عمان مرة أخرى، حيث ينتظرهم مصير لا يعلمونه ربما السجن في قلعة ما وربما لا غيره. فاتقّت مع والدي أن يختبئوا لديها لأن النظر موجه كله إليه وهو ذو سلطة ولهذا كان اختيار الحاكم له. وكان ممن اختبأ عندها طالب وغالب.

لم تكن إذن مريم بالمرأة الضعيفة، بل امرأة قوية قادرة لا ينظر إلى جمالها برغم وضوحه لكن شخصيتها القوية وعائلتها تجعلانها ذات مكانة لا يستطيع الآخر التعامل معها من منطق الرجل والمرأة.

- ٤ -

كانت مريم آتية من منزل إحدى الأسر القريبة من بيتها حين طلبوا منها مساعدتهم في توليد إحدى بناتهم فشدت مرث عن يديها وتقدمت تسخن الماء وتمسد المتعصرة في ال ولادة بحل الياسمين وهو زيت الياسمين ذو الرائحة الطيبة النفاذة. ظلت تضع أطراف أصابعها فيه ثم تبدأ بوضعها على بطن

الوالدة تَمسحها بحركات دائرية حتى يستدير الطفل داخل بطنها مع حركة أصابعها فيستطيع الخروج بسهولة بدلاً من اضطرارهم إلى الذهاب به إلى مستشفى الحكيمه " هوو مان " .

بعد الولادة مباشرة أمسكت الوليد وربطت حبله السري ثم قطعتَه بموسى حادة ثم بسملت عليه ورفعت الأذان في أذنيه قرأت بعض سور من القرآن ثم عادت إلى منزلها .

كانت تداوي المريض وتسم بالنار بعض الأمراض التي تحتاج إلى الوسم، وهو الكي بالنار، مرة تضع عصاً في رأسها دبوس حديدي تضعه في النار حتى يحمر ثم تضعه على الإصبع الأصغر في قدم المريض ومرة تضعه وراء أذنه اليمنى ومرة تحت الحجاب الحاجز بأربعة أصابع. لكل داء مكان للكي لا يعلمه إلا ذوو الخبرة والعارفون به مثل مريم .

ولكل عضلة طريقة لتخديرها وذلكها مثل إذا كان المريض يعاني من عضلة تضايقه عند التنفس فيحسب أن هناك نغزة في القلب كلما بدأ في الشهيق فتتصحبه بل تـ ربط له زنده الأيمن وسط العضلة تماماً وبعد ساعات تختفي آلامه

أما من يحس بعضلة في كتفه فتدوسه بأطراف أصابع قدميها
- قبل عجزها وقد استعاضت بيديها بعد ذلك - في إبطه ثم
في قاع يده بطريقة معينة، هكذا تعلمت بعض الطب القديسي
وكيفية ممارسته واقتنع المرضى بذلك لأنهم يمارسونه أيضاً
كما تمارسه إذ إنه معروف لديهم.

” رسالة الحاكمة فاطمة بنت محمد ” البيوت والعقول

” لم تكن المرأة غريبة عن دم اليز الحكم في العالم الإسلامي، وفي سياق الأرض السواحلية لم تكن الحاكمة فاطمة استثناء بأي شئ كل من الأئمة كمال، فهذه الملكات مشهورات في الساحل الشرقي منذ قديم الزمان وقد وصدتنا أسماء منها السيدة عزيزة صاحبة زنجبار، والسيدة مكيدسي صاحبة ممباسا، والسيدة ماسورو صاحبة سيو.

وتقول أصل الرسالة بالسواحلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - ميمي مقلم أو كلو السلطان فاطمة، ابنت المد لطان

مقلم محمد مكب ٤

٢ - يانديل ١٥ موجب وات ميني ٦ جمع ٧ بن المرحوم

السيد ٨ ميني كاج ٩ سلام بعد

٣ - يا ورق ١٠ كوجف ١١ كب نون ١٢ وال يامام ١٣

نوكيل يامام الشيخ على وترجمة الفقرات الثلاثة إلى

العربية كالآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - أنا الحاكمة فاطمة بنت السلطان الحاكم محمد الكبير .

٢ - هذا الكتاب موجه إلى السيد / جمع ه بن السيد

المرحوم كاجي . بعد السلام :

٣ - هذا الكتاب لتعريفك أنني رأيت والي الإمام ووكيل ه

الشيخ علي .

البيوت والعقول

لماذا تُحكم النساء البيوت وعقول رجالها؟، هكذا فكرت أول مرة حين تذكرت جدتي، جدتي الأولى أم أبي الذي تزوجها جدي الحاكم بعد اتفاق تم بينه وبين جدي والد جدتي عبد الرحمن حاكم الحيرة بمساعدته على استعادة حكمه والذي استولى عليه أولاد عمه وكأن الاتفاق يقتضي أن يتزوج الحاكم وأخوه ابنتي حاكم الحيرة، مقابل الولاء الكامل والمساعدة في الانقضاء على الحكم وعودتها إلى حاكمها الشرعي، والشرعية هنا مستقاة من الوراثة أي من الأب إلى الابن.

كانت جدتي هذه قد تزوجت من قبل حاكماً آخر وكان عمرها آنذاك تسع سنوات وهو رجل يقارب الستين وله من الأولاد كثير، لكنها رفضته وعادت دون الدخول عليها إلى أهلها أما زوجها الثاني فكان بالحاكم والذي ستجذب منه عمتي وأبي والذي سيحكم بعد وفاة والده لكن جدتي هذه برغم قوتها ورباطة جأشها كانت الزوجة الأولى وتلتها زوجات أخريات كانت أهمهن خولة والتي كانت المحببة

والمقربة، وهي التي تحكم وتأمر ويبيدها زمام الأمور البيئية بل وتتسحب إلى الخارج في كثير من الأحيان.

لم تكن جميلة كما قيل لي، لكنها ذات قوة ساحرة في انجذاب جدي لها، أما جدتي وكانت ذات قوام ضئيل وأذنان معقوف وشعر ناعم وأسود وذات بشرة بيضاء تميل إلى الاحمرار وعيناها الساحرتان تسميان بالعيون الشهلاء وهي الحسلي الفاتح ذات الرموش السوداء الكثيفة والطويلة يزينها حاجب كثيف أسود أما شفاتها فكانتا رقيقتين مثلها لا يذبلان سريعاً كأوراق وردة حمراء.

جدتي هذه ظلت زوجة في الصمت ولم تكن جادة أم هي بأحسن حظاً في زيجتها وهي التي تزوجت أخ الحاكم والذي تزوج معها ثلاثاً أخريات ومن المضحك أن جميعهن يسمين مريم ولكن جدتي انفصلت عنه وسكنت بمفردها لا وربما طلق.

جدة أمي كانت الأصغر وكانت بيضاء البشرة، ذات سمرة ملحوظة. قصيرة القامة، ذات فم مكنتز أحمر وأذنان يشبه أنفي أما شعرها فكان يميل إلى اللون الكستنائي، كانت ترى

الجن وتحدث معهم بل كانت تعاندهم وتُرد عليهم وتطردهم من بيتها وكان من معها يسمعون صراخهم.

أما جدي فأيضاً لا أذكر منه إلا يوماً ذهب ت فـ هـ مـ مـ ع والدتي، كان شيء ما ممدداً على السرير لا أذكره، لا أذكر له وصفا لكنني أعلم أن ما كان ممدداً هناك كان جدي وكان مصابا بكسر في قدمه وحين عدنا من عنده إلى منزلنا فـ الوـ لنا إنه مات لم أذكر من جدي غير لحظة واحدة قبل موته، لا أدري لماذا كتب لي أن أراه ليظل معلقا في ذاكرتي بـ قدمه المـ المكسورة وجسده الممدد على السرير لحظة واحدة قبل موته، لحظة واحدة في الذاكرة، مجرد لحظة تعلقني في الماضي، الذي أقرأه في عيون أهلي وكلامهم، وفي كتب التاريخ.

لكن لحظتي مختلفة، لحظة أرى فيها الشـ خص بحالته الإنسانية وهو عاجز وراقد على فراش الموت كما لو أنني رأيته هكذا كي أقي نفسي التاريخ المقروء الجامد السلطوي. كانت الأقرب روحاً لي وكنت الأقرب لها أيضاً.

- كل هذا يا مريم... " ولكن مثلي لا يذاع له سرٌ " .

حين مرضت مرضها الأخير قامت بعد عدة أيام قُضت نَها في غيبوبة لم تتنبه فيها سوى لشرب القهوة ووضع الزعفران

على رأسها وفي أنفها ثم استنشاقه وإن استطاعت أكل بعض
الأرز باللبن الرائب أو أكل بعض التمر مع القهوة لا تتركلم
لكذك تسمعها تدعو:

- يا الله شوف حالي، ثم تتقلب على جنبها الآخر.

لم تكن لمريم غير أختها التي تزوجت وكان عمرها تسع
سنوات رجلاً يقارب الستين له الكثير من الأولاد لم تسد تطع
الرفض، زوجها وحملوها كما كانت العادات آن ذاك في
سجادة إلى غرفة زوجها حين رآته رفضه لله وعادته دون
الدخول عليها إلى أهلها وكانت تسير فوق جمل بجانب البحر
مع خدامها وخداماتها، وقفت أمام البحر رمت كل ذهبها الذي
أهداه زوجها لها قبل التخلص من هذه الزيجة وكانت معها "
مباركة " الخادمة الزنجية.

حين يذهب أهلها إلى البر للمصيف تسير بجانب مباركة
وأحياناً مع أختها مريم بين التلال في الليل.

وكما يروون، قيل أنها ممسوسة وأنها وهي صغيرة قد
نطحها جدي أمام شاطئ بحر أمام خيمتهم كانت مع أختها
وكانت معهما مباركة، ويقال أيضاً إن هذا الجددي كان
ساحراً، يقال إن هذا الجددي كان ساحراً تحول من الشاة إلى

الجدي ثم إلى ثور، حين رأته ركضت فسقطت وقبل الوصول إلى الأرض نطحها فوجدت نفسها تطير مسافة طويلة ثم تنزل على قدميها وتجلس وكأن أحداً ما يحتويه، كان القمر يومها مستديراً ومنيراً الدروب والمنحنيات وهى حين يستدير القمر تتشنج أحياناً وتضرب برأسها الحائط وكأنها تنطحه حتى يشج وتنزف أياماً، أما مباركة فظلت كلما سمعت طبولاً تنق، يشدها صوته ممسوسة. وأن الجني الذي يتحدث بلسانها وبصوت رجل وبكلام غير مفهوم، ربما يكون كلاماً زنجياً، هو الذي أصاب عمته وأن مباركة هي المموسة وأن ذلك الجدي كان لها وليس لعمتها لذلك زوجا وعمتها سريعاً للحاكم وأقاموا الولائم والأعراس أما مباركة فأرسلوا بها إلى منطقة أخرى مع بعض الخاديات والنسوة لعمل زار بعيداً عنهم لعل الجن ينسل من جسدها، هذا الجن الذي حضر مع ساحر قادم من بهله في عمان وكان جائعاً فاختارها ليأكلها، لكنها ورثت مع زواجها قوة الدفاع الطبيعية فيها، وحين تحول إلى ثور بعيداً عنها لدفعته، فأصاب عمته ثم طار عائداً إلى مدينته قبل ظهور الشمس، وتلبسها شيطانه منذ ذلك اليوم، والذي كانت تتحدث بصوته

قالوا إنه ملك الجان ولهذا حين يحضر وتتكلم بصوته، كانت
مباركة تتكلم وكأنها ملكة، تأمر وتزجر وحين يقوم برحلات
ويتركها، يترك معها من يحرسها وهو جني مشلول لهذا نظل
مشلولة لا نتحرك وحين يسألونها نقول إن زوجها لا س حيداً
سجن ظلها حتى يقرأوا عليها سوراً من القرآن ثم ينزلون: " يا
موسى إني أنا الله فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى "
ثلاث مرات يكررون فيها قوله: " يا موسى إني أنا الله " سبع
مرات فتستطيع أن تتحرك بعد ذلك.

برغش والعهود نامه

في زنجبار ١٧٧٣ ألغيت العبودية باتفاقيات " العهود نامه " بين ماجد وأخيه برغش وبريطانيا كان من قبل تجارة العبيد ثم ألغيت لكن بعد إلغائها صار الاقتصاد ضعيفاً.

وحين انضربت تجارة القرنفل بوجود مزارع في جاوا " اندونيسيا " وتغيرت التجارة بدخول منافس قوي حيث دخلت زنجبار كميناء لتصدير العبيد، زنجبار العاصمة، يجلبون إليها العبيد من أعماق أفريقيا إلى السفن الراحلة من موانئ السواحل لتغير تجارة العبيد اتجاهها إلى الغرب الأفريقي ومن ثم إلى ليبيريا ثم أمريكا بدخولها كمنافس قوي فصارت زنجبار عاصمة تجلب إليها العبيد من عمق أفريقيا لتصديرهم.

ولقد حرص برغش ابن عمه والي السواحل على بن سيف على أن تتم التجارة كسوق سوداء كتجارة ثانية إلى السواحل الشرقية ومن ثم إلى الخليج ثم إلى كلكتا في الهند وبدأت التجارة مع برغش الذي حكم زنجبار لمدة ١٨ عام منذ ١٨٧٠ والتي تتمحور حولها بلدان عديدة منها الهند

والكونغو وتّجانيقا وتّزانيا " زنجبار " وهنا تتّغير الم وائي
باتجاهات السفن، ففي الغرب الأفريقي من ليبيريا إلى أمريكا
والثانية من سواحل الشرقية " زنجبار " إلى الخطّ يّج، كلكتّا
كان عدد الأفارقة الذين سرقوا من أفريقيا وتّوجر بهم كرقيق
إلى مختلف بقاع العالم ٣٠ مليوناً من الرقيق.

في زنجبار عاش العرب وتكلموا اللغة السواحيلية وهي
مزيج من العربية والأفريقية نشطوا كتجار خاصة في منطقة
" أجانبا " حيث كان الصيادون العرب يسكنون فيها كمحطة
تجارية وأقاموا مستعمرات في مقديشو وبمبا.

كان العبيد يجمعون في بيت كبير في زنجبار ومنه يّتم
توزيعهم على السفن والتّجار.

" اتجهت أفواج العمانيين بدءاً من القرن الرابع الهجري،
ونلك إلى زنجبار وكينيا والكونغو وتّجانيقا والجزيرة
الخضراء وموزمبيق. غير أن أول هجرة عرفها العمانيون
هي هجرة سليمان وجيفر حفيدي الجلندي بن المستكبر بعد ما
دارت الحروب الطاحنة بينهما وبين الحاج بن يوسف،
وهجرتهما إلى شرق أفريقيا دون سائر بلدان العالم تدل دلالة
واضحة على أن العلاقة بين العمانيين وبين أفريقيا القديمة

علاقة قديمة وأن للعُمانيين وجودا هناك وإلا فما الذي كان يدعوهم إلى ترك أرض فارس أو الهند وغيرها من بلدان العالم والذهاب إلى شرف أفريقيا لولا أن العُمانيين وجدوا هناك، ويؤكد مصداقية تلك العلاقة اكتشاف أقدم مسجد في جزيرة ممبا أو الجزيرة الخضراء ويعود إلى القرن الأول الهجري، ومن المؤكد أن هذين الرجلين قد بنياه، وذلك دليل واضح على قدم تلك الهجرات .

" وبعد تلك الهجرات الأولى، تدفقت الهجرات وازدادت تبعا للظروف التاريخية والحضارية وكانت أكثر هجرات العُمانيين تكتيفا إلى شرق أفريقيا في عهد الدولة الأموية وهي هجرات كانت بغرض التجارة، إذ ساعدت على وجودها الرياح الموسمية التي تدفع السفن في فصل الخريف في اتجاه الجنوب الشرقي ثم تعود في فصل الربيع متجهة إلى الشمال الشرقي فتصل بها إلى بر العرب قادمة من بر الزنج وهو اسم من أسماء زنجبار .

" علاقة عمان البحرية بأرض السواحل، علاقة مغرقة جدا في القدم. وأرض السواحل هي ما كانت تعرف قديما

بأرض الزنج، وتمتد من مقديشو شدا لا إلى سي ما لا يد مي
بجمهورية موزمبيق جنوبا، وتشمل سواحل كينيا وتنزانيا".

يقول السعودي:

"وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عم ان،
عرب من اللازد، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما
نكرناه، والأمواج ترفعهم وتخفضهم يرتجزون ويقولون:

بربرا وحافوني وموحها المجنوني

حافوني وبربرا وموحها كما ترى".

الجزء الثالث

الجن لا يأتون هكذا بل يرتدون
أشكالنا لكيلا نخافهم

الطفلة التي أخذتها السمكة

- ١ -

كانت ربحانة تسير معي، وتحكي لي

مرة عن البئر التي أسقط فيها يوسف

مرة عن الشجرة التي نلت عليها الحية وتحولت إلى

امرأة جميلة للرجل الذي كان يسير تحتها، عشقته وصارت

له زوجة أرضية.. مرة وجد ورقة شجر مكتوبًا عليها بعض

حروف حاولت أن تخطفها لكنه وضعها في كوب ماء، شربه

وابتلع معه الورقة ومن ثم اختفت من حياته وعند اختفائه

ظلت تتشد:

" لأوقفن على الطريق وأشتكي من أي مظلوم وأذنت

ظلمتي حاولتني حتى ملكت حشاشتي ولما ملكت حشاشتي

تركنتي يا من هواه أعزه وأذلني ، كيف الوصل إلى

وصد . لك دلني " ومرة عن علياء التي يحبها جذبي في

البيت وكان يأتيها على شد كل فطيس مع فيها ويلعب

بضفائرها الطويلة وحين مرضت وماتت ظل يبكي بصدوت

إنسان فنادي عليه الجن:

- يا مهنا واش لهاكم اليوم عنا..؟

فرد عليهم:

" لهنتي علياء الحلوية، مقرونة الحبيبة أم الشعر الطويل،
تثمر جحبه عليه "

مرة عن مريومة التي كانت تربيها، ومرة عن كلثومة
التي كانت أمها الثانية، وعن السحرة الذين يطيرون من
عمان.

كانوا يقولون إن في عمان منطقة اسمها بهلة كل مسكانها
جن وسحرة، إذا أتى الليل بدأوا يطيرون مثل الخفافيش من
مكان إلى آخر.

وكانت تخفي معي:

" يا اميه يا اميه يا اميه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بخرته وارداه "

إذ أن الصياد لا تريده لي وإنما ابن عمي الذي يحمل
الخنجر والرداء.

- انت منورة لابن عمك، لازم تتزوجينه.

- لا، كانت ربحانة تخفي لي وأنا صغيرة.

" يا اميه يا اميه يا اميه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغثرتة وارداه "
وكانت تحكي لي عن الطفلة التي أخذتها الس مكة إلى
البحر وأعادتها جميلة وقالت أنها مثلي.

- إذن أنا ما أبي وليد عمي هكذا سأقول لهم. لا أريده

- لكنك منذورة له...؟

- أنا منذورة للأحلام.

الأحلام ليست في كونها تجسيدا ولكن بما تأويه في جوفها
وبما تحمله من مكتسبات وبما تعنيه من لغو، أو تجميد، أو
إدراك، أو ربما ما خفي منه تسريب للعاطفة وتضاد مع
الواقع إذا اعتبرنا أحلامنا هي التعويض الضروري لنا عن
الواقع الذي تفقده.

البارحة حلمت أن طائرا كبيرا بأجنحة كبيرة حملني إلى
أعلى الجبال، وضعني في منطقة غائرة، وطار عني. لم يكن
معي أحد، كانت الصخور حولي والسماء غطاء، انتبهت
خائفة وركضت عند جدتي. نمت قربها، فانتبهت، وضحت
يديها على رأسي، ظلت تقرأ القرآن حتى هدأت نفسي.. أينك
يا محمد لترى جدتي وهي تقرأ القرآن على رأسي وتمسح
على شعري. نحن أيضا مسلمون.

حين رفضت ريحانة إحضاري من المدرسة ذهبت مع عم خالد الجنائني أركبني وراءه على دراجته طوقت بكلنا يدي بطنه حتى لا أقع، كان يلبس ملابس كأكبره الاون وكانه شاويش يضع على رأسه قبعة كبيرة باللون نفسه نقيه الشمس عندما يعمل في الحديقة.

كنت أركب وراءه على الدرجة وبجانبي سلة من الفاش وفأس اضطر أحياناً أن أمسكها بإحدى يدي.

وصلت إلى المدرسة، سألت التلاميذ مين ده يا شمسلة، أبوك...؟ لم أرد عليهم كنت سعيدة بركوب الدراجة وراء عم خالد. للمرة الأولى أذهب إلى المدرسة بالدرجة ومن دون ريحانة.

بعد أن انتهى اليوم الدراسي كان عم خالد ينتظر في الخارج، وأنا ما زلت على سلم الطابق الثاني. حين وصلت إلى الفناء الخارجي سمعت بعض الطلبة ينادون:
- يا شمسلة باباك الجنائني وصل.

ركضت لأخذ مكاني وراء.. بابايا الجنائني، وعدنا إلى البيت.

تعودت أن أذهب وأجيء مع عم خالد الجنائني. أركب وراءه دائماً إلا في أيام أخرى قليلة نجر الدراجة ونسير مشياً على الأقدام ثم يقف أمام فيلا قريبة من بيتنا يتحدث مع البستاني الذي في هذا البيت وأسمع أنا صوت البستاني من الداخل.

يعطيني البستاني وردة وأنا ذاهبة إلى المدرسة، ويتبادلان هما الحديث حول الدنيا والزراعة والورد والأسمدة.

لم أكل الورد التي أعطاني إياها لكنني أبدأ بقطعها سأنجح، لن أنجح، سأنجح، لن أنجح.. تطير الأوراق في الهواء، تصبح مسرباً من البيت إلى المدرسة، خطاً أحمر أستطيع أن أعود عليه من المدرسة وحدي بدون عم خالد. لون أحمر.. من الورد وليس من الدم.

تَقْسِيمُ الْعِبَادَاتِ

- ١ -

عدت أخيراً بعد خمس سنوات من التجربة والعذاب.
ظللت في منزل عمتي الجديدة، أتى إلي حبيب وه و
مشائق وبلا لوعة ويعلم أنني أحبه وبرغم ابتعادي وغيبابي
أحياناً وعدم اعتنائي بنفسي لكنه كان يحب رودي القوية
وجراتها.

حين قلت أنني أريد أن أتزوجه كان سائلاً جديداً لم يعص
أمرهم وهو يراني أختاره وأدفع من يأمره بزواجي. أحب أن
يكون مرغوباً هكذا من فتاة قوية وجريئة، ومع قربي من
عمتي وحبها لي جعلته أيضاً مميزاً لديهم. ود بين تزوجنا
أحس كم أنا حرة برغم عبوديتي، فأحبني.. وها هو اليوم
حين رأيته مرة أخرى لم يستطع إلا أن يضممني إليه ويعود
إلي حبي ولأنني رفضت أن أكون زوجة ثانية. طلق زوجته
التي تزوجها في غيابي معبراً بذلك لي أن زواجه كان زواجاً
بلا حب لأنه لم يستطع العيش بدون امرأة، مجرد امرأة. وها
هو يعود إلي حين عدت إليه. لم أصدق ذلك لكنني أبدو

تُصدّقني كي أبدأ معه مرة أخرى.. إذن هأنّا أنْتَقِمَ مِنْكَ يا
فطوم فأخرجني دون عودة من حياتي.

قال لي: - بسك يا ريحانة، أنا بعدني حبيب، حبيبك.
نظرت إليه بعينين ينفجر منهما الخيط، ذُكِرْتُ عَمْدِي
وهي تعاود تردّد:

" إذا المرء لم يرفعك إلا تكلفاً

فدعه ، ولا تكثر عليه التأسفا

ففي الناس أبدال، وفي التّرك راحة

وفي القلب صبرٌ للحبيب، ولو جفا "

أو وهي تردّد بصوت أشبه بالهمس:

" احرص على ود القلوب من الأذى

فرجوعه بعد التّنافر، يحسر

إن القلوب إذا تنكر ودها

شبه الزجاج كسره، لم يجبر "

صاحت ريحانة وهي تبكي: - هو لم يد رص على ود

القلوب يا عمتي بل نكر محبتي وكسر قلبي.

لم تستطع أن تتسامح معه وهي تعلم أن وضعها شارك في

انهيار سعادتها معه، وحين اختارته، انهارت علاقتها بعمتها

وبأسرتها التي ربّتها. لقد عادت إليه لكنها عادت مجرّدة
منه ومقطّعة الأوصال مع عمّتها التي لم تُعرف الحياة إلا من
خلالها ومن خلال حياتها كيف تمّ تطبيع أن تُحقّق حياتها
الخاصة دونها الآن، ودون تلك الحياة العميقة في القصر.
القصر الذي تربّت فيه، والذي كان تاريخاً وليس مكاناً في
الجغرافيا فقط.

حين وصلت لم تجد تلك الحياة التي تركتها بلا ظلال حياة
فقط ليست كما كانت تتصورها. حتّى القصر الذي يذكّرها
بتلك الحياة، هدم كما هدمت حياتها السابقة وما هي تهم
جزءاً آخر من حياتها بقوة وقسوة وما هي تعود من أجل
جزء من حياتها تُخرب من أجل أن تكون بقرب حبيب
وولديه.

أصبح المكان جوهره الألم، ارتبط بتاريخ يحركها فيه.
وكما ترى الأماكن تمر في ذهنها، تعتقد أن ذلك من شأنه
إغماء بسيطة ستنبّه منها حال دخولها حالة السكر والهذيان.
- أنني أشتاق إلى حبيب كرجل يضمنني ويقبلني، وأشتاق
إلى الحياة في هذا المكان الذي ألفته، أشتاق إليه كما كان يوم
كنت فيه. ذهبت مع عمّتي إلى القاهرة فانفصلت عن المكان

ودخلت مكاناً لا علاقة لي به.. عمّتي في القاهرة لها أسبابها، وأنا لا صفة لي خادمة نعم، ولكنني عبدة.. قال لي عم عبده إن العبودية في القاهرة قد ألغيت منذ زمن، فكيف تقولين إنك عبدة في مكان لا عبيد فيه...؟

إن أنا حرة.. ولكنهم لا يعترفون بحريتي. فهل أعامل كعبدة أم كحرة...؟

- كل من يتعامل معك يعاملك كخادمة من حقها أن تترك عملها والعودة إلى وطنها يوماً ما. هكذا قال لي عم عبده، وحتى أم عابدة التي تباع الذرة المشوية أمام مدرسة عمّتي شمسة حين كنت أقف بجانبها وننحدث في انتظار خروج عمّتي الصغيرة من المدرسة قالت لي:

- وليه يا أختي الشحططة دية..؟ ما ترجعي لجوزك ما دام قادر يصرف عليك ويستذك، الست مالهاش غير جوزها وستك بقى زي ما جابتك، تجيب غيرك.

حقاً لماذا لم تصطحب غيري..؟ وما ذنبي في مأساة هذه العائلة.. نعم لقد ربّنتي مثلما ربّت غيري؟ إن لماذا أنا التي تتدمر حياتها وليست إحدى العبدات الأخريات. لماذا أنا وليست مريومة أو عذيجة أو سلموه. وهأنذا يمكنني العودة

وهم يستطيعون أن يجلبوا غيري، أربع سنوات ظلت معهم، هذا يكفي لتأتي واحدة غيري وأعود أنا إلى زوجي. وما دام لا عبيد هنا فأنا حرة، وأستطيع تقرير مصيري، ومصيري أن أعود هناك، بذرة في أرضي حتى وإن عدت عبدة فأنا حرة بين جدران بيتي، في سريري وفي أحضان زوجي. أما هنا فأنا حرة لكنني عبدة وأكدر عبودية من هناك، هناك أرضي وزوجي.

الزمن تغير. ظنت أن تجربة القاهرة هي التي غيرتها، لم أعرف إلا حين عادت أن الزمن تغير سريعاً هذه الأيام، وأنها حين كانت هنا لم تلاحظ التغيرات السريعة كما تلاحظه الآن بعد خمس سنوات قضتها بعيدة وعادت.

- انتقلت مع ولدي وحبيب إلى بيت صديقي أحمد لنداء وظلت أخدم في منزل عمتي الجديدة وحاولت أن أعيد توازن روحي معه ومع عمتي الجديدة ومع المجتمع الذي أعيش فيه الآن، لكن كل ذلك باء بالفشل الذريع، فأنا لم أحب هذه العممة التي تحاول فقد استدرجي في الكلام عن عممي السابقة، ولم أستطع أن أتسامح مع حبيب وإن عدت إليه لأنها عودة ناقصة، أما النسوة اللاتي كنت أراهن في بيت عممي

صفية أو في الشوارع أو عند بعض المدال الذي أذهب
لاستري منها، فمن كن يكرهن عمي السابغة وأس رثها
اعتبرني دخيلة عليهن فلم يضممني إليهن بل ابتعدن عني،
ومن كن يحبن تلك العائلة اعتبرني عديمة الأصل والأخلاق
لأنني لم أضح بنفسي من أجلهم وهم الذين ربوني وركنهم
لكي أعود إلى رجل تركني وتزوج غيري حال مسفري،
وعلى كل فجميعهن ابتعدن عني مع إحباطاتي وعدم تكيفي
مع الوضع الحالي وإدماي الذي تقاوم، مما جعلني عدوانية
للغاية إزاء أبسط تصرف تجاهي وصارت الرغبة في تحقيق
ذاتي مسعورة إلى حد كبير.

- ٢ -

عدت أخيراً، جلست في منزل عمي الجديدة، عمي
البيضاء التي تتكلم كثيراً وتتحدث إلى النسوة اللاتي أتين
لزيارتها بحماسة وادعاء بطولة لأنها أحضرتني وأعدتني
إلى بلدي وزوجي.

- شو ذنبها تتعرب وتترك زوجها وبلادها.

قالت ذلك بكثير من الدهاء والمكر وهي تنتظر إلى بطرف عينيها:

- معلوم هي خادمة أختي ولأزم تطيعها لكن عاد ربحانة ما تحملت وهي سوت لهم مشكلات كثيرة، مس كينة أخذ ي ربّتها وما ثمر فيها مثل ما يقولون: " يا من شراله من حاله عله ".

كان غمزها يمضي باتجاه إدانتي بشكل أو آخر خاصة أنني لم أصن معروفها كما يرون، ولم أحسبه أيضاً، كل ما هنالك أنني انتقلت من عبدة لسيدتي التي ربّتي إلى عبدة أخت عمّي التي كانت دائماً تكيد لي، لأنني أخذ دم أختها وأحبها وعبادتها لا يحببها لهذا أصرت علي أن تأخذ ذني معها، وهي ترى أن علي أن أتعامل معها بشكل أفضل مما كنت أتعامل به مع عمّي الأولى خصوصاً أنها قد أعدتني إلى بلادي وزوجي، بل جعلت حبيباً سائقاً لديها وض غطت عليه كي يطلق فطوم لتكون ذات فضل علي، لكنني أعلم أن عمّي هذه تفعل كل ذلك من أجل أن تكون أفضل من أختها، التي كانت زوجة الحاكم في يوم ما وأن تمثلك شيئاً من

ممتلكاتها وكأنها تحصل على ما هو حق طبيعي كإنسان من المفترض أو ربما كان لها.

ورثتني عمتي من أبيها كما ورثت عمتي الحالية من عادية، لكنني كنت أكثر اقتراباً ومحبة لعمتي، أكثر كتماناً لأسرارها، أكثر نشاطاً. بعكس سعادة التي كانت أكبر منا ولا ترى جيداً وكسولة كما أنها لا تحب عمته.. فكانت ترى أن أباه لم يكن منصفاً في تقسيم العبدات بينها وبين أختها. وأن أختها حظيت بأكثر من حقها لأنها فقط تزوجت الحاكم وهي تزوجت أخاه الأصغر.

كان الحاكم يملك السلطة، ولكن إخوانه يعملون بالتجارة والتي يملكون من خلالها المال الذي يفتح لهم آفاقاً جديدة كبرى إلا شرعية الحكم. ولهذا فكثير من الانقلابات التي تحدث هناك في المنطقة تكون من أخوة الحاكم الذين يملكون المال ويرغبون في امتلاك السلطة، أو أنهم يرون أنهم أحق بالحكم سواء لثرائهم أو لخوفهم من ضياع السلطة بتوريثها من الأب إلى الابن الأكبر الذي سيورثها لابنه الأكبر أيضاً فتضيع من الأخوة.

أعطتني عمتي صفيّة غرفة بجانب كراج السيارات الذي يخدم فيه حبيب بجانب الفيلا، كنت أذهب لأنام فيها مع حبيب وولدي وكثيراً ما كان محراك، أو محراك ونصور ينامان في الفيلا مع أولاد باقي العبيد وأظلم مع حبيب هناك.

- ٣ -

في هذا العالم كثير من العبدات يرصد عن أولاد عماتهن وأعمامهن مع أولادهن. هي علاقة مجتمع خاص لا تتفصل فيه الطبقات وأيضاً لا تتمحي، وكثير من العبدات كن أيضاً إماء لأعمامهن ويظللن في المنزل كما هن عبدات، ويسمين بالسرائيا جمع سرية أي يسرى إليها سيدها في السر حين يريد ذلك، فإذا حملت منه واعترف به أصبح ابنه وامتلكت حريتها، وتحررت.

كثير من البيوت تضم بين عبيدها المخنثين أيضاً، الذين منهم من يلبس كالنسوة يتقصعون في حركاتهم ويتكلمون كالنساء تماماً أكثرهم مخصي.

لم يكن في هذا العالم مجانيين كثيرين وقد دها مهيرة،
مهيرة الخبلة أم ربحانة وذلك العبد الأسود رشود الذي يعيش
في حجرة قميئة تتوسط المدينة.

على يمينه منزل زوجة الحاكم الأخيرة وأمامه منزل
الحاكم وزوجته الأولى وهناك يظهر الحصن أمامه مباشرة
بجانب منزل عم الحاكم والذي كان حاكماً، بعد موت أخيه
إلى أن كبر الحاكم الأصلي الابن فتنازل له عن الحكم طوعاً.
كان رشود ينام ويجلس في تلك الحجرة القذرة ومعه كلب
أسود، يتمدد دوماً على عتبة الباب. أسود مثله ونحيف مثله
أيضاً ودائم النوم.

كلما خرج رشود خرج يتبعه واحد ين يدخل حجرته لا
يسمح لأحد بزيارته وهم لا يزورونه أصلاً فلم يدق بابه أحد،
ولهذا قرر رشود المجنون ألا يسمح لهم بزيارته في هذا القبر
الذي لا يحده شيء، لكنه حين يخنق أياماً يأتون إليه ويدقون
بابه حتى يسمعون صوته بالداخل، فيضعون له بعض ما
تيسر من الطعام ويذهبون وهو لا يسمع سوى هدير البدر
الذي يتسرب في أعماقه، ولا يرى سوى جنور الرولة التي
ترتطم أقدامه بها كلما تحرك داخل حجرته. يناديه الأطفال

بالمينون عكس مهيرة التي يلقبونها بالخيلة. وكلما مر أم ام
الحصن زجره الحراس وقذفوه بالحجارة وكلما ضرب أحدهم
هددوه بالمحلوسة لو عاد مرة أخرى. المحلوسة ذلك السجن
الذي دخله من قبل وظل كلبه في الخارج يعوي.

- ٤ -

هل كان ما قامت به مجرد حيلة، حين اختارت العودة
وحين حاربوا انسلاخها ثم وافقوا عليه، مجرد حيلة تنتظر
إليها الآن بعين قط لئيم. أو ككاهنة في معابد الفراعنة، ولم
لا.. أو كأميرة أو كناسكة وطدت علاقتها بالغيب وحين
تملئ بأرواح شاردة وشريرة أحياناً تتقمص بداخلها قوة من
قوة الرب داخل نطاق يضيق بمعالم تكوينها حتى ينفرج آخر
جرح قابل للنزف. كل مرة كانت ريحانة تطمئن جسدها الذي
لم يحتمل هذه الروح كثيراً، الروح المشاكسة، تقاوم أمراض
نفسها والتي لا تدل على شيء سوى على ضعف جسدها
تجاه هذه الروح من خلال فكرة تالفة عن البساطة وعن
النموذج، نموذج عمئها.

المدينة تهادنها كي تبلغ روحها الهائمة، تلك القوة التي
تطمئن لها في ضعفها، ولمستها بحنان جارح. حين مات أحد
قادة الأسطول ودفنوه في البحر مثلما مات القراصنة قديماً،
القراصنة الذين حاربوا الهولنديين في البحر وقتلوهم.
أو مثل صيادي اللؤلؤ الذين يرحلون عن اليابسة لأشهر
عديدة يركبون المراكب ويرحلون إلى البحر يصطادون
اللؤلؤ ويعودون بوجوه يابسة وأجساد نحيلة أكل منها الجوع
والخوف وربما أسماك القرش أيضاً وربما أيضاً لا يعودون.
مغمضة العينين تبدو في توهانها وهذه الروح المجنونة
تختار العزلة لتندمج ثانية كأعشى يفقد بصيرته بعد بصره،
أعشى يراود أحلاماً كان يظن أنها سوف تأتي إليه، لكنه لا
وقعت في هوة عميقة.

- ٥ -

كان حبيب يدري أن ريحانة عادت، لكنه لم يدرك أنها قد
بعثت إليه عمتها أن يأتي لتحدثه.

لبس ملابسه البيضاء، الجلباب الذي أفضله حتى آخره،
زرر يديه بأزرار ذهبية، وضع الطاقية ثم الغدرة والعقال
الأسود ثم نثى طرف الغدرة الأيمن على ناحية اليسار.
نظر في المرأة وقال:

- ما زلت يا حبيب حلوا، وريحانة تحبك. أذنت أيضاً
تحبها، تحب حياتها وحياتك معها، هي التي رحلت
وتركتني.. أنا رجل لا أستطيع الحياة هكذا بدون امرأة ولا
أستطيع أن أستمّر في علاقات نسائية خارج نطاق الزواج
أنها علاقات باهظة الثمن لا أفكر فيها، ولا أستطيع أن
أستمر فيها وأنا أعمل طوال الليل والنهار.

ها هي ريحانة عادت وسأعود إليها، وربما استطاعت أن
تجعلني سائقاً عند عمّتها الجديدة لا بأس بها هكذا أكون قد
عدت لزوجتي وولدي.

أتى حبيب إلى منزل عمّة ريحانة الجديدة، هو يعلم أن
ريحانة تحبه، ويعلم أنه أيضاً يحبها، يحب حياتها وحيات
معها، لكن ما ذنب فطوم التي تزوجها كان يريد زوجة بدون
حب، امرأة.. فقط امرأة، فتزوج فطومًا التي كانت تتخجّل
فهي صغيرة وجميلة ولم تطالبه بكثير يكفي أن لا يجمّل

ويعمل، ولديه دخل، إذن لم لا تتزوج...؟ كان يد أول أن
يثبت لنفسه أنه من العادي أن يتزوج الرجل بأكثر من
واحدة، أبوه تزوج غير أمه التي كانت غنية وتعاون له ولم
تتجب له غير حبيب، فتحجج بأنه يريد أولادًا وتزوج فداء
صغيرة لم تتجاوز أربعة عشر عامًا وترك أمه تعاني من
فقدانه، وهامت في حبه وظلت تهيم حتى أواخر أيامها. كل
صديقاتها ظلن ينصحنها أن تتساه وتربي هذا الطفل وحدين
تركها تمامًا مرضت ولم تشف من مرضها وحين نالوه كي
تراه لآخر مرة، رفض. تذكر حبيب حال أمه فذاف على
ريحانة ما زالت هي التي يحبها، هي التي تسد تحوذ على
جسده، وتمتعه أكثر من فطوم الحرة، تمتعه لأنها تحبه، ولأن
عبوديتها ليست ضمن الجسد بل إن جسدها يتمدع بحرية
كاملة ويمتعه أيضًا لأنه يحبها.

حين رآها كانت ذابلة تمامًا، عيناها لا تدان بعذرًا،
شعرها منكوش، لم تعتن بنفسها لأجله، هي مجرودة منذ
لكنها مثلما تزوجته بأمر سيعود إليها بأمر. هي واضحة وهذا
ما يحبه فيها، روحها القوية وجراتها التي جعلته يتزوجها
حين كان سائقًا جديدًا، لم يحص أمر عمته وهو يراها تختاره

وتدفع من يأمره بزواجها. أحب أن يكون مرغوبًا، أن يكون الجانب الأضعف في العلاقة، هذا يمنعه أكثر.. يشده إليها من عجز أمه الضعيفة التي لم تعتن به كثيرًا والتي لم تقو روحها لأجله. هذه المرأة هي الأقوى، هي التي تحميه من عجزه السابق لهذا يشتهيها ويتمتع معها بقوتها.

ومع قربها من عمته وحبهم لها جعلته مميزًا لديهم وحين تزوجها أحس كم هي حرة برغم عبوديتها.. جسدها يستمتع بإرادة كاملة وينتفض برغبة عارمة ويحس بحرية حقيقية، وهي تعبر عن نفسها وعن جسدها بشكل متحرر وواضح، وضوحًا يخاف منه ويهابه، بعكس فطوم المتخنجة المفرطة الدلال وبرغم أنها حرة فإن جسدها ليس حرًا.. وها هو اليوم حين رآها مرة أخرى ورأى ولديه نظر إلى محراكه وقبله على رأسه ثم احتضن نصورًا الذي لم يره منذ ولادته وقبله، كان "نصور" شبيهًا له، كأنه هو، ولم يستطع إلا أن يضمها إليه بشدة ويعود إلى هذه الأسرة التي تفتح له أيضًا أبواب العمل مع عمته الجديدة التي لها قوتها في المنطقة هي أيضًا.

حين أمرته عمتها أن يحضر لم يعد ص أمره ا، ود ين طلبت منه أن يستقر معها ومع أسرته في الغرفة التي ستكون بجانب الكراج والذي سيعمل فيه منذ اليوم لم يعص أيضاً ا، هو يعمل أن بإمكانه الرفض لكن معنى ذلك أن يترك المكان بأكمله إذن سيفقد عمله وريحانة وولديه وأيضاً فطوما لأذ ه لن يستطيع حملها معه إلى مكان آخر لا يعلمه ولا يعلم كيف سيبدأ ثانية فيه. إذن كان من الأفضل أن يستقر مع عائلته ما دامت عادت إليه وأن يعود إليها.. أما فطوم فهي صغيرة وستجد من يتزوجها.

كان في البداية يساوم في عدم الطلاق لكن ريحانة رفضت أن تكون زوجة ثانية لها أي ضرة.

قال لها: - بمسك يا ريحانة أنا بعدني حبيب ب، حبيبك، وعماتك الحرات لديهن ضرائر، تجبن أنت وترفضين. شدو أسوي فيها.

قالت له: - طلقها، أنا ما برجع لك وأولادك ما بتشد وفهم إلا يوم تطلقها.

حاولت عمتها أن تقنعها بأن تقبل الوضع القائم لكنها كانت تريد أن تجبر حبيباً على طلاق فطوم، فمثلما أمرته أختها أن

يتزوج ریحانة، ها هي تجبره على أن يطلق زوجته من أجل ریحانة. إذن هي أقوى من أختها لها الأمر الآن بعد أن كانت هي وجميع العائلات يؤثرون فيطعن وكأنهن عبات لأختها، أختها الكبرى التي حظيت بجمال أخذ وشخصية قوية وزوج ذي سلطان ولهذا لم تستطع إلا أن تكون الأخت التي في كنف أختها هي التي ربّتها وزوجتها وربّت أولادها وهي الأقوى. ها هي الآن تمارس دور القوة وتتوقّه.

نظرت ریحانة بعينين ينفجر فيهما الغيظ، هي عبدة لكنها كانت عبدة زوجة حاكم، إذن هي أكبر من العبيد الآخرين هي فوقهم هي عبدة داخل الحصن لكنها سيدة تؤمر من عمّتها فتأمر، لكنها تأمر باسم عمّتها فقط لا حتى من الحرائر الأخريات ومن أهل عمّتها، من تذهب إليهم بأمر منها. إذن هي تملك الأمر وتملك قوة تميزها لهذا لا تستطيع أن تكون ضرتها ابنة عوشانة التي تدخل عندها وتأمرها أو حين تأتيهم في القصر تتعامل معها وكأنها العمّة حين تكون عمّتها منشغلة فهي التي تحاسبها وهي التي تطلب منها وهي التي تتحكم في الشراء... هذا غالٍ وهذا رخيص، هذا جيد وهذا لا. وكانت عوشانة تدّعن لها طلباً في محبتها حتى لا

تَفْقَدُ بَيْعَتَهَا أَوْ دُخُولَهَا الْحَصْنَ وَكَانَتْ فَطُومٌ تَجْلِسُ بِجَانِبِهِ أ
تَتَحَمَّلُ اسْتِهْزَاءَ رِيحَانَةَ لَهَا إِذَا بَكَتْ أَوْ طَلَبَتْ شَيْئًا.

- ٦ -

لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسَامَحَ حَبِيبًا وَهُوَ الَّذِي أَهَانَهَا بِزَوَاجِهِ لَكِنَّمَا
تَعْلَمُ أَنَّ وَضْعَهَا وَذَهَابَهَا مَعَ الْعَائِلَةِ شَارِكٌ فِي انْهِيَارِ سَعَادَتِهَا
مَعَهُ، بَلْ وَانْهِيَارِ وَضْعِهَا كَعَبْدَةٍ مَتَحَكِّمَةٍ وَقَوِيَّةٍ فِي الْحَصْنِ
الَّذِي تَتَشَارَكُ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ سُلْطَةٍ: عَمَّتُهَا، وَأُمُّ زَوْجِ عَمَّتِهَا،
وَضُرَّةُ أُمِّ زَوْجِ عَمَّتِهَا.. كُلُّ مَنْهِنٍ لَهَا مَنَاطِقٌ نَفْذُ وَذُوعِيَّةٍ
يَأْتَمُرُونَ بِأَمْرِهِنَّ. إِذَنْ كَيْفَ سَتَتَعَامَلُ مَعَهَا عَوْشَانَةُ وَفَطْمَةُ
وَهِيَ الْجَانِبُ الْأَضْعَفُ الْيَوْمَ، مَنْسَلَخَةٌ مِنْ سُلْطَةِ عَمَّتِهَا،
مَتْرُوكَةٌ مِنْ زَوْجِهَا، عَمَّتُهَا الْجَدِيدَةُ لَيْسَتْ بِقُوَّةِ عَمَّتِهَا الْقَدِيمَةِ
وَلَا تُحِبُّهَا أ. فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَمَّلَ ذَلِكَ وَكَيْفَ
سَيَعَامَلُونَهَا...؟

حَتْمًا سَيَدْفَعُونَهَا إِلَى الْجَنُونِ وَسَيَدْفَعُهَا حَبِيبٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
كَلِمًا ذَهَبَ إِلَيْهَا.

حِينَ اخْتَارَتْهُ وَعَادَتْ انْهَارَتْ عِلَاقَتُهَا بِعَمَّتِهَا أ وَأَسْرَتْهَا
الَّتِي رَبَّتُهَا، وَحِينَ عَادَتْ لَمْ تَجِدْ تِلْكَ الْحَيَاةَ الَّتِي تَرَكَّتْهَا أ.

عادت مجروحةً منه ومقطعة الأوصال مع عمّتها التي لم تعرف الحياة إلا من خلالها ومن خلال حياته... جاءت لأجله، لكنها جاءت إلى عالم آخر وإلى عمّة أذرى وإلى حبيب آخر.

هي أيضاً تغيرت فكيف نستطيع أن نحقق حياتها الخاصة دون كل ذلك مجرد مكان في الجغرافيا فقط، والذي تربت فيه منذ أن دخلت من بوابته الكبيرة مع أبيها سعيد حين نادى بأعلى صوته:

- مرهون يا مرهون، فك الباب.

فتح مرهون البوابة الصغيرة. ظهر أمامها رجل أسود سمين ذو كرش، يعرج، فرفض سعيد أن يدخل معه لأول مرة من البوابة الكبيرة. ضحك مرهون وقال له:

- ليش يعني منوه هي، عمّتي...؟

ومع ذلك فتح البوابة الكبيرة كنوع من المزاح مع والدها. كانت عودتها عودة للحياة القديمة، لنظام اجتماعي من خلاله كانت علاقاتها هي تهدم الآن وتُرى تغيراتها معها، بل فيها، فهي كذلك تغيرت دون أن تُعي، لكنها تحس بالتغير داخلها، وعليها الاعتراف به.

على الكرسي يسقط جسدها ينام طويلاً، الخمرة عليه
النسيان حمالة السر، ربما لتتزوّد بكراهية أكثر تجاه التصافه
بها وكأنها الحياة.

تقودها أقدامها نحو المطبخ لتجلب كأساً نظيفة، تفتح درجاً
تمسك بسكين حادة وكبيرة تنظر إليها طويلاً وترى محراكاً
ممسكاً بالسكين ليخلص نصوراً من السرير، ترى سعيد
مذبوحاً أمام بوابة المسجد الكبير انتقاماً للنار وترى حبيباً
مضرجاً في دم خياناته لها، تسقط اختياراتها الداخلية حول
إمكانية أن تجعل من نفسها شخصاً مهانداً، تترك السكين
وتتذكر أنها تريد كأساً تحملها وتخرج مرتبكة إلى الشرفة.

المساء يهطل على جسدها الأسمر، كتفاها العاريّتان في
قميص النوم تسبح فيهما إضاءة بسيطة من أضواء الشرفة
العلوية تجعل جسدها يرتاح على جمال أخاذ بسيط.
منذ أسبوع لم تدعه يلمسها ولم يظهر رغبته فيها. همست
لنفسها:

- نحن نلتقي وجها لوجه لا نسلم. فقط يراذلي وأراه لا
ألتفت ولا يلتفت فقط لحظة ونعبر كالعابرين لا بد من خطوة
ثانية..

تلاحظ أظفارها تخربش الكأس، تسمع صريراً مـا، لقد
نسيت، الكأس فارغة.

كانت عيناه ترعبانها وكذلك صمته، أما حديثه فهي جديرة
بأخذه على محمل الكراهية، قبل أن تضعه في تابوت مناسب
وتدفنه مع الذكريات. هكذا تصبح للحضور دلالة الغياب،
الغياب الكامل، أما ذاتها ففي الطريق وهي مدركة أن الحنين
خيط تجره بقوة في داخلها وتحملها معها إلى البيت.

عادت إلى كرسيها أمامه، هو نائم وهي كأنها تتحدث إليه:
أجمل ما في الأمر الآن أننا هنا في هذه الغرفة مبتعدان عن
الخارج.. وبالرغم من أن روحي بعيدة فإنني هنا معك كما
في الصورة الأولى.. أنا وأنت فقط.

بالرغم مما تقوم به فهي تعتبر ما فعله مراقبات صديرة
لأنها قادرة على تدمير كل حيلة تجاه فطوم أو غيرها بعد أن
أصبحت الآن معه، قريبة منه وتستطيع مراقبته. وهو يحاول
الوصول إليها مرة أخرى، ليس لأنها أجمل أو أنكى، لكنه

امرأة أخرى هنا، تفتح له باب جسدها بأكمله وتتخنج محاولة إثارتة.

ريحانة لا تعرف كيف تتخنج.. لكنها تدّ أول أن تثبت لذاتها أنها قادرة على أخذ حبيب منها ليس لأجله، فهي تعلم أنهما يبحثان عن طعم آخر للذة، لكنها ها هي هنا الآن وعليه أن يختار ولا يتراجع. إما هي، أو فطوم بدلاء ودة وهذا ستفتح باب جهنم عليه ولن يستطيع تبديل الأدوار، ريحانة هي التي أدخلت فطومًا إلى حياته، هي التي قربنها بغبائها، فاستخرجته فطوم لها، وها هي تجدها في مواجهتها. فلينتظر إذن منها ما ستقلعه إن لم يعد بكامله لها.

لم تستمتع بنوم هادئ طوال الليل لا بسبب خلافاتهم اليومية على نقاهات صغيرة وإنما لأسباب تخص جسديهما اللذين يثرينهما بالعناق ولا تتورد الشهوة فيهما.

قالت له: - لا بد لي الآن، أن أستمع لا بك بل بنجاحي تجاهك وتجاهها.

ودت أن تكون زوجة من طراز خاص أن تكون ضد من سياق عاطفي ولا تتورط في خلق حزام العفة حول جسدها أو أحلامها، ليست ضد القيم، وليست معها لكنها لا تضدها

في احتمالها إلا من أجل المتعة. هي تعطيه كل ما يريده من امرأة، إذن لا حاجة لأخرى. وهي تتعامل معه كطف ل وأم، كعاشق وغانية لكنها تمارس أيضاً دور الرجل في هذه الأسرة، الدور الأهم لاستمرارية الحياة وتقبلها كما لو أنه لا تقول له:

- أنت تحتاج إليّ، تمر بدوني بأزمة ثقة كاملة فألبس لك صورة تحبها أتقدم إليك كملجأ، وبالرغم مما لا تقطعه من مراعات صغيرة فإنني قادرة على تدمير كل حيلا لك تجاه الوصول إلى فطوم، كامرأة أخرى تفتح لك باب جسدها. هي أيضاً تحاول أن تثبت لنفسها أنها قادرة على إغراء من يكون معي، تريدك لإغاظتي وليس لأجلك لكنني أذكى منكم. لا أستطيع تبديل الأدوار لأنني أنا التي جعلتك تهتم بها. لنترك لي إذن فرحي الصغير باختيارك لي الآن وتركها، ونجتاحها وتجاه هذا المجتمع الذي كان ينظر إليّ باستهزاء.

عليّ أن أفعل أحياناً أشياء لا أحبها، مثلاً أن أحقق فيك بهذا الود الذي خلفته علاقتنا المنتهية أصلاً، والتي لا نعترف بنهايتها بل نعيشها كأكمل حياة نعيش، أشبه صورتي الحقيقية

بدون أي حيل، لكن أنت لا تعجبك إلا فكرتك عذبي كما رسمتها وقدمتها لك.

ما زال نائمًا، لا تحب إيقافه، فقط تطفئ أنوار الصالة وتذهب إلى غرفتها، تنام على سريرها مستمرة تلك الأفكار، وممثلة بالفائض المتناثر من رغباتها المكثفة لصدا روحها.

ترقب زمناً لا تحده لكنها تتفصل بطيئاً عن نفسها ولا تكون غيرها لا تكون بشراً.

تبدأ في دخول غربتها، مكان مختلف في هذا الكون الواسع. لا تتحول من بشر لبشر لكنها تصقل لمعانها لتصير حفنة تراب قبل أن تموت. تستعجل اختفاءها دون أن تغيب. تختفي بانطفاء وهج بجانب شمع وعود ثقاب.

على جبل راحت تسحب الحجارة التي تسقط فجأة وتطلع، الهواء يشح عند القمة صوت غناء ينوح على فقد. تصعد، الوحدة وحدها، ترافقها الملائكة ودونهن بعض شياطين صغيرة يجردونها من عبء هذا الجسد الذي أثقلته التراب، الجسد الذي انحنى وبانت عروقه، هكذا تستطيع الانفصال الآن. الانفصال الفجائي الذي يؤهلها لأن تمكث فجأة في

الكون بدون تسمية أو كينونة، تلمس القم يص ال ذي يعيد
استداراتها بكيمياء دمها. اللحم تمزق وبرزت العظام. يداخلها
رعبها مرة ثانية وتفقد السيطرة على تفكيرها، ثمة ج رائيم
ترعب هذا الحيز منها، لا تقاوم تدميرها لكنها تفكر في مدى
فقدانها في هذه الحياة.

وجود له درامتيته

أزمة ربحانة أن حبيباً لم يكن منفذاً كما يمكن أن يعالجها لكنه وقع في أزمته، أزمة مرتبطة بواقعها وشرطها الذي تهرب منه، ومرتبطة بالآخر الذي كان من المفترض أن ينفذها فوراً أكثر في عدم انخلاءه عن نموذج حياته السابقة بالكامل. حين عاد إليها لم تكن في نم وذج العائلة المستقرة ولم تختبر أنواتها بالكامل لهذا أصبحت شخصية مشوهة، الجميع لجأ إلى حسابها بشكل عنيف ومعقد ومن ثم تحولت أزمته مع الخارج إلى أزمة داخلية مع جسدها.

هكذا حدثت هادفاً وكنا نسير معاً. أتكلم، وهو يصد ربه بقدومه حبات الحصى التي يصادفها، كان ينظر إلى بين الحين والحين وأنا أحرك يدي في الهواء وكأنني استمد القوة

لأبوح له بذلك النمل الذي يحذيني، قلت إن ربحانة لم تكن عبدة بالنسبة لي بل جزءاً من حياتي رافقتني عبر تجاربي الأولى. لم تكن عابرة، بل كنت أشعر بأنها تدوم وبقوة الزمن عند خروجها وحين تعود، تعود كما كانت، وكما كان الجميع. لم يحدث ذلك، فانتظرت من علاقتي بحبيب أن

تكون المنفذ لها، لكن الواقع حكم بغير ذلك لأنه تغيّر حدّي
في نظريتها له، وتحوّل المجتمع بأكمله. إذن لم يعد بإمكانه
سوى أن تعتمد على طاقاتها الخاصة لتخلص نفسها. عليه
ألا تحول كثيراً على الآخر الذي فشل هو أيضاً. وهذا ما لم
تستطعه هي.

كانت تعلم أن الحظ وحده قادر على إعطائها ما تس تحفه
دون عناء. ربما كان وجهها الذي لم يكن جميلاً بمساحيقه
وضوضائه لم يحتمل أوصافاً تحفره في الذاكرة.

هي امرأة عادية تنظر إلى العالم كجزء من غنيمة الوجود
وتحسب خساراتها بالشهوات المتناثرة حولها، لكنها تعرف
عمق الحب حين يتضاعف في هذا الكون مؤات المرات
فتصاب بالذعر حين تغرق ويفشل هذا الحب المعبر عنها،
فتبدأ في الشك. توقفت نظرت إلى هادف الذي ردّ بعلّي
كتقي وكنت أود أن يلطم خوفي أن أكون مثلها لكن خطواته
سبقني أوقفته وكأنني أردى أن أقول له ما قالت له ريحانة
لنفسها

إلى متى أوّجل حياتي؟ أفتح يدي ولا أملك سوى هذه اليد
المفتوحة لتعيد صياغة نفسها وانزائها ومع ذلك لا تس تطيع

أن تخرج من أسر وجودها الحالي، تحرر الروح من جسد عبوديته أم تحرر الجسد من روح عبوديته...؟ كانت تعلم أن كليهما لغز الآخر، بل ربما لغز الوجود كله. فالمستحيل هو الاستمرار كأيقونة تثبتها. كصورة ثابتة ذات دلالات كثيرة. كيف تختزل موقفاً نهائياً وهي تعلم استحالة تحقيق الشد رف من خلال النسيان ومسح الذاكرة.. ومع ذلك فالباب مشد روع على احتمالات عديدة كمركب تدخل العاصفة. أولادها

حين تطرقنا أنا وهادف في الحديث عن ربحانة الذي ربنتي وأولادها وكيف تركتنا كي تعود، قال لي هادف:

- لو عرفت ما تريده لكانت اليوم تملك مفاتيح أحداثها لكنها كانت تبحث دوماً عن مستحيل لا يتحقق، فتحققه يعني نهايتها هي بالطبع.

أي إنسان حين يخرج من مجتمعه يدمره هاجس تكوينه يثور على وضعه. في مصر، لم تعيش ربحانة واقعها بل ثارت على وضع إنساني، اكتشفت المادة التي تملؤه ولأنه على صلة بتاريخها أصبحت محددة ضمن نظام هذا التاريخ، وأصبحت قدرته على محاكمتها قدرة مأساوية.

فقلت له: - الفرق بين حياتها وسهولة تضمينها وبين حياة متكررة ومتشابهة مع تجارب إنسانية أخرى هنا. إن أزماتها تؤهلها لخلق وجود له دراميته. فهي ليست متحدرة لكنه لا تعبر عن نفسها بشكل متحرر، انهارت لأنها لم تفهم هذا التحرر إلا من خلال التقليد، فبين حياتها وبين حياة متكدررة ومتشابهة مع آخرين كان الفرق بين الحياة العادية والشد كل الدرامي المؤثر، المحدود ضمن نظام هذا التاريخ فأصد بحث قدرة هذا التاريخ على محاكمتها قدرة مأساوية، ولكن لا تجربة أخرى تتفادها من نموذجها الخاص.

فقال لي: - هي نموذج لا يحمل قضية خاصة، اختارت، واختيارها كان تجاه سلطة عائلية ومن ثم عاشت تحت ضغط العودة، فوحدها العودة ستحقق مشروعية علاقتها مع هذه القضية. حتى ذلك قد يكون نموذجاً سائداً لكن ليس هناك من تجربة أخرى تتفادها من نموذجها الخاص، لا يمكنه أن تحتمل نفسها وأعباءها ولا حتى روحها.

طموحها القوي فرصة لبناء ذات جديدة لكن مشكلتها عدم الاعتراف الاجتماعي الذي يعيدها إلى حالتها القديمة.

نظر إليّ هادف، لم أتكلم.. أحسست أننا في حالة أف رب
إلى الانسلاخ، هادف يتكلم بموضوعية شديدة وصارمة أبعد
ما تكون عن الشعور الإنساني الذي شعرت بحنوه ذات يوم.
قلت لنفسي ربحانة تملك ذاتاً إنسانية كبيرة ومشاعر متراوحة
بين الفقد والامتلاك لكن هادفاً لا يرى إلا ما هو نظري في
ظاهرة العبيد لدينا، شردت قليلاً فأحس بذلك، لذا أمسك يدي
وهو يقول:

- هيه سمعت اللي بقوله....؟

هزرت رأسي بالإيجاب فابتسم موحياً انه يعرف بأنني لم
أستمع لشيء مما قاله فأعاده مرة أخرى:

- حدث تعامل برجوازي من خلال التوجيه والتعطيم
وأصبحت علاقتهم الطبقيّة والعبودية تشكل عقدهم التاريخيّة،
ربما هي التي حولتهم - أحياناً - إلى مرضى يصعبون
بخيبيات أمل أو زهايمر علشان كده بقولك أهم شيء الوعي
كيف نبني الوعي إذن...؟

رغبتي في الحديث تلاشت ولكني قلت له:

- تعرف، محراك شايف انه موضوع ضروري لتخلص
حقه الطبقي هو شخصية معلنة عن نفسها في أقصى انفعالاته

وهو أكثر من مرة يصل لأقصى القطبين أما ناصد ر فه و
شخصية غير موجهة لذاته الخاصة لتكون قادرة على ت وفير
مقومات إرادته، هو بحاجة ماسة للآخر، للذ ارج، لش ديء
سماوي مع مراقبته الدائمة. إن هناك حكما مسبقا على الحياة
لديه.

- التوجيه يجعل الإرادة في يد الموجه
- آه تقصد التلقين.

- طيب وأنت فين...؟ ما هو إنت عارفة تحللي كل حاجة
أهو علمناها الشحاته سبقتنا على الأبواب.

- أنا، دا أنا غلباته، بس بجد، أنا لست ضد من النم وذج
السائد ولست خارجة أيضاً مضطرة أن يكون النموذج السائد
كفراً لا يمكن تخطيه.

- إذن أنت غير مدركة وغير متجاوزة.

- ما انت شايف النماذج الل ابي بتد رج من فترات ال
المرتبكة.

- أنا شايف أن محراكاً نموذج في الحياة، علاقته، بنيته،
طموحه، ليس مع السائد ومن ثم كان يعيش نمودجه بش كل
آخر خفي، وموافق أيضاً جبرياً على الشكل السائد ومعايشته

لا اعتبارات عديدة لكنه كخطاء فقط وليس واقع وجدوده
الإنساني، ده اللي فيه الأزيمة الإنسانية.

- هو موافق على الشكل السائد..؟ فين ده، ده بيثوّه ما
يصنعه ويعيد صياغة ما يشوّهه من جديد ليثوّه أكثر، لديه
رغبة فظيعة في التخطيم، هو نموذج قاصر على توريث
الآخرين، هو بحاجة للمرد، ولهذا يعيش النمذج السائد
وتحت نمودجه الخاص به والذي يدمر النمودج السائد أساساً
ويدمره هو أيضاً.

- كلنا ضمن نمودج عربي فاشل لا يسد تطيع أن يحمل
نفسه وأعباءه.

- أيوه ابتدينا مانشيئات لا إحنا نماذج سائدة ليست لدينا
تجربة مخالفة نتقننا من نمودجنا الحالي.

- نماذج لا تحمل قضية خاصة، أنت مثلاً اختيارك تجاه
سلطة عائلية ومن ثم مشروعية علاقتك به مثلاً هو القضية،
قضيّتك الخاصة. أما ربحانة فكانت قضيّتها العودة.

- يعني تقصد إننا أصحاب قضية لأننا نحب بعض.
- طبعاً.

- يا سلام ده إيهام بمشروع حب قوي.

- الواقع غير محدود جغرافيًا عربية مصغرة.

- إيه ده، إيه النضال ده.

كمان هاند يشل تفكيرِي، لا أستطيع التفكير إلا بـه، ولا أرى إلا من خلال عينيّه. لا أستطيع التحرك إلا بمنطقه هو. حياتِي جزء من حياته، أبدأ يومي حين أراه وينتهِي حِين أودعه وأذهب إلى البيت، ما يحدث في البيت بدونَه خارج عن روعي، في اليومي من العلاقات أما هـ و فـ في العمق الداخلي.

عكس حياته التي تبدأ صباحًا حين أجيء إليه، فيبدأ يومه وحين أودعه تبدأ حياته الثانية: السياسة والأصدقاء، الشوارع والعالم كله.

لا أدري كيف انسلخت من قوقعته واس تطعت أن أسير خارج رقعة جبروته، حين التقيت به مصادفة كان العالم حولي مجرد فكرة تشكلت داخلي عن وضعي كفاءة تقلص أعضاؤها مع كل لحظة صمت تتبع من أفكار أمها: لا تحني ظهرك وأنت تسيرين، لا تجرجري قدميك وكأنك نس حبين حملاً وراءك، استقيمي في مسيرك، أس قطي الكتفين ولا ترفعيهما، لا تهدلي شفتيك وأنت تتحد دثين، إجد ذبي بطنك

للدخل. كانت تحتوي بملء رأسه بالافكار المائدة في السلوكيات الانثوية والاخلاقية لكن عقله كان مهملاً لا يعرف النقد ولا التدقيق إلا مع هادف، هذا الذي جعله يعرف أن هناك أطروحات متعددة ومتصارعة علينا أن نعمل العقل فيها لكي نختار منها ما يناسب تركيبتنا النفسية. الاختيار يشعر بالتميز، يخرجك من الإطار الذي تراه يتأرجح تبعاً للمتغيرات التي تعترضها الظروف. هكذا أسمعته مع طه يكونان لي مسرباً لتحريك العقل والبحث عن كينونة لا تعتمد فقط على تاريخها وإن كان صلباً.

الإنسان في حد ذاته متغير، والتاريخ وإن كان حقيقياً فهو يتنوع مع من يرويها، وحين نسير وراء المتغيرات التي يفرضها الواقع، علينا أن نتخير معه بما يتواءم مع ما نؤمن به، وإن لم نتخير سنصبح في الهامش، نحيا على الأطلال. لكن هذا الهامش الذي نرفضه قد يكون أكثر النصفاً مع ذواتنا من الواقع الذي لا يتواءم مع تفكيرنا.. ويظل هادف يشل تفكيره.

أسمع الآن صوت أمي تقول: - إنها كبرت، لهذا لم يدق لها الكثير من الوقت. أصبحت أكثر فتنة وأرق روحاً، لم تعد

تدربني على أن أجذب نفسي إلى الداخل، ولا أظهر مرم
حقيقتي إلا القليل، لا يعينها الأمر الآن، كانت تختار الملابس
الملونة وتهتم بحالها كثيراً...

أحضر هادف كتاب شعر، وجلسنا إلى طاولة في مقهى..
طاولة لا تكفي لوضع كوبين من الشاي وحملنا الكتاب بين
أيدينا وقرأنا منه قليلاً.

الرقاص

سألني طه:

- ألا قول لي يا شمسة همه المدفعين دول كانوا مارك

إيه...؟

الجزء الرابع
"الأولة في الغرام"

كراسي الحكم

صباح اليوم أفضل من صد باح أم س، وأفضل من صاحبها الماضية بعد أن عاد الببغاء إلى صاحبه الأصلي وظلت حديقة حيواناتنا تتكلم وتصغر حتى ظللنا فيها نحن البشر فقط.

قالت أمي لأبي بالأمس:

- أنت ليش تسجن الطيور، مب كفاية إنك انسجنت، أنت مفروض ما تسجن حد بعد ما دقت السجن. وحين جلسنا على منضدة الطعام، مكان اجتماعنا الأثير، جلست على الكرسي ذي المسندين وأرجعت ظهرها إلى الخلف بعد أن وضعت يديها على مسنديه، ونظرت إليه بابتسامة مكررة قائلة:

- على فكرة، هي كراسي الحكم شو تق رقع عن ه ذا الكرسي، ولا شيء، ليش تتمسكون بها وهذا لا. أمسكها من ذراعها وسحبها عن الكرسي وتبدل الأتوار وابسح و هو يجلس مثلها.. يرجع بظهره إلى الورا، واضعاً يديه على المسندين وهو يقول:

- يفرق كثيراً جداً، بس أنت ما دَقَقْتَه، لهذا لَنْ تُعرفِي الفرق.

كلما أمسكت بتلك الحمامة البيضاء لمدة طويلة حتى أفلتها لأنظر إليها، وهي ترفرف وكأنها تتعلم الطيران لأول مرة، ترفرف كما يرفرف العلم ونحن نحتِّه في طابور المدرسة لنحييه. كأنها تتعلم كيف تعاود الطيران، كيف تمتلك حريتها من جديد، وكانت عيناها تنظران إلى البعيد كمن يقرأ الغيب حين ألبسوني العلم، وكلما وقفت أمام الحائك لبست العلم في مخيلتي لأشعر بالانتماء. حلمت مرة في أحد الأيام، أنذيت لبست فستاناً بكثف واحدة فاضطرت أن أترك عري منسدلاً على الكتف الأخرى كي أخفي ما يظهره سقوط الجانب الذي لا يحمله سوى الحلم.

لو كنت أطول قليلاً

- ١ -

سألني هادف:

- قرأت جاك بريفيير؟ ده أجمل شاعر على الإطلاق،
خذي بعض قصائد له واقرئيها، هو شاعر جميل..

فقلت له: - وأنت مش جميل يا جميل..؟

- أنا بكره نفسي وحياتي بكره الشعر والمتقنين.

- مش ممكن، أنت بتموت في الشجر وتندب نفسك

لدرجة العبادة، بتحبها لدرجة إنك بتحبني ولدرجة إنك دائماً
نظيف في أفعالك وداخلك وبراك كمان.

- انت واثقة من نفسك ومخدوعة فيها

- لازم أكون واثقة في نفسي ومخدوعة فيها، لازم أكون

واثقة من نفسي معاك.

كنت حين أسير بجانبه أصل إلى قلبه، لا أتجاوزه أبداً

وأسعد بأنه طويل لدرجة أن عيني تصل إلى قلبه، هذا هو

الطول المناسب هذا هو المكان الذي أستطيع أن أكون قريبة

منه، أحس بالحنان الذي لا يظهره أبداً، أرى قلبه وهو

ينتفض، تنفسه وهو يخرج ويدخل فيظ ل صد دره يصد عد
ويهبط.

لو كنت أطول قليلاً أو لو كان هو أقصر لكانت رأس ي
ستجاوز كتفه، وهنا سأجد العالم حولي، سأرى من خلفه إذا
اختفيت.. أما الآن، فأنا لا أرى إله هو فقط، وحين أختبئ
من العالم يكون هو من يحميني.

ظلت داخل هذه القوقعة التي ظلت تقفل عني صد دفئها
حتى اكتملت الآن.

هاتف لا يتصل بي، لا يأتي إلي، لا يق دم لي ه داياء،
وينسى أن يلمس حتى أصابعي، يتكلم قليلاً، لكن كلامه دائماً
منطقي ثابت ومحدد.

مرة صرخت في وجهه:

- أنت زي أبويا تماماً، بتحاول تعلمني وبس. يا أخ ي
الدنيا حياة نعيشها مش جد وتعليم وبس.

- مين قال أنها جد بس، ومين قال غير كلامك ده...؟

نظرت إليه متحقة من سوء فهمي فبدأ بمحاضرة حول..
لا أذكر، فقط أذكر كم كان واثقاً من نفسه بالرغم من ادعائه
العكس.

أنا أتحدث كثيراً، كلما بدأت الحديث حضرت إليّ مريم وهي تقول:

- وأما الزبد فيذهب جفاء.

أسكت وأتمعن في الكلام الذي أقوله، لماذا يصبح الحديث زبداً...؟

الحديث مروحة الهواء.

- ٢ -

حدثت هادفاً عن حياتي أخبرته عن أفكاري وكيف أتعامل معها، أحلامي وكيف أهفو لتحقيقها، عن رغباتي المخدوءة ضحكت بصوت عال وقلت:

- أتمنى أن أطير إلى هناك.

كنت جالسة معه على أسوار الجامعة وأشرت إلى ساحة الجامعة وهي تدق.

قال:

- بسيطة، أنت في الزمن أساساً.

أحد أصدقائه قال لي:

- كيف تحبين هادفاً، إنه شيوعي.

- وأنت..؟

- أنا قريب من أفكارك.

- تقصد أفكار والدي..؟

- ولكن..

سألت صديقه الآخر:

- هانف يساري..؟

وكنيت أريد أن أخفف من وقع الكلمة عليه وهو المتدين

فقال:

- الله أعلم أنا دائماً أشوفه يصلي، ويصوم، وما يبشربش.

حين كنا على سور الجامعة قلت لهانف:

- أنت شو...؟

ضحك قائلاً:

- بني آدم بيحب ويبكره، بيحب الدنيا والبلد دي، ويبكره

الظلم والتخلف.

- وانت منضم لإيه...؟

- منضم لنفسي وقناعاتي طبعاً.

وبدا يغني:

- يا داره دوري بينا، دوري دوري بينا، لننسى أساميهم،
وننسى أسامينا.

صكُ انْعاقِها

- ١ -

حين طلبت ربحانة من عمّتها الجديدة صفية أن تُعقّق لها،
أعقّقها بصكّ تثبت فيه أنها أصبحت حرة، بدل وثوم طلت
لزوجها حبيب كي يعمل في الجيش الموحد الذي تمّ إنشاده
في العاصمة بعد أن ظهرت الدولة وخرج الإنجليز منها،
ظهر النفط وألغيت العبودية فتتفتت ربحانة الصعداء. هي
حقاً لم تكن تذهب لعمّتها كثيراً، وعمّتها الجديدة أيضاً لم تهتم
بها، فهي فقط أخذتها وأعادتها لتكون لها المنفذ.

كانت التجارة، والملاحة، والخصوص بحثاً عن اللؤلؤ، هي
الأعمال التي يزاولها أهل المدينة، أما الآن فبعد قدادة
السيارات وبعد الحرية، صار العمل بالجيش هو الوحيد الذي
يعطي لحريتها معنى، خاصة أن الراتب الشهري مجزٍ إلى
حد ما.

فرحت ربحانة فهي تريد أن تبعد قلباً يلاً، كانت وظيفة
حبيب تعطيمهم الحق في ملكية بيت مناسب في حي صخير،
وراتب شهري مناسب لبداية حياة كريمة. كان ذلك بداية
جديدة للخروج من مأزق تلك المنطقة، والابتعاد بحبيب
وابنيها عن حبال فطوم التي تحاول أن تعيد حبيباً مرة أخرى
إليها وللخلاص أيضاً من كل ذلك الماضي الذي ظل يتعقبهم.
لم تترو بل سحبت وجودها قليلاً من الخارج، اختفت دون
غياب، الغياب كما في القاهرة يلقاها، أما الاختفاء كما في
العاصمة فهو استراتيجي ضد الشحوب والحزن، وللعودة من
جديد.

لم يتغير المجتمع بل انقلب ولم يسمح بالتطور على مهل
من خلال فكرة مطروحة، لكنه تطور من خلال الشد كل
الاجتماعي السائد والمعاش بدون تغييرات جذرية تذكر إلا
بمعنى نفسي، ومن ثم كان النكوص أحياناً يزداد في اتجاه
تعقيد السؤال الخاص بوجودها.

ظهرت الدولة، ومات جمال عبد الناصر. عاد أبي ومعه
بعض الحرس بعناد قليل لترتيب انقلاب صغير على الحاكم،

فرحت ربحانة فهي تريد أن تبعد قللاً، كانت وظيفة
حبيب تعطيم الحق في ملكية بيت مناسب في حي صخير،
ورائب شهري مناسب لبداية حياة كريمة. كان ذلك بداية
جديدة للخروج من مأزق تلك المنطقة، والابتعاد بحبيب
وابنيها عن حبال فطوم التي تحاول أن تعيد حبيباً مرة أخرى
إليها وللخلاص أيضاً من كل ذلك الماضي الذي ظل يتعقبهم.
لم تترو بل سحبت وجودها قليلاً من الخارج، اختفت دون
غياب، الغياب كما في القاهرة يلقها، أما الاختفاء كما في
العاصمة فهو استراتيجي ضد الشحوب والحزن، وللعودة من
جديد.

لم يتغير المجتمع بل انقلب ولم يسمح بالتطور على مهل
من خلال فكرة مطروحة، لكنه تطور من خلال الشد كل
الاجتماعي السائد والمعاش بدون تغييرات جذرية تذكر إلا
بمعنى نفسي، ومن ثم كان النكوص أحياناً يزداد في اتجاه
تعقيد السؤال الخاص بوجودها.

ظهرت الدولة، ومات جمال عبد الناصر. عاد أبي ومعه
بعض الحرس بعناد قليل لترتيب انقلاب صغير على الحاكم،

في بيان وزع من جماعة الدفاع عن عروبة الخليج في فبراير ١٩٧٢ حول حقائق موجزة عن الأحداث تعرضت الجماعة إلى فكرة الشرعية والحكم من حاكم إلى آخر في فترة تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة.

عش لأمك زماناً

- ١ -

على طاولة الطعام جلست بجانب أمي، أذلى على رأس الطاولة وهي على يميني وأختي على يساري. عندما مات والدي صار أخي هو الذي يذو رأس الطاولة وبعد موته أصبحت أمي هي التي تترأس الطاولة.

كبرت أمي كثيراً بعد موته، لكنها ظلت صلبة ومتوازنة ترفض أن تتنازل عن قوتها حتى على حساب نفسها. الضعف أيضاً إنساني لكنه في الأسر الكبيرة ذات التاريخ خاصة السياسي يعتبر انهزاماً.

حين اضطررت لأن أجري عملية جراحية على قدمي تنازلت لي أمي عن الكرسي بحجة أنني أستطيع مد قدمي هنا

أكثر أمسكت بيدي ووضعتها على يد الكرسي، الكرسي
الوحيد الذي على الطاولة بيدين هو كرسي المنصة وأخذت
مقعدا لي كأنها تقول:

- أنت الآن مفوضة مني بأن تحملي راية العائلة، أنت من
سيتحمل زمام البيت.

أية مسئولية تضعها على كتفي وهي تعلم أنني أحب
الضعف أكثر من القوة والفقد أكثر من الامتلاك والفشل الذي
أخافه أيضا أكثر من النجاح.. هكذا علمني هادف.

الضعف قوة إنسانية أكبر بكثير من القوة التي ندعينا
وهكذا كانت مريم وهي تقول لي " ولكن مثلي لا يدافع له
سر".

لكنك لست كذلك يا هادف، أنت مثلهم تدعي القوة والقوة
أيضا، تعلمت كيف تقسو على ذاتك كثيرا إلى الحد الذي لم
تترانك تقسو على الآخرين، أنت قاس على الآخرين دون أن
تلاحظ ذلك، قسوتك الموجهة ل ذاتك اخترقك، وطفدت
خارجك.

- أما الفشل فهو شيء عادي، هكذا قلت لكي أبرر عدم
استطاعتي فعل أشياء خارقة.

ضحكت يومها وقلت لي:

- أنت أصلاً بتموتي في النجاح، بتموتي فيه.

قلت لك:

- في مين

- في النجاح

- لا والله أبداً، دا أنا بأموت فيك أنت.

- يا فاشلة.

النجاح يتطلب أن تنجح وتنجح، وكلمة أخذنا نطلب المزيد، عكس الفشل يستقر الفرد في مكانه ويصمت، مثل الخوف والشجاعة، الشجاعة تستلزم الإقدام، أما الخوف فأمان أكثر، كانت أمة تقول قولتها الشهيرة:

- " استوي جباناً وعش لأمك زماناً ".

لماذا أجد ما هو ليس بحقيقي داخلي، الله جاعة جميلة حقاً، لكنها خرقاء. الملكية أجمل، لكنها تستلزم الدفاع عنها، النجاح حلو، لكنه يستلزم أن نحافظ عليه، إذن أنا أبحث عن انسحابي من العالم وأن أخلد إلى الضعف والانهزام.

لاحظت أن أمي تسعل كثيراً هذه الأيام وقد بين تجلس بجاني على منضدة الطعام تمسك ورق " الكلينكس " في يديها كلما سعلت وضعت يدها على فمها.

تذكرت الأفلام القديمة التي تسعل فيها البطلة فينتهي الفيلم بوضعها في المصحى، ثم باكتشاف داء السل وموت البطلة. كنت أضحك بداخلي وأقول: " أنا كارنينا " تعيد نفسها أمامي. هذه التهيوأت لا تطفو على السطح أبداً حتى لا يختلف الشكل العائلي المنتظم أمام طاولة الغداء.

نحن نجتمع مرة واحدة فقط على طاولة الطعام لهذا كنت أحاول جاهدة ألا أك ون في المنزل، أتحدج بمواعيد المحاضرات التي تكون جميعها ما بين الساعة الواحدة والنصف إلى الرابعة وبما أن كليتي بعيدة عن المنزل فأحتاج إلى ساعة إضافية حتى الوصول. هذا يعني أنه لا أحد في المنزل يستطيع انتظارى، ولكن سينتظرنى التوبيخ والكثير من المناقشات الحادة والكثير من الاس تقراز والطرد من طرف والدي خاصة إذا كان مزاجه متعكراً وإن الدل الوحيد ألا يراني ولأننى شجاعة، كما كنت أظن، كنت كثيراً

ما أرفض ذلك خاصة انه لكي أصل إلى غرفتي لابد من المرور على القاعة التي ينتظر هو فيها ويجلس طيلة يومه.

في كثير من الأيام التي أكون قد استوفيت فيها طاقتي في الشجار مع هادف لا أستطيع أن أتحمل أكثر، أضعف وأدخل غرفة جدتي وانتظر فيها الليل حتى ينام هو، لكي أذهب إلى الغرفة أو يأتوا إلي بملابس البيت، ألبسها وأظل هناك حتى يسأل عني فأتيه وكأنني جئت منذ فترة طويلة. كنت أرى هذا كذباً لا أستطيع فعله، كنت أظاهر بالقوة مما لا يجعلني أكثر من أربع سنوات مرت في هذه الدوامة المحيطة بي ما بين مقولة أمي "عش جباناً تحش لأمك زماناً" وبين جدتي وهي تتردد "ولكن مثلي لا يذاع له سر".

اليوم أمسكت يدها وهي تبعد عن فمها لأرى كم الدم الذي تنزفه، دم أحمر بلون الورد، ورد أسطى علي، وعم خالد، والبستاني الذي في الفلا التي يسمع منها صوت البياتو صباحاً في رحلتنا إلى المدرسة كل يوم.

دم والدي وأخي وتاريخنا الذي يتفتح كل صباح في المرأة، دم أمي الذي لم تنزفه إلا في شكل وردات صغيرة.

أصبت بالرعب، لا أظن انه السمل ال ذي أصد اب الأف لام
العربية.

- ما هذا...؟

- لا شيء، أسناني توجعني.

وعندما أتى الطبيب كانت تنزف بد دة اض طررنا لأن
ندخلها المستشفى ولأن أرقد بجانبها فترة طويلة لم أر فيها
أحدًا، أنا وهي فقط لأكثر من شهر.

غنت لي ريحانة فيها:

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغثرته وارداه "

" يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر ما اباه

أبي وليد عمي بغثرته وارداه "

وأنشدت أم كلثوم لحظتها:

" نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع

له سر "

وقالت أمي:

لقد أبليت بلاء حسنًا وكفي أني أكلت شبابك.

أخذت معها مقولتها " عش جباناً تعش لأمك زماناً " وأسرت لي.. ألا أخضع لأحد ولا أذل نفسي.

حملت ألبوم صوري وذهبت أقابله، وحملة ه و أيضاً ١ بعض صور له في ظرف صغير وأتى إلي.

جلسنا أنا وهاتف في الحديقة المقابلة لجامعة القاهرة هذه المرة كان احتفال الربيع. ككل سنة، الحديقة مليئة بالورد والأشجار وشجر الظل والشمس، كان احتفالاً بنا أيضاً ولم تكن ملكة الليل غائبة ولا الورد الأحمر بلون الدم ولا باقات الورد، لكن أبي وعم خالد والبستاني وطفولتي كانوا كلهم في مكان أمين داخل ألبوم صوري.

أظهرت صورة لأمي على كرسي كبير مذهب وقلت: - هادي أمني.

فتح الظرف الذي حملة وقدم لي صورة صغيرة لوجه هادي وعرفها: وهذه أمني.

قلبت صفحة من الألبوم وأشرت بإصبعي على رجل يلبس الملابس الخارجية ويحمل سيفاً. قلت: - انه جدي. أخرج من الظرف صورة أخرى صغيرة هي أيضاً وقال: - وهذا أبي.

- قَلَبْتُ صَفْحَةً أُخْرَى وَأَشْرَفْتُ إِلَى صُورَةِ الْحَصْنِ وَقُلْتُ: -
- هَذَا هُوَ بَيْتِي الَّذِي وَلِدْتُ فِيهِ.
- نَظَرْتُ إِلَى بَأْسَى قَائِلًا: - ابْنَةُ سُلْطَةِ.
- قُلْتُ بَتَوَثُرٍ وَكَأَنَّهُ أَهَانَنِي: - أَنَا لَسْتُ ابْنَةَ سُلْطَةِ، وَحَيَاتِي
- مُؤَسَّسَةٌ عَلَى الْفَقْدِ.
- أَقْفَلْتُ الْأَلْبُومَ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ قَائِلَةً:
- يَرِيدُونَ أَنْ يَزُوجُونِي لِابْنِ عَمِّي.
- طَيِّبٌ.
- يَعْنِي شُو طَيِّبٌ.
- يَعْنِي أَنْتَ مَاذَا سَتَفْعَلِينَ...؟
- كُلُّ شَيْءٍ عَلَيَّ أَنَا...؟
- قَالَ:
- أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ التَّدْخُلَ.

سيدة البيت

- ١ -

حملت ريحانة في تلك الأيام بابنتها الأولى حليلة وظلت
هناك تعيش في شبه هدوء سنة، سنتين، أربعاً، خمساً، وكل
يوم يتكثف إدمانها شرب الخمر والسجائر. لم تستطع برغم
حياتها الهادئة أن تخفف من إدمانها خاصة أنها استطاعت
توفير بعض المهدئات والمخدرات أيضاً، كان منزلها مملوء
البيوت الشعبية، يضم غرفتي نوم وصالة، علفت على أحد
حوائطها إطاراً ذهبياً به صك انحنائها، ومطبخاً وحمالين،
يشبه البيوت التي بجانبه وجميعها في حي خاص بالعمالين
في الوظائف الخاصة في الجيش.

حين علمت بأن الدولة تريد هذا الحي لإعادة بنائه بشق كل
آخر وأن بينهم أحد تلك البيوت التي ستهدم لشق شارع كبير
في مكانه، فرحت كثيراً وفرح حبيب وأولادهما لأن الدولة
ستعوضهم مائلاً كثيراً يمكن أن يؤمن لهم بيتاً أكبر وعيشة
أرغد.

ترك حبيب الجيش وأخذ المال. كان يحلم بإيداعه في البنك لكن حلم حبيب بأن يترك الجيش ويأخذ بيتاً صغيراً آخر ويصرف من أموال البيت لا يليق بريحانة التي أصرت على أن تعود مرة أخرى فتشترى أرضاً كبيرة جداً وتدفع رهن الأرض للبنك لبناء بيت فسيح يشبه ذاك البيت الذي سكنه في بداية عمرها لتصبح هي سيدة البيت. أخيراً ستعود أفضل مما كانت، قالت لنفسها أخيراً سأربح.. سأشعر بطعم أسامي ريحانة وسأربح الدنيا وحبيباً ومحراكاً وناصر راء وحليمة، سيحبني حبيب وسيخلص لي محراك وسيجاهد ناصر ما استطاع لأجل سعادتنا أما حليمة، حلم في الحلم الذي تمسكت به حتى كسبت عودة حبيب لي، وهي حلمي الآن الذي بدأ يتفتح. نزع الصك من إطاره، الصك الذي ظن يذكروا بأنها عبدة والذي رفض حبيب تعليقه وكسره محراك من قبل، وما هو الآن لا حاجة إليه في البيت الجديد. هذا صك آخر - المال - الذي ستصبح من خلاله سيدة المكان. ومع ذلك خافت أن تمزقه، ما زالت تراه قيمة قد تحتاج إليه برغم مرور الوقت. لفته جيداً وخبأته في احد الأكراج. لم

تكن مخلصه لفكرة عبوديتها كما لم تصبح مخلصه أيضاً
لفكرة حريتها.

اشتريت سيارة فخمة واستخدمت كثيراً من الخدم الذين
أحضرتهم من مناطق مختلفة وأصررت على أن تحيط نفسها
بهم لتصبح سيدة حقيقية تعزم النساء اللاتي رفضنها من قبل
وتقيم الولائم وتجلس في صالون قصرها والخدم من حولها
يتمأوجون.

أما حبيب فقد اشترى سيارتي أجرة أجرهما ليعودا
بعائد معقول يمكن من خلاله اعتماده كراتب يومي مناسب.

- ٢ -

كانت وليمة كبيرة عندما سكنا المنزل، بحثت للجميع من
كان ضدي ومن لم يكن. لحمتاتي وللعبدات المسابقات
وعوائلهن، لبست فستان عمتي الأسود ذا الأوراق الذهبية،
المفتوح الصدر على هيئة سبعة ورفعت شعري مثلما تفعل
ولبست عقدًا من اللؤلؤ.

حين أقلد عمّي ليس ذلك بدافع الغيرة لكن بدافع الحب لأنني أرى أن عمّي هي الأجل والأكمل لهذا أهفو ومن خلال تقليدها بأن أتجمل وأكتمل.

أقلدها لأنها النموذج فلا أرى إلا من خلالها ولا أفعل إلا كما كانت تفعل.

الملابس، الزينة، البيت، الحركة والمشى، تسريحة الشعر كله مثلها لأنني في داخلي أحبها مثلما أحب حبيباً لأنني لم أر غيرهما، لكنني دمرت هذا الحب من أجل استعادة حيويتي وحين عدت إليه لم أجد داخلي سوى بقايا امرأة محطمة. اضطررت للهدم من أجل البناء، أن أفقد من أجل أن أمتلك، وحين امتلكت كانت نفسي جشعة في الامتلاك، أنا أريد امتلاك نفسي من خلال هذا العالم، لكن لا أعرف كيف أسجن بحريتي. كنت عبدة بجسدة حر، شوهت علاقتي بالعائلة، لن أعود لهذا، كان لابد أن أتركهم وابني داخلي حياً جزاً من الغلظة والكراهية أحاول ألا أخطأه حتى لا أضحى، أنا أحبهم وما هو الحب يظهر بأشكال أخرى لم أدركها من قبل.

كل من أتى ظل يهزأ بي وظلت إشارات الغم زواله ز
كثيرة للدرجة التي لم أحتملها تركتهم في صدق اللون منزلي
ودخلت غرفتي فانسحبن جميعهن الواحدة تلو الأخرى.

لم تنشوه العلاقة فقط بل كان النشوة مصد بوباً داخلي،
أغرقني ولكي أنسى لم أجد غير مل ذات حاصد رتتي فيها
الخمير والإدمان.

عدت لكنني لم أعد كما كنت، ولم يكن المكان كما كان
وحتى حبيب ما عاد حبيباً.

الحلم حارق والمكان يتغير بتغيير الروح والجسد والظل،
والنهر يدعو حتى يصب دائماً في البحر، والبحر كما يقولون
ليس بملأناً أبداً.

كان المكان من قبل أرضاً وفكرة. أصبح الوطن أرضاً
وسلطة والتزاماً بنظام غير النظام الذي ألفته، أصد بحث
نموذجاً آخر لم تحلم به وعليها الآن أن توجد أحلاماً تناسبها
كما هي الآن. لم يكن النموذج سهلاً لهذا استعانت بملا في
ذاكرتها أصبحت نموذجاً لآخرين وحين تحقّق نموذجها
أصبح فناً خارجياً إذا قبلت به انتهت وانتهكت، وإذا مارست
من تحته اللحظة أضحت مثار سخريّة.

تذكرت عمّتي شمسة وسيرنا على الأقدام كل يوم إلى المدرسة. كنت ألبس ملابسني التي طورتها لتناسب القاهرة ؛ السروال الأبيض المطرز في نهاياته، والفسّتان الذي انحسر إلى ما بين الركبة أو تحته، وضعت الطرحة على رقبتي بدلاً من رأسي وكنت كلما ارتديت ملابس تذكرت أول مرة سرت بالملابس نفسها مع عمّتي على نيل منطقة الجيزة حين صرخ أحدهم من بعيد معاكماً إياي:

- تعيش أنديرا غاندي

فطنت أن ملابسني أقرب للملابس الهندية والباكس الثانية. ضحكت، وظلت تلك النادرة تعاودني كل فترة كلما وضعت الطرحة على رأسي.

لم أنس أول زيارة لأنديرا غاندي إلى القاهرة حين وصلت إلى المطار مرتدية الملابس الهندية التقليدية " الساري " ومنحلة صندوقاً، كانت أول زيارة لها وكان ذلك في مؤتمر الحياء الإيجابي وعدم الاتحياز.

بعد سنوات زارت أنديرا غاندي مصر للمرة الثانية. كتب أحد الكتاب في اليوم التالي لزيارتها أنها وهي تتقدم لمأدبة

العشاء التي أُقيمت لأجلها وكان هو خلفها انتدبت فدمها
وكادت تقع للوراء فسندها، فقالت له: لقد استطعت أن تسندني
قبل وقوعي، فرد عليها قائلاً: - لقد استطعت أن أسند ظهر
إنسانة تسند بحكمتها ظهر مليار من قلوب المساكين.

دخل " نصور " عليها، كانت ترضع حليلة نظر باستحياء
لثديها المنكور في يد حلوم، تذكر نفسه. لم تقطع له إلا بعد
فترة طويلة وكان دائماً يصر على الرضاعة حتى وهو في
عمر الخامسة وكانت تعطيه ثديها حتى تتخلص من بكاءه
خاصة عند النوم.

جلس بجانبها فبدأت تحكي له.

- اليوم جاني في الحلم مرهون فتح باب الحصن، الباب
الصغير، وما خلاني أدخل، كانت عمي نايمه، أخذت ثيابها
ولبست ما لاءمني وأحرقت الباقي. بعد أن احتفظت لنفسني
بفستان زفاف أبيض. كل العبدات صرخن وقلن: هذا ليس لك
وأخذنه مني. لم أستطع أن أخذه عنوة منهم، دخلن في الحلم
وبقيت أتقلب في سرير. انقلب فسقطت في البدر تدت
السري، كنت أعلم أنني لا أعرف السباحة، لكن حلوماً لبست
فستاناً أبيض أيضاً وركضت ورائي، سقطت في الماء وكل

العبدات لحقن بها وتحلقن حول البحر وانتشلنني بشبكة صيد،
خرجت أضحك أما حلوم فلا أعرف من حملها من الماء،
كانت غريفة وبلا ملابس أمسكنها من قدميها وظللن يربتن
على ظهرها كان حبها السري يشتد على رقبته ما أعرف يا
ناصر هاي البنات شكلها ما بتعيش.
أمسك ناصر بأخته قبلها وأخذ يلاعبها سأل عن والده ثم
خرج سريعاً.

- ٥ -

رن الهاتف رددت عليه، كانت مريومة على الخط
أخبرتني بعودة صالحة من السعودية. صالحة صديقتي التي
أمضينا مع بعضنا أوقاتاً جميلة وحميمة هي أكبر مني بكثير
أخت مريومة التي ترتب معي لكنني كنت أغار من مريومة
لأننا كنا نتنافس على حب عمته أما صالحة فلا.
إن عادت صالحة بما جمعه من تجارة والتي استقادت
فيها من علاقاتها بخالتها أخت أمها أمة إحدى الشخصيات
الكبرى هناك، وأم ابنه. استقادت من سفرها معهم ودخولهم
جميع الدول بدون تفويض أو ضرائب، كانت تاجرة شديدة

ماهرة مثلما تباع الذهب والأقمشة تباع الخمر والأملحة
الخفيفة.

لم أسمع عنها شيئاً منذ مدة طويلة إلا ما كان يتردد حول
تجارها ولم أحاول أن أنقصي عن ذلك.

- قد اغتنت كثيراً فعاتت واشترت بيتاً جميلاً ومجلات
عديدة ندر عائداً كبيراً وأحضرت خادمة لديها في المنزل يا
بختكم يا ربحانة أنت وصالحوه. اغتنيوا وعشوا وإحنا اللي
تمينا مخلصين لعماتنا حتى بعد ما أخذنا حريتنا ما أخذنا إلا
الفقر.

" ويعزي السبب في انتشار تجارة الأسلحة واشتغال عدد
كبير من التجار بهذا النوع من التجارة إلى وجود طلب عليها
في المناطق النائية ضد سلطة الحكومة داخل إيران. ففي
الثلاثينات كان الكثير من مناطق إيران الفقيرة قد رفعت
السلاح بوجه الحكومة فطلب السلاح. مما حدا بالتجار
الإيرانيين، التوجه إلى كل مكان يمكن أن يحصلوا منه عليه،
والذي لم يكن يتجاوز البنادق والمسدسات وعتادهما، وعليه
فقد جرت اتصالات مع الشاطئ العربي للحصول عليه من
هناك وتهريبه إلى داخل إيران. فانتشرت مراكز بيع الأسلحة

في الكويت، وقطر، والبحرين، وكانت إمارة دبي أحد أهم تلك المراكز. وكانوا يحصلون عليه وهو عبارة عن بذائق قديمة ومستعملة ألمانية الصنع أو بلجيكية من مصادرها في أفريقيا ويتم إدخالها إلى الحجاز ثم إلى دبي ثم فتحت أسواق أخرى مع انتشارها بين أفراد القبائل البدوية في داخل الإمارات مما ألقى الإنجليز خاصة القبائل التي تعيش في المناطق الداخلية للإمارات .

- ٦ -

كان يداعبها الشوق، يهزها فترتعد، يعصرها بضخ يخطخفق له القلب فتتقضم.

ها هي المكومة في شبه غيبوبة هنا حيث العالم يدور حولها والليل أقرب لأن يغمض أحلامها على هذا السرير، أصبحت شبه عاجزة عن تجاوز حالتها الخاصة.

صديقها صالحة التي حين كانتا عند الشاطئ يومًا دخلت البحر وجذبها الأمواج إلى القاع، بحثت عنها وتذكرت قصة الفتاة التي تنظف الأسماك كل يوم، فسرقها الأسماك إلى القاع، غسلوا جوفها وأطعموها اللؤلؤ وأعادوها

إلى الشاطئ، ظلت تتقياً لؤلؤاً وحين تجرح عروقها يسقط
الدم على هيئة لآلئ جميلة كوردات بيضاء، وحين تبكي
كانت اللآلئ تتساقط دموعها أغنت بها أهلها ومدينتها، وحين
أحببت كانت كلمات الحب لؤلؤة كبيرة، وعمتها تلبس عقد
لؤلؤ.

خافت ريحانة عليها وكانت تلبس فستاناً واسعاً فظلت مثل
وردة في الماء، غطست تبحث عنها حين خرجت كانت
صلوحة بجانبها تصرخ: يا ريحانة، يا ريحانة.. ضد حكمتنا
بعمق وتعانفتنا. أحست ريحانة أنها تحضن امرأة بلا ملامح
أنثوية، أمسكت بحمامة لمدة طويلة وحين أفلتتها انظررت
لأعلى كانت تقف لها الأفق وهي تشق السماء بطيرانها انفتح
لها التاريخ حين ذهبت ريحانة إلى بيت المعتمد البريطاني،
ولم تكن إلا عبدة تبحث عن تحررها، رأت كثيراً من العبدات
يذهبن هناك ويلبس تلك الخشبة المدقوقة في فناء البيت
المعتمد البريطاني وعلى أثرها لم تكن صدك ريتهن،
كثيرات لم يستطعن أن يفعلن الكثير بهذه الحرية فعدن إملاء
وعبدات لمالكهن أو لغيره، لكنها كانت تبحث عن شيء آخر،
أن تكون حرة حرة حرة.

صالحة لم تمتلك من النساء الحرائر لا الجمال ولا الذهب
والمال ولا حتى القوة والسيطرة، لكن كانت لديها الرغبة
والطموح والنداهة التي تنادى بها كثيراً وتسعى خلفها.

حين خرجت من بيت المعتمد البريظ اني حامله صدك
حريتها كانت كمن به داء، الكل ينفر منه وكانت تحلم وتحلم.
خرجت بحريتها إلى العالم الخارجي دون قوة، دون حدي
أدنى إحساس بالرعب، لم تدرك أبداً أن هناك من يترصد بها
في الوديان البعيدة التي لا يلبد فيها سوى قطاع الطرق، لم
تنتبه لهذه الطرقات إلا وهي مسروقة ومحمولة إلى السعودية
لتباع هناك هي وكثيرات غيرها أخذن حريتهن المسلوبة كي
تسلب حياتهن كلها.

ضاقت الأرض البراح قبل أن تراها وانخلقت مسامها قبل
أن تتنفس بعمق هواء لم تستطعته أبداً.

بأحد أماكن البيع بيعت صلوحة لأحد د بيوتات الملك
الكبيرة، هناك وجدت إحدى المتحررات من أسر عبودية
الخليج أمة للملك، ومن ثم تحررت مع أول مولود ذكر لها،
أخبرتها بأن عمها أخت أبيها هي كذلك إحدى الإماء - م ١

ملكيت يمينه - وأنها حررت مع أول مولود ذكر لها، ذهب ت
إليها فاشتريتها وأعتقتها.

كانت صالحة تبحث عن حريتها لتظل عبدة لمعروف
العمة وتظل تسكن بمفهوم العبد لكن بإحساس الحرية الذي
سكن داخلها واستقر. لقد اعتقت مرتين مرة بالمنح، ومرة
بالقراء... ومع ذلك ظلت تخاف أن تسير وحيدة في أماكن
غير مأهولة لأنها سوداء، ويمكن أن تسرق مرة أخرى وتباع
ولا تعرف حينئذ أين سيسوقها القدر، لذا كان أمانها أن تمتلك
حريتها قرب عمتها.

أما ربحانة فكان رد فعلها تجاه إحساسها بالماضي في في
تاريخها معاكماً لما تفعله، تشعر بأنها مثار سخرية. شحور
خاص بالتمرد والعودة تكثف بينها وبين نفسها. لم تكن تنظر
إلى المستقبل، ما يفتح أمامها هو الماضي.. كل ما هو ماض
يتجلى ويتضح وتستمع بذكره، الماضي المرتبط بالمكان.
لهذا أرادت العودة لأن الحاضر في حضن الماضي، أما
الآتي فلم تضعه في حساباتها إلا من خلال ذكرياتها وأذ
سيأتي من خلال الاستقرار والعودة والحب الذي يجعل
للاستمرارية إمكانية ما. ربما لهذا كله، كان الحسم في العودة

انتصاراً على كل تعقيدات حياتها. إذن العودة إلى العبودية.. هزمت تماماً، ففي القاهرة كانت تحلم بالعودة، أما حين عادت فما الذي تحلم به...؟ جذورها أصبحت جذوراً مقطوعة مما جعلها، وبعد حريتها، إنساناً عاماً. لم يتفهم أهلها وسكان منطقتها حتى أفضل صديقاتها حالتها بل جعلوه لمار سخرية.

في أحد الأيام التقت ريحانة بصالحة بعد فترة طويلة من الغياب، كانت صلوحة صديقتها التي طارحتها الغرام أصحت أن الأيام تعود بها إلى سعادتها وطموحها، هاهي تحقّق بعض طموحها وتستطيع من خلاله أن تعيش حريتها والقدرة قد فتح لها ذراعيه بل أنعم عليها بالمال والزواج والمكان والثروة لكنها مع ذلك لم تتحرر من الداخل، ولم يتدبر المجتمع برغم إلغاء قانون العبودية فإن النظام ظل على الأوراق، أما في المجتمع ذاته فما زالت القيم كما هي لم تتغير، وظلت في نظرهم كما هي عبدة وإن امتلكت حريتها، وإن اشترت وجودها وأسست له، لكنها لم تعرف كيف تتحقق من خلال ذلك ولم يساعدها المجتمع على التحقّق، كذلك صالحة لم تتعلم كيف تعيش لا تحلم فقط أن تعيش بسلام ولو

حلمت بذلك لتترك لها مساحة واسعة، لكنها تريد أن تتقمص
أدوار آخرين وتصعد السلم الاجتماعي إلى آخره. طموحه
أكبر بكثير مما حققته وإن كان ما حققته أيضاً كثيراً.

لم تكن تبالغ في ذلك، لكن مع انشغالاتها الكثيرة عادت
صلوحة بما جمعه من تجارها التي نجحت بفضل علاقتها
بعمتها، أخت أبيها، أمة الملك، أم الأمير. وسفرها معه
ودخولها جميع الدول دون تقشيش حقيبتها، فكانت "تأجرة
شنطة" مثلما تباع الذهب والملابس تباع الخمر والمخدرات
والأسلحة الخفيفة أيضاً. اغتنت كثيراً، فعادت، اشترت في
ومحلات عديدة نثر عليها عائداً كبيراً، أحضرت خادمة لديها
في المنزل، وكانت تذهب كل عام لزيارة عمته وللمرة
والعودة بعد ذلك. وحين تسافر تترك خادماتها عند صديقتها
التي ترددت الشائعات عن علاقتهما القاذرة والتي كانت
موضع شبهة بل كانت مبرر عودتها الثانية.

حين عادت من عمرتها ووجدت خادماتها حاملاً من سائق
صديقها الذي هرب أبقتها حتى وضعت. لم تكد في
المستشفى بل في البيت وأنجبت طفلة صغيرة أخذتها صلوحة
وأصرت على عودة الخادمة لبلدها وحدها، وهي التي لديها

زوج وأولاد في بلدها، لا تستطيع أن تعود بطفلة دون أب معها. حاولت الخادمة أن تستبقها صد لوحة معها لترد بي طفلتها وتكون بجانبها لكن صالحة هددتها بأن تشكيها بالزنا فتجلد وتسجن قبل أن يتم تسفيرها.

في المطار ألغت فيزتها وختمت على جواز سفرها بعد العودة مرة أخرى، حتى لا تعود لأي منزل آخر وتزعجها، فتربت تلك الطفلة في كنفها.

نحن السادة

- ١ -

بدأ حبيب يشارك زوجته زهوة الحياة واعتبرها نفسيهما
الملاك الجدد للحياة.

- انقلبَت الدنيا وصرنا نحن السادة

هكذا تعاملنا مع العالم وكما شاركها هذه الزهوة شد أركانها
أيضاً المخدرات وبدلاً من أن تخرج من حالاتها اذ دفنت
داخلها أكثر، خاصة مع مشاركة أولادها لمزاجي الحياة
الغامضة التي أخذت تنقلب عليهم يمينا ويساراً.

جلبت أسرة للخدمة مكونة من امرأة وأخيها وابنتها. الأم
والابنة للعمل في المنزل والأخ كسائق لهم. ومع اختلاط القيم
ولخبط الحياة ظلت هذه العائلة في غرفتها في الطابق
الأخير.. ومع إيمان حبيب الحبوب المخدرة وأنواعاً أخرى
كثيرة، اعتمد كثيراً على رام السائق في تقضية مصالحة
اليومية وشراء الأغراض ومتابعة مسائلي التاكسي
ومراجعتها ومحاسبتها كل يوم، مما جعله يخفي بعض
الأموال ويتاجر بها في أشياء أخرى عن طريق بعض الخدم

الموجودين في المدينة. اشترى دكاناً في بلده وظل كل فترة يبحث بمواد غذائية من هذه النقود تملأ دكانه هناك وجعل ابن أخته وشقيق الابنة كليانة مسؤولاً عن الدكان.

خافت الأم على كليانة من محراك، لم تخف من ناصر لأنه هادئ الطبع قليل الكلام والشراسة، لكن محراك الشرس ذا المشكلات العديدة، خافت منه لذا حاولت أن تقربه لأم ن خالها كي يكون حماية لها ضدهم، لكن هذا الاقتراب أشد حل بصيص الرغبة التي كانت مزيجاً من حب مختلط بين كليانة ورام، مزيجاً من حب الابنة لخالها، ومن الحماية من رجل قوي وأيضاً جميل وصغير إضافة لامتلاكه الأم وال الذي أسس بها نفسه كتاجر عند عودته لبلده، كان رام لا يسكن مع العائلة في القصر الكبير لكنه يجلس في غرفة صغيرة بحمام مستقل في حوش المنزل.

وكانت كليانة تذهب إليه لتتحدث معه وتتسلى حين تتشغل أمها مع ريحانة وأطفالها خاصة أنها لا تخدم محراك لابل تجعل أمها هي التي تتعامل معه.

ذات مرة ذهبت إلى خالها، كان يغتسل في الحمام. ظلت تنظف له الغرفة فوجدت بعض المجلات الجنسية التي أربكتها وازدادت ربكتها مع خروجه من الحمام عارياً. لم يلحظ وجودها لكنه أيضاً ارتبك خاصة وهي تترك الغرفة مسرعة تاركة مجلاته الجنسية على السرير.

لم تأت له بعد ذلك لفترة، وكان يتحاشى أماكنها لكنها في تلك الليلة بعد أن نامت أمها لم تجد نفسها إلا وهي مخدرة تفتح باب غرفته وتتدس بجانبه على السرير كما تفعل كل مرة لكن بإحساس آخر منها ومنه هذه المرة.

أحس محراك بتلك العلاقة السرية بين كليانة ورام، وبين الابنة وخالها، حاول أن يحول الدفة ويعتدي عليها لكن الأم دافعت بضراوة ضد ذلك، وحين علمت بعلاقة الابنة بأخيها كان ذلك مناسباً لأن تدافع عنهم ضد شراسة مدرك وريحانة واستسلمت لذلك الوضع مع ظهور بواذر الحمل على كليانة.

تركت كليانة ورام المنطقة وذهبا إلى بلادهما لم يعودا لمدينتهما لكنهما ذهبا إلى منطقة أخرى تزوجا فيها وعادا إلى أسرتهما كزوجين يحملان طفلهما الأول اشتريا منزلاً كبيراً

ملأه بالأجهزة الكهربائية والأثاث الفخم وفتح باب دكانه
وجلست كليانة كسيدة منزل تُرعى أطفالها.

تحت وطأة الواقع والقوة المسيطرة الآتية من المال
اضطرت العائلة إلى أن تغض النظر عن مفهوم العلاقة بين
الخال والابنة واعتبارهما زوجاً وزوجة لديهما القدرة المالية
والمحل الذي يعمل معه فيه أخ الزوجة وسيارة للشحن عمل
عليها أخ له ومواد غذائية لدكانه ويمكنه أن يبيعها بقيمة أقل
لدكان والدته وأشقاءه لتحسين أحوالهما المادية هم أيضاً.

وظلت والدّة كليانة في منزل ريحانة بعد كل تلك المعاناة
بل وأحضرت أخاها الآخر ليعمل مع حبيب ب دلاً من رام،
وظلت هي تعمل لوحدها كخادمة في المنزل.

- ٣ -

انشغل حبيب بحالاته وانشغلت ريحانة في تقليد ملابس
عمتها وتسريحات شعرها وتقليدها في الحديث، المشي،
والمكياج، وكلما أخفقت عادت لشربها وإدمانها.

نظر محراك إلى جلسمتها في غرفة المعيشة كانت تقلد
تسريحة عمّتها وتلبس قميص نوم يشبه تماماً ثوب عمّتها

ذاته الذي لبسه ذات يوم، أعاد القميص إليه إحساسًا غامضًا
خرج من ذاكرة بعيدة حين خرجت ريحانة في اليوم التالي
إلى السوق، دخل محراك غرفة نومها فتح خزانته وظل
يقلب ثيابها ويشمها ثم فتح الدرج الأخير في الخزانة أخرج
ملابسها الداخلية ولمسها بيديه أخرج قميص ذاته
ولبسه ثم فتح دولابها، وأخرج ثوب عمته أخذ يشمه ويضمه
ثم خلع قميص النوم ولبسه ووضع وشاحًا على رأسه ونظر
في المرأة مليًا. اتجه إلى المرأة وضع كمية من البودرة على
وجهه وأحمر الشفاه على فمه ووضع العطر ثم جلس ينظر
إلى وجهه في المرأة.

دخلت ريحانة عليه الغرفة نظرت إليه مندهشة، ثم قالت:

- عادتُك والا بتشتريها. اللي فيه داء..

غير ملابسها وأشاح بقميص نومها على السرير وهو

يتمتم:

- وانتو شو أصلاً....؟

أسرعت ريحانة وأخذت ذلك الثوب وأعدت ترتيبه

وتعليقه في دولابها بهدوء شديد.

كانت سرية العلاقة العائلية بما فيها من تعارضات وانشغافات لم تدخل ضمن تحديد حياة محراك.

خرج من الغرفة ووجهه مليء بالمكياج وأحمر الشفاه اتجه نحو غرفته، كان صديقه إسحاق قد حضر لتوه، اندهش إسحاق حين رآه هكذا، لكنه هو أيضاً شخص غير سوي له العديد من الإخوة المدمنين والده "بلوشي" الأصل وكذلك أمه، لا يتكلمون العربية إلا خارج المنزل، والدته دلالة تدخل البيوت الكبيرة حاملة صرة من الثياب والذهب وفي يدها إسحاق الذي يرى النسوة وهن يتضاحكن ويتغامزن، يراهن بملابس نومهن وبلا براقع أو أوشحة. يرى شحرحهن ووجوههن وتخرج من فتحات الثياب أنداؤهن مكشوفة بلا حرج في نفس المنزل الذي نشأ فيه محراك، ومن قبل ريحانة.

إسحاق ابن علي أكبر.. بائع كباب، وقمائد أو هكذا تسمى المرأة المفضلة داخل البيوت التي تباع بعض قطع الملابس والأقمشة وتأخذ الذهب لترهنه عند البائعين لتأخذ عمولتها، أو توصيها النسوة بشراء بعض الأغراض من الأسواق وتأتيهن بها، فهي بجانب ذلك تتقّل لهن أخبر

البيوتات الأخرى ومن فيها وماذا كن يلبس وفيه لا يكلمن وعلاقتهن بأزواجهن، وغيرها من الحكايات الصغيرة التي ينشغلن بها وتصبح مثار حديث، خاصة وهن لا يخرجن إلا لماماً، وكانت الدلالة والماشطة هما أهم شخصيتين في تلك المنازل، إذا جاءتا رحبن بهما وإذا ذهبتا اشترين سكوتهما.

سمي أبوه بعد ذلك بالصفار حين ترك الكباب واشد ترى محلاً لتبييض النحاس وعندما كبر ظل يداوم على فتح المحل كل جمعة بعد الصلاة، يجتمع معه أصدقاء له ثم يبدأ مباشرة بالعمل. لم يكن يستطيع العمل كثيراً، لكنه كان يقوم بعمل غطاء لبراد شاي وربما اثنين فقط ثم يقفل الدكان إلى يوم الجمعة التالية ويعود إلى بيته. لا يقوم بذلك لبيعه فهو يعلم أن لا أحد سيحتاج إلى ذلك الآن، لكن يده يناديها النحاس.

تجلس قموش كل يوم جمعة على مدح بيته لا تنتظره وحين يمر الصغار ينادونها:

- قمووش

ترد عليهم:

- واش تبغون، بلكنة تكسر فيه لا اللهجة العربية فيضاحكون عليها، وهي تردد بنفس الصوت وكأنه صدى

لأصواتهم يرد إليهم وها هي لا حيلة لها غير هذا الصدوت الآن.

نظر محراك إلى إسحاق بغضب ودخل غرفة له، تبعه إسحاق مندهشاً لكنه لم يستطع أن يتساءل، كل ما قاله: اليوم فيه جمعة عند ربيعنا إلماس.

لم يتكلم محراك، لكنه استلقى على الفراش شابكاً كلتا يديه وراء رأسه ناظراً إلى سقف الغرفة الذي انفتح أمامه مثل بوابة الحصن، وخرجت له عمته، أمسكت بيده ودخلت السقف، انطلق السقف مرة أخرى. حين انتبه نظر كان راشد منشغلاً بوضع شريط في المسجل الموضوع أمام المראה ووجهه في المرأة مقابلاً لوجه محراك وهو يجلس على السرير نظر إلى تفاصيل وجهه بياضه هو أيضاً لم يكن عبداً، أمه ريحانة صفراء قمحية ليست جميلة لكنها ذكية.

هو ورث صفارها وعنف تعابير وجهها وأيضاً ذكاءها، أما نصور فقد ورث بياض أبيه وهذوؤه وصدمته واتزان جسمه، أما محراك فكان أشبه بخيال مائة وضع في حقول الغام، من يقرب منه ينفجر معه إلا الطيور والغربان الذي تتفره وتتألف معه بالرغم من هلعها.

الطيور والغربان التي مثل إسحاق، أما عمته فالحويذة التي تأتي له في هيئة ملاك أو شيطان لتقرعه من القش وتنفخ فيه حتى يطير، ويصبح هواء.

- ٤ -

كانت عمته تحبه، تشتري له كل ما يريده وأيضاً تعاقبه وهو لا يرى غيرها، لا يرى ابنتها التي تكبره بسنوات ويمكنها أن تلعب معه، لكنه يفضل أن يظل بجانب عمته ككلب مدلل وحين تعاقبه يقسم بأن يعاقب ابنتها وأن يضربها أو يجذب شعرها. لم يفعل كل ذلك لكنه يقسم فقط كعقاب لعمته.

حين وصل نصور كل دلع العائلة وجه لناصر الجميل الصغير الهادئ الذي دخل إلى العائلة وهم بحاجة إلى شيء جديد. ظل كل من العائلة يهتم بنصور يصنع الأكل ويحمله إن صرخ أو بكى ويعفون محراً إن أقد رب من وأزعجه ويهشون عن وجهه الذباب.

تدليل محراك مختلف تماماً عن تدليل نصور، لهذا حين كبرا معاً لم يتفقاً أبداً كان كل منهما في طريق مختلف. كان نصور يرى محراكاً كشيطان ومحراك يرى نصوراً وكأذ

ضمير متضخم وكان يقول له: أنت لم تعيش الحياة من أولها. أنت أتيت في النعمة، نعمة وجودنا أحراراً تتدرك دون أن يكون داخلك العبد الذي في داخلنا أنت مثل أبيك، وحدك مثل أبيك أما أنا فمثل ربحا.... عمي

نظر ناصر إلى مكياج محراك وقال له: - واضح
افتعل محراك من تلك المناقشة الحادة مادة للعراك، بداية
بالأسنة، ثم بالوسائل، ثم بالأيدي لكن ناصراً لم يكن بالقوة
التي يمتلكها محراك، هو يعلم أن الشر هو محراك لذلك كان
يتحاشى كثيراً الوصول إلى عراك حقيقي بينهما، ولهذا حين
حاول إسحاق أن يترك المسجل ويفضل العراك تخطى ص
نصور من يد محراك وخرج مغلقاً الباب وراءه.
- قوم نطلع، قال إسحاق لمحراك، اغتسل محراك وغير
ملابسه وخرجاً معاً.

كانت هناك مسافة حقيقية بين جسم محراك في تفكيره،
وقدرته على ترجمة هذا التفكير.
الزمن أصبح لديه سهماً نافذاً وليس لحظات متقطعة أو
خبطاً يلفه كدائرة حول إصبعه ثم يفرده مرة أخرى مثلاً
تقل ربحانة.

الحياة تقتض المتعة، إذن ليتمتع عن طريق تدمير نفسه من خلال الخارج، وبشكل قاسٍ، لدرجة لم تعد لديه معه ذات خاصة أو عامة، كل محاولات إثبات الذات كمؤشر قوي تقتض وجود هدف. ثم ماذا بعد ذلك الإثبات ه ذا م لا يعرفه. فوجوده عائم، خفيف دوره ليس له ثقل عام، لك نهم جميعاً منذ طفولته كانوا يفتحون له مساحة للإرضاء س واء رغب في شيء أو لعدم تجريحهم في حبهم. م د ر اك ف تح مساحة كبيرة للإرضاء من خلال الاعتراض ال دائم مث ل ربحانة تماماً، تعترض على أشياء كثيرة، وترضى بالقهر في مقابل الحب. لكنه وبعد هذه السنوات لم يجد سوى ذات ه وقبض الريح، لا شيء في يده، تجربته مشروطة بأسس نجاحها داخله. وقدرته على السخرية تجعله مسيطراً بالقوة، أما ناصر فمهيأ للإنساني بشكل مفتوح ولهذا ربما كان فريسة لأنه يمارس على نفسه الصمت غصباً عنه.

بذرة عائلية محبة في أرض متحجرة تملك بذرة مدمرة بهاجس تكوينها، بذرة لم يحش تكوينها، لكنه يرى واقعها مباشرة. لذلك يثور على هذا الوضع بتدمير ذاته أولاً.

يلفونني بالعلم أنا وابنة عمي ثم أترك الوطن. تلبس هـ ي
علم بلادها فيموت والدها في السجن داخل الوطن، وألبس
علم مصر فأترك الوطن وأذهب إليه ل.. كانت النداهة
تتاديني. يشد أخي يدي من بين الجموع لأستقر في سيارة
مرفوعة على الأكثاف.. ينقذني أخي، ويموت في سيارة على
طريق يؤدي إلى الوطن. وتسحبني يد العلم إلى مصر التي
التف بعلمها وتبدأ الهزيمة، أجد الشهداء تلتف أجسادهم بذات
العلم، علم مصر الذي لفوني به من قبل. كانت هزيمة
صغيرة بحجمي وكانت هزيمة مصر كبيرة بحجم شهادتها.
شرف الوطن في الدم المراق حوله وأعود إلى المكان على
سبيل الحنين فقط.

نظر إليّ هائف وهو يسألني عن مفهوم الوطن.. كانت
أمي تنام وبجانبها راديو صغير وعبد الحليم يغني " نبتة دي
منين الحكاية " .. ضحكت وقلت له: - عبد الحليم مات من
زمان.

ثم أردفت: - أريد أن أكتب سيرة عبدة من خلال العالم
القديم منذ الستينات إلى الآن، أكتب عن العالم الهامشي الذي

ينمحي من الذاكرة رغم أن العبودية ألغيت. لكن هناك حالات تصل إلى أقصى صراع وجودي، ربحاً مثلاً لم تكن تنتظر إلى المستقبل كحلم، ما ينفّح أمامها هو الماضي، كل ما هو ماض يتجلى ويتضح وتستمع بذكره، الماضي المربط بالمكان لهذا أرادت العودة لأن الحاضر في حضن ماضيه، أما القادم فلم تعرفه إلا من خلال ذكرياتها، وسيأتي من خلال الاستقرار والعودة والحب الذي سيجعل للاستمرار إمكاناته، من هنا كان الحسم في العودة انتصاراً لها على كل تعقيدات حياتها، العودة إلى العبودية هذا التوافق بينها وبين الرجوع.

قال لي: - مهم أن نكتب عن خصوصية حالات تصد إلى أقصى صراع وجودي لها وكل حالات هذا الصراع تؤكد وجودها وحركة الانفجار في الأعماق.

فقلت له: - سأكتب عن الحرية التي نحلم بها وهي قيد

آخر.

- المهم الهوية، كل الكائنات في السيرة لها نفس التأثير.

- لا.. أنا أريد أن أكتب عن ازدواجية الشخصية.

- أنت ترصدين عوالم شبيهة بعوالم البطلة، يمكنك أن

ترصدي أيضاً التغيرات الاجتماعية والسياسية الحادثة ومدى

تُغير الطبقات زحزحة القيم بين السادة والعبيد المهمشين، بين المواطنين والوافدين المقيمين والوقوف عند صعوبة التعايش بينهم.

- هذا موضوع كبير أنا أريد أن أكتب عن الصراع مع المحو والمواجهة القدرية مع الذات، هذا ليس تحولاً طبقيّاً إنما تحولات ممسوخة ومفصولة عن طبقتها أساساً. من ينجح في هذا النموذج ينجح من خلال إعادة بناء نفسه، أما الباقون فيعانون من عدم الانسجام مع الذات، نواتهم.

- من الأفضل أن تكتبي البطل والبطلانة كلسا إن حال البشر، قيمة، زمن..

- أريد متأهة بلا نهاية لأن فوضوية الكون تجعل من البحث الوصول إلى شيء. الوجود مخيف ومضطرب المأل عنصر مفسد لأيدولوجية الاختيار.

- لا بد أن يكون هذا دون كتابة تاريخ مهزوم أو ذاكرة معادة.

- ماذا أفعل إذن، توازن...؟

- سأكتب عن التحول من العبودية إلى الحرية لكنها للأسف حرية منقوصة، ظل العبودية كامن في الأعماق،

تتشوه فيها أفكار فعالة. الطموح قوى وفرصة بناء الذات الجديدة والقوية مطروحة، لكن الهدف كان هو الاعتدال والراف الاجتماعي فقط فتقلب الحياة مثل جورب.

- نظام متأكل أساساً ومع ذلك يحاول أن يظل لأطول فترة قبل انهياره. منجز السيرة لا يبدو مشجعاً هكذا لا بد من حتمية الصراع والتغيير والتي تفرض نفسها. في القرن الماضي كان الاستعمار وتم التحرر منه، الآن تقادم العلم وتراجعت الأيديولوجيا، على كل يمكنك أن تقسم السيرة إلى قسمين سياسة التشويه وبناء الشخصيات.

- لقد تبدلت المفاهيم وأصبحت الفردية هي التي نعلم وليست الجماعة، قرأت عن العولمة ما يعرفها بأنها القوة الكائن لاتجاهه والمجتمع لانتظامه والاقتصاد لنظامه، بل هي فقدان الشأن السياسي لصدارته وأولويته من جراء التدبكات الإلكترونية التي جعلت علاقة البشر تتغير.

- زي ما قلت حتمية التغيير تفرض نفسها، في القرن الماضي كان التوسع الاستعماري والتحرر منه. الآن تقادم العلم وتراجع الأيديولوجيا، محراك مثلاً زي ما يتحكملي عنه نسبة كبيرة من تعامله مع الآخر في الخارج أو كما كانت

صورته عبارة عن أداة يستخدمها ليستهلكها والشيء الذي يوصله بها الأداة، يوماً كانت السكين ليخلص أخاه، ويوماً المرأة وانعكاس صورته فيها كأنثى بالرغم من القسوة الموجهة تجاه الآخر في الخارج وتجاه استهلاك جسده في نظام آخر، تعلقه بأن يكون امرأة في المرأة ربما كان تاريخه يقدم إجابة سببت له نوعاً من التوجه الداخلي ضد فرصته في الحياة بشكل طبيعي، لم تكن لديه أدوات للرد على الخارج هو في الداخل ضعيف، مغترب عن وعيه بذاته، يمسك بيد عمته وهي تسيّره معها، الآن هو وحيد ومن ثم لجأ إلى العالم طبقاً لشخصيته بالجوء إلى حماية أو انتهاك ما أو استهلاك النظام القديم.

- انتهازيته لم تكن موجودة بقصد وجودها لكنها بقصد نقل الماضي عليه، آليتها زمن يحركها والحصول على فكرة وجود نفسه من جديد غير متحكم فيه من الخارج. منطقة معروفة وسهلة بالنسبة له تصبح أكبر منطقة صالحة للهروب منها، وأصبح رد الفعل لديه لا يختلف عما حدث من قبل، أي أنه رد فعل لفعل سابق. فعله كمرحلة لا بد من المرور بها لعمل اتزان ما بين الفعل. ورد الفعل، الجريمة لديه فكرة

مبكرة بها عنصر كامن داخل شخصيته لا يسد تخدمها لكن ه
يحاول مسخ هذه الشخصية في الخنوثة.
أما نصور فلم تكتمل شخصيته ولا مشروع حياته، لأن ه
يعيش الفكرة كطاقة داخلية أكثر منها كطاقة خارجية ومن ثم
يستغف طاقتة الداخلية، والتي تقوم على عمل خارجي مستمر
يستغفها في جزء غير مكتمل من العمل، ومن ثم يك ون
الجهد المستغف داخلياً أقوى بكثير من الجهد الخارجي بـ لا
حلقة وصل، ربما هو جهل بالحياة في الخارج. حياته ه
مأسورة بزمان أعاشه الآخرون فيه. رغبة الحياة أكثر من
الحياة ذاتها هكذا كانوا يعيشون وكأن الحياة لحظة.

مراكب زعفران وعود

- ١ -

عند إلماس لاحظ محراك عدة طبّ ول موضع وعة على جانب الجدار، كان إلماس يتكلم في الهاتف بصوت عالٍ وضحكاته منفلاته من فمه، تتردد في أرجاء الغرفة كأنها طبول تدق، كان يتحدث مع امرأة ما، لكنه يتحدّث معها بمحبة عارمة هل هي أمه أم صديقته أم ماذا...؟ كان يدخن وأمامه كؤوس ممثلة بالخمير، دخل إسحاق ثم أشار بالسلام وجلس على الأرض أمام الطاولة، وبدأ في صب كأس له وأخرج سيجارة أشعلها، وبدأ يحسّي الخمير ويتقاسم ضحكاته مع إلماس وقف محراك بعناد أمام الباب نظر إلى إلماس، للطبول، للخمير وجال بنظره داخل الغرفة، حتى شده إسحاق من يديه فجلس بجانبه صب له كأسا فشربها مرة واحدة ثم ثانية ثم الثالثة، لم يكن في حالة جيدة كي يدخل معها حالة الضحك والبهجة أشار إسحاق لمحراك على الطبّول الذي بجانب الجدار وقال: هذه طبول الفرقة، الطبل الكبير اسمه الرحمانى الأكبر والطبل الصغير هذا اسمه الكاسر. أمسكه

واخذ يدق عليه وهو يغني ثم قفز إلى " منحاز " القهوة يدق فيه أيضاً وقال: وهذا الهاون وهو يستخدم بدلاً من الصاجات مع التصفيق. بدأ يغني ويهتز بكامل جسده وهو يميل م يلاً خليجاً تارة على إلماس الذي يلامس بيده بعض جسده كلم ا اقرب منه، وتارة على محراك الذي ظ ل يبتسم ويهدد المشهد باستمّاع غريب وابتنامة بدأت تظهر على وجهه. سأله إسحاق: - شو يا محراك ما تعرف تتشمت وتزفن...؟ " ترقص بشكل خليع وتغني " فظل محراك مبتسماً، حين أقفل إلماس الهاتف سلم على إسحاق ومحراك وبدأ حواره مع إسحاق:

- وينك ما حد شافك من أيام...؟ خموس تسأل عليك وقالت لها بتيجي ويايه اليوم، عندها عرس وتبخينا وياها.
- حاضرين. رد إسحاق
- قال إلماس بعد أن نظر لإسحاق بطرف عينه:
- هات محراك وياك
- حاضرين. رد مبتسماً ومنتظراً من محراك أن يوافق أو يرفض.

لم يعقب محراك كان ما زال مندهشاً من إلماس هذا العبد الطويل العريض الذي ينم شكله عن احترام تام لكنه في لحظة ضحكته يتحول إلى شخص آخر شديد خص لا يعرف بماذا تصفه.

- ٢ -

كانت خميسة صاحبة الفرقة، فرقة المعلاية، لديها أكثر من امرأة ترقص وتغني والأخريات يشلن عليها، أي يتعاقبن الغناء والقصائد المغناة وكان لديها الكثير من الذكور أيضاً يرقصون أحياناً مثل النساء أو فقط به زون أكثر. افهم في لحظات الانتشاء، والأكثر هم من يدقون الطبل ويصدفون ويرددون الغناء.

خموس هذه، سوداء داكنة السواد سمينة بحديث يعوقها وزنها عن الحركة، وهي امرأة تحدث الخامسة والخمسين. حركتها بطيئة تجلس، على يمينها صف من فرقته أعطى شمالها صف آخر وأمامها اثنتان في الوسط ترقصان به زردافهما، وفي لحظات النشوة تقومان بحركات خليعة. وفي لحظات أخرى يقلد أحد أفراد فرقتهما حركات النساء به ز

أردافهن ومؤخراتهن، مما دفع حاكم المنطقة في فترة ما إلى منع نشاط هذه الفرق في منطقة هـ، لكن بعد ضلوع المذابط الأخرى كانت لا تمنعه، مما جعل خموس وغيره لا يتجهن إلى هناك لإقامة حفلات الزواج أو الاحتفالات الخاصة أو بعض الحفلات العامة وإن كان ذلك في القليل النادر.

كانت إحدى المغنيات تتشد في دخول محراك وإسحاق:

" والله لابني قصر للوالدة خموس

والله لابني قصر غم على الحسود

والله لاشحن مراكب زعفران وعود "

وإلماس بجانبها يدق بأقصى طاقته على طبلة كبيرة

مربوطة في عنقه وبجانبه أحدهم يحمل مزماراً ويد نفخ فيه

فترد خموس بصوت أكثر خشونة ودرية:

" أول شريت الهوى واليوم بابيعه

شروات زين المعاني خان بربيعه "

تذكر حين كان جده سعيد يحكي أمامه عن الفرق العمانية،

فالمعلاية من أصل عماني انتشرت في الإمارات القدية المالية..

فرق من المواطنين وبها عمانيون أيضاً. أغلبهم من الرجال

الذين يلبسون ملابس نسائية وعادة ما تكون أصولهم غربية،

كل فرقة لها مسئول أو مسئولة تسمى " الماما " أو " البابا " ،
أما أغانيهم فهي معروفة لكل الفرق، لكن بعضها يبدع أثناء
الغناء على نفس الألحان المعروفة أيضاً..

يقومون بأداء المعلاية في الزار، والأعراس، وأوقات دق
الجب " القمح " في المواسم، أو عند عودة الصيادين كاحتفال
بهم، وفي مناسبات الختان، والنذر، وعودة المسافرين. حكي
له عن احتفالات عودة الخواصين وكيف يسبقون عند
الغشطي بالغناء والفرح والبكاء أيضاً على المفقودين منهم
فكيف يمتزج الفرح بالحزن بالغناء..

وكثيراً ما كان يتم في الغناء المدح أو الهجاء كتحد للفرق
الأخرى.

سميت بالمعلاية نسبة إلى أول فرقة أقامتها أم علاية في
عمان، ثم بدأت تنتشر على اسم الأم الأولى لها.
لا تقل الفرقة عن ثلاثين شخصاً أما رجلاً أو نساً أو
فرقاً مختلطة تضم الشواذ وسيئي السمعة.

وكانت أم خماس في الزمن القديم، كما كان قد حكي له
جده سعيد، ذات فرقة قوية في دبي، لها نفوذ قوي على بنات
الهوى أو عيال الهوى.. وكان لها قوة كبيرة فإذا هرب أحد

أو شرد من عمومته، ولجأ إليها لا أحد يستطيع أن يرده..
وكانها "بيت دولة" أخرى وهي أيضاً تأمر وتنهاي في الفرق
وعلاقاتهم الشاذة المتشابهة.

أم خماس أشهر صاحبة فرقة معلاية، لكنه يعرف أيضاً
أن بابا علي وماما صالحة مدية وماما خميسة سالم وبابا
سليمان سيف لهم أيضاً فرق قوية ومشهورة في دبي وماما
جرموزه في الشارقة. وإن بن زيتون في عجمان أشهر مغني
في المعلاية حيث كان مبدعاً ويلحن في الوقت نفسه، يدع
كلاماً موزوناً سواء الكلام الشعري أو الخارج أي الذي به
بوح.

ترددت أغنية "أم كلثوم" في أذن محراك:
"الأوله بالغرام والحب شبكوني، بنظرة عين
والثانية بالامثال والصبر أمروني، وأجيبه منين
والثالثة من غير ميعاد راحوا وفاتوني، قولولي فين أقابل
حبيبي"

كان قد سمعها للمرة الأولى حين ذهبت ريحانة إلى أم
عائدة التي تبيع الذرة أمام مدرسة طفلة العائلة والتي تعرفت
عليها في رحلاتها اليومية وانتظرت أم عمته الشمس حالي

خروجها من المدرسة وحديثهما المشترك حول الحياة والأزواج، ومن ثم القاهرة وكيف ستعرفها عليها والحديث الذي كانت تأتيها ببعض سجائر ملفوفة منه، وعندما بدأت ريحانة تأتيها ببعض سجائر ملفوفة منه، وعندما بدأت ريحانة تطلب أكثر منه عرفتها على صنعو المنهوي زوج بسيسة جاراها الذي يسكن البيت ذاته، عزمها عندهم على غداء واتفقتا أن يتقابلا هنا أمام المدرسة ويذهبا معا وذهب محراك في يد ريحانة، دخل الثلاثة شارع التبليط الكائن خلف جامع الأزهر، مالت أم عابدة على رجل يقف على نسيبة شاي استقبلها ببشاشة سألته عن صنعو وعندما أخبرها أنه سيقمهم إلى المنزل عادت إلى ريحانة قائلة:

- ده خليل أخو صنعو بيع الشاي والحشيش.

ضحكت وهي تقول: - نصبة الشاي دي، بيداري وراها الحشيش المزوق في لوح الخشب المرصوصة عليه الكبايات.

نظرت ريحانة وراها إلى حيث النصبة، لكنه لا يلتفت وجهها بسرعة خوفاً وهي تتسائل في ارتباك: - وشو بيشتغل صنعو....؟

في الطريق بدأت أم عابدة التعريف بصنعو:

- صنعو السنهوري ده بياع حلاوة. رجل شهيم وابن بلد،
بيشتغل طول النهار في محل الحلاوة عند الحاج لة جمعة.
والحاج جمعة ده راجل بيعرف ربنا وكان متجوز بنت عمه
بس دلوقتي بقى حاجة ثانية، اتجوز الست زينب.. تعرفي
الحاجة زينب دي ما خلفتش منه ولما مات ورثت المدل
وشقة في أرض الشريف على شمال شارع العشماوي اللى
كان فيه المحل.

لم تتكلم ربحانة وظلت أم عابدة كعادتها لا تتوقف عن
الكلام في طريقهم إلى المنزل:

- أهو صنعو بقى دلوقت بيشتغل عندها في المحل، ومنه
برضه بيوزع كام سيجاره هناك في العتبة أصل التوزيع هنا
بقى صعب قوي. وكان معاه راجل اسمه أبو شهباء.. راجل
بعيون ضيقة كده، كان مطرب في فرقة تليف الموالد
والأفراح، مونولوجست يعني، أصله كان كومبارس في فيلم
لعبد الوهاب ولسه بيحلم ببقى مغني كبير. كان قوموسيونجي
بيوزع البضائع على عجلة ويوزعها قطاعي على المدلات
بالعمولة، وبالليل مونولوجست بس ساب ده كله من يوم ما

اتجوز واشتغل حلواني مع صنعو في المدل بس ل و
تروحيلهم يوم الأحد، يتبقى كل المحلات قافلة، يقوم أبو شهبأ
ده يا ربحانة يقف في الشارع قدام المحل ويغذي بصوت
عالي، تقوم الحاجة زينب تخطط وتتطر وهو ولا كأنه هذا،
ست قوية خالص شغلت المحل هي وانتين من إخوانها بعد
موت جوزها، كان عندها اللهم احفظنا دوالي في رجليه
وبلبس شراب طيب وكان عندها في المصنع، مصنع
الحلويات اللي قدام المحل شبال إنما أيه مرطون. شبال
وبينضف ويحبيب الطلبات والخضار وكل حاجة، جابته من
البرشين، كان رفيع قوي وأبيض قوي وشعره ناعم كمان
بس بيحلقه على الزيرو، عشان النظافة يعني، وكان يوم ما
يشيل شوات السكر والحمص والفول السوداني والسمسم
لزوم المصنع. وكان بلبس جلابيته على اللد، يا اختي ده
لوحده فيلم. كانت بتعمل فيه عمال سودة تضربه على أي
غلطه وتهينه وتقوله أنت مش راجل، كل شوية تديله على
دماغه وتبقى عاوزة تمحيه من على الأرض قدام الحلوانية
ولما نتجي تروح يوصلها لحد شقتها ويدخل معاه أوضه
نومها وتسبيه يقلعها الشراب، أصل لبسه وخلعه صعب قوي،

أهو بقى فكري ده كل يوم يخلعها ويلبسها الله راب وه بي محتاجة له قوي بس برضه مش ساكنه له، اضد حكي بقى، مرة جه لصنعو وهو مكسوف وسأله، قاله: - يا عم صدنعو الحاجة بتخليني أخلعها الشراب وألبسه لها كل يوم ولما آجي أخلعه لها تلم رجلها جامد وتقولى بشويش وبعد كده تقع دتستم فيه وفي اللي خلفوني والنبي قولى ده حرام والا حلال. آل مالاقاش غير صنعو يسأله حلال والا حرام ده قمرى بي وبتاع كوتشينه وحظ، بس الحقيفة مش بتاع خمرة وشد رب وحشيش. هو صحيح بيتاجر فيه بس ما بيلمسهوش.

نظرت ريحانة بحدة إليها فتداركت سريعاً قائلة:

- ما أقصدش ياخوتي والله، ده حدى الحشيش أعشد اب ومش حرام، تعرفي قاله ده يبقى حرام لو أنت سبتها يا بنى خليك راجل، سبع كده ومتخافش.

دخلت أم عايذة وريحانة ومحراك عمارة فى أسفلها مخبز. اشترت أم عايذة بعض الأرغفة. أمام الباب فى الدور الأول كانت تقف امرأة سمينه جداً وبيضاء. سد منها ثقب به خموس لكنها بيضاء، وبدلاً من نقها على الطبل كانت تحمل أرغفة دائرية تضع فيها فولاً نابلاً وأخذ رى أرزاً ولحمًا،

حواجبها مثل خيط رفيع جداً وشعرها مبتل ومفرد وهى
تلبس قميص نوم أسود " لاميّه ". حين كانوا عند باب العمارة
نظرت أم عائدة لأعلى وجدت غسلاً منشوراً في الطابق
الأول عبارة عن ملابس داخلية نسائية ورجالية. زغردت
بصوت عالٍ وطلعت أمامهم هنأت تلك المرأة وباركت لها ثم
اقتربت من ريحانة وهي تقدم لها الرغيفين:

- أصله ندر من أم حسن لما يرجعها جوزها، كانت
واحدة غاوياء متجوزة صاحبه، مبيض النحاس في الحسدين،
واتفقت مع جوزها يطلقها وتتجوزه وتسحب منه كأم ألف
جنه كده، أصله كسيب عنده عقبال أمانك محل كشري في
الجمهورية، وبعدين ترجعه، انشغل بيها وساب أم حسن لحد
ما أولاد الحلال ضبطوا جوزها الأولاني معاها قاموا قالوا له
وكانت خناقة لرب السما الحمد لله طلعوهم من بين إيديه
بسلام والا كان راح فيهم. المهم رجع لأم حسن وأهيه ياختي
متهنية بيه وناشرة غسيلها وغاسلة شعرها، يخليها لاسبعها
أحسن الوحدة وحدانية من غير راجل يلماها، ثم نظرت إلى
ريحانة متسائلة: - هو جوزك فين يا ريحانة.....؟

انْتَفَضَتْ رِيحَانَةٌ وَأَحْسَ محراك بأصابعه تَنْضُ خَطْفِي
يَدَهَا، تَأْوَهُ مِنَ الْأَلَمِ فَانْتَبَهَتْ وَمَسَحَتْ وَجْهَهَا سَ رِيْعًا ثُمَّ
شَهِقَتْ:

- مسافر .

- ٣ -

حِينَ وَصَلَا إِلَى الدَّوْرِ الثَّانِي كَانَ عَلَى الْبَابِ يَافِطَةٌ عَلَيْهَا
اسْمُ صَنَعُو السَّنْهُورِي. فَتَحَتْ فَتَاةٌ فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةِ مَن
عَمَرَهَا الْبَابُ. كَانَتْ جَمِيلَةً وَنَحِيفَةً وَتَرَبَّطَ يَدَاهَا الْيَمْنَى:
- انْقَضُوا.

قَالَتْ أُمُّ عَائِدَةَ لِأَنْهَارٍ وَهِيَ تَهْمُ بِالْدُخُولِ:

- هِيَ إِيْدُكَ الْيَمِينِ النَّهَارِدَةُ.....؟ طَبِّ سَلَامَتِكَ يَا جَمِيلَ.

ابْتَسَمَتْ أَنْهَارٌ وَقَالَتْ:

- اللَّهُ يَسْلَمُكَ.

نَظَرَتْ أُمُّ عَائِدَةَ لِرِيحَانَةٍ وَهِيَ تَقُولُ:

- آهِي كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الْحَالِ دَهْ كَدِهِ. تَرَبَّطَ إِيْدُ مَن إِيْدِيهَا

وَتَخْرُجُ تَنْقُصُ فِي الْفُتَارِ عَشْرَانِ الرَّجَالَةِ تَعَاكُسُهَا وَيَقُولُ وَ

لَهَا سَلَامَتِكَ يَا جَمِيلَ، بَتَّ صَائِعَةً مِنْ يَوْمِهَا.

مرة حببت واد مش معبرها، حطت بين صوابها دب وس
وسلمت عليه قام غزه في ايده ولما صرخ قالت له ما اذنت
أهو بتحس أمال مش حاسس بيّ ليه.....؟ شايقة بنات الأيام
دي يا اختي.

دخلت عليهم بسمية أم أنهار.. زوجة صنعو، وفي يد ديها
حلة محشي وهي تقول مش حتمر عليها المس نادي والنبي
لأجوزها وأخلص منها، دي مطلعة أيم اني. نظر رت إلى
ريحانة وقالت: إزيك يا ست ده احنا زارنا النبي النه ارده،
ونادت:

- يا صنعو تعالى فيه ضيوف عندنا.

أطل صنعو من وراء باب غرفة الضيوف المخلق وعندما
رأى ريحانة قفز مرحباً بها وبابتسامة قال لها: يا أهلاً يا
أهلاً بالعرب....؟

كان منزلهم عبارة عن غرفة وصالة. الغرفة للنوم وأيضاً
للخزين، كانت مهنة صنعو الأساسيّة أنه مخزن جي، أي
يخزن الحشيش ويدّوّر تخزينه به اليوم، ويعتمد على
ناضورجي في أول الشارع فإذا ما حضر الب وليس أو من
يشته به يخبره بسرعة كي يتخلص منه ل. أدخله م غرفة

الضيوف وكان بها مجموعة من الرجال والنساء، كانت
مأدبة لتغطية تجارة الحشيش فهم يأخذون أن يحملوه
ويخرجوا من الباطنية، لذلك يأتون ويحششون ثم يعودون.
سمع محراك لحظتها، حين فتحوا المذراع، أم كلثوم وهي
تخفي:

"الأولة في الخرام.."

كان اللحن والموسيقى في "المعلية" مدحيين عكس
الليوا "التي تعتبر دخيلة والتي أتت من أفريقيا وما زالت
فيها أغاني ذات كلمات أفريقية سواحيلية أتت عن طريق
البوابة العمانية أيضا وانتشرت في كل الخليج والبصرة
واليمن.

أما "الحربية" و"العيلة" فهي عربية يرقص فيها
الرجال ومن الرقصات التي في الخليج أيضا "الهدان" و"
النوبان" و"الارو" وهي رقصة بلوشية و"اللال" و"
الوهابية" و"الرواح" التي اشتهر بها الشحوح في الجبال.

نقّ الطبل بصوته العالي وتحرّكت المجاميع، انتبه محراك
لصوت خموس ووراءها الفرقة كلها.

" خطبناها من القبلة وجينا "

شعاع الشمس يا نور المدينة

خطبناها والمعرس وراها

يجلب حظيها بأيديه اليمينه "

في الزفة، بحث محراك عن إسحاق وعن إلماس لكنهم لا
كانا منشغلين في طقوسهما ورأى محراك إسحاق ينتفض مثل
سمكة وهو يرتعش، لم يفكر للحظة من قبل أنه مخنث. لم
يلاحظ ذلك أبداً لكنه اليوم يراه، يراه فعلاً هكذا هو وإلماس
وكل هذا العالم، عالم الفرقة والعالم السفلي.

سبع ليالي وليلتين وليله

حتى وصلنا دار أبوك بالزينة

من باسمها العرسي ومن سطر اللولو على رأسها

سبع ليالي وليلتين وليله.

حين رجع إلى البيت كانت ريحانة نائمة في غرفة
المعيشة منكوشة الشعر أمامها عدة كؤوس وعلى الأرض

تتألم خادمتها مع أختها الصغيرة أما والده فكأن نائمًا لا في سريرته مطمئنًا، لم ير نصوا ولم يلحظ اختفائه أيضًا ذهب إلى غرفته، أغلق بابها وحاول أن ينام. كان شد كل والدته وهي نائمة يذكره بها حين أخذت لأول مرة إبرة مخدر. حين ذهبوا إلى شقيق صنعوا صاحب نصبة الشاي الذي أخذهم معه إلى مكان جوار سور الأزهر إلى مكان يسمى سبيل أبي الذهب أمام وكالة الخوري، دخلوا خرابة مظلمة به رجل وفتاة شمريت الفتاة يد ريحانة وأمسكتها بقوة بينمها حقنها الرجل بالمخدر في الظلام ثم عادا إلى البيت، حملتهم أم عابدة إلى أول الطريق وأشارت لتاكسي وتركتهم يسيرون باقي الطريق إلى المنزل.

"من كده يمينه، عرس المعرس"

يعل الله يمينه، عرس المعرس

ما خذ نبيه، وعينها نجمة سهيل

ما خذ نبيه، ورأسها يربط الخيل "

أحسّت ريحانة أنها قادرة حتى على القتل، حالة من القوة والشراسة، والإحساس بالذات. جعلها تفعل مشاجرة عنيفة مع عمّتها وبدأت في تحطيم كل شيء ثم نامت منهارّة على

كرسي في غرفتها في السطح كما هي اليوم نائمة كان ذلك
آخر يوم يتذكره محراك قبل سفره من هناك.

- ٥ -

في بيت صنعو، مروج المخدرات، يسمع أم كلثوم، وفي
فرقة خموس يسمع شعراً جميلاً وكلاماً سخيلاً وفي منزله
العائلة يسمع طلال مداح يغني:

" حبك سباني و أنا جسمي نحل

والوصل اللي يودك ما حصل

ما يحق لك يا قمر مني الزعل

توعد وتخلف ويزداد العني

أنا أتمنى أعانق شلحك

والباب مقفول جوا غرفتك

أنادمك ثم أشرب قهوتك

وأقول عش يا سرير ضمنا

المفارقة تسعده تماماً. يرى أمه تصعد إلى غرفتها متهاككة

لا تعي شيئاً. جلس محراك وناصر صامتين لا أحد منهم

يتحدث إلى الآخر لكن بينهما هناك حواراً خاصاً لا ينطقانه.

نصور يعلم أن محراكاً بدأ في الرقص والغناء مع فرقة
خموس ويعلم أنه يرتب لتأسيس فرقة خاصة اتفق على
إنشائها مع إسحاق وأخيه وإلماس وآخر أتى من عمان كان
يطيل شعره إلى كتفيه ويصبغ وجهه ويضع ألواناً على
أظافره الطويلة، يتكلم بميوعة شديدة ورقة كاذبة ويبدو
مستقزاً بطبعه.

ألوان الطيف

- ١ -

همَّ نصُّور بالدخول إلى غرفته ليلاً. وجد إضاءة حمراء
تضيء غرفة محراك وجسدين عاريين متعانقين لرجلين
أحدهما أخوه. لم يلحظ دخول أحد إلى البيت، قد تسلل أحدهم
إذن. ظل منكفئاً على نفسه فترة طويلة. وفي مرة أخرى حين
أحضر محراك معه فتى صغيراً حاول اغتصابه وحين رفض
واستغاث هدهد بمسدس حبيب الذي أخذه من الجيش ولم يعده
بعد استقالته لولا أن تدخلت صالحة وكانت في زيارة ربحانة
وأخذت تهدد وتتوعد بصوت عالٍ وتحلف على محراك أن
يعطيها المسدس ثم أشارت للفتى أن يغادر المنزل سريعاً قبل
أن يستعيد محراك غضبه مرة أخرى قال لها الفتى:

- يا خالتي أنا مب مال جذي، أنا جيت معاه أشد وف
الطبول والمزامير اللي اشتراها للفرقة وبس، ارحميني منه.

نظرت صالحة إلى محراك بغضب وقالت له:

- اترك عيال الناس في حالها، مب كل العيال مثلك أنت
بغيت تكون جذه، لا تطلع عقدك على غيرك، يا أخي خاف

ربك والزم حدودك والا تراه يخبر أهل له ويبقتلونك أذنت
وأهلك، شو تتحصب الدنيا بدون حساب، دور لك على لباسك
وعلى إيلي مثلك.

لم تتكلم ريحانة بل حاولت أن تتثنى على كلام صد لوحه.
رفعت رأسها الثقيل ونظرت إلى الأفق نظرة عميقة وطويلة،
هزت رأسها وهي ترى محراكاً يقدم بخطى هادئة نحوه ا،
جلس بجانبها لكنه تحول إلى وحش غامض، ثم إلى طف ل
صغير ابتسمت له ونظرت بعشق، لم يبق لها غير تلك العين
ذات النظرة العميقة..

كان لابد أن تجري الأمور هكذا وإلا لماذا ظلت تائهة
وهو في المرأة ذاتها يضع ألواناً على وجهه بينما مسدس
والده في الدرج الأخير من الدولاب، تحت ملابس والدته
الداخلية.. وحين مات حبيب بحث عنه نصور طويلاً فلم
يجده، ارتعشت مفاصله وظن أن أحداً قد سرقه إلى أن ظهر
في يد محراك اليوم.

وها هو محراك يدخل غرفه ويغلقها ويظل عصبياً يكسر
كل ما يقع تحت يديه، يأكل ويشرب ويرقص ويعيش من

المساء إلى الصباح حياة لهو ومتع.. في الصباح يتحول إلى شخص عادي، شخص آخر، رجل.

في الفرقة كانت العلاقة بين إسحاق وإلماس وغيرهم علاقة شراسة غير عنيفة لكنها لا تقضي سرها. تكونت بينهم علاقة شبه عائلية، إذن هذه هي عائلته البديلة الآن، عائلة المساء.. يتبادلون فيها الأدوار، وتصبح العلاقات علاقات بها شبه استمتاع جمعي حتى وإن كان ناقصاً. هي علاقات تنشأ أساساً من الشعور بالاحتياج الكامل روحياً، ونفسياً إلى درجة أنهم لا ينظرون إلى العايب أو المعيوب هم جميعاً كذلك والرقص لديهم فعل إثباع، إرواء لرغبة إهدار روحي.

اليوم تصور يراه عارياً تماماً من كل ألوان الطيف كما كانا صغاراً وتحممهما ريحانة في حمام واحد، وهو يعلم الآن أن محراكاً يحاول الاعتداء، لأنه يريد انتهازك العالم من حوله. ناصر ليس حظه أفضل من محراك لكنه يبحث عن حبيب وحيد مثله، عمن يتعامل معه به دواء ودون صد خب، وأن يكونا في الحياة شركة متساوية الحقوق والواجبات. لكنه يعلم أن المرأة لا تمثل له الكثير. كان يحب ابنة صلوحة، قال له محراك:

- طبعًا لازم تحبها، خاصة أن أمها كتبت لها الكثير من أموالها.

لكنه كان يراها كما يرى عالمه الساخط والمشوه وكان يبحث عن كينونة من خلال الدين. حين طلب الزواج منها وتزوجها بعد وفاة صالحة ترك المنزل وذهب إلى بيتها، كانت لا تزال صغيرة لكنه تزوجها وكان يرفض أن تتحرك من بيتها، رفض أن تتعلم، أن تزور أحدًا، أن تفتح أي شباك، أن تذهب إلى أي مكان دونه، رفض أيضًا أن تزور أهل دونه خاصة إذا كان محراك هناك وكانت هي تبحث فقط عن رجل يضمها بعد أن علمت بحقيقتها. كلاهما مشوه ومشروخ، يحاولان فقط أن يبدآن من نقطة مختلفة ويسيران بخط واحد على أن تتحجب.

وكان كلما رأى رجلاً ينظر إليه كان يدق قلبه ارتباكًا. لا يتحدث كثيرًا ويلزم المسجد أو البيت. خصوصًا بعد موت حبيب والذي كان يجد فيه ملاذًا من إرث تلك الأسرة الخائب.

قال له محراك:

- نفس أحاسيسنا على الدوام، أنت تهتم بصدرة تحبها لي، تحب هذا المعنى الخاص بالرجولة والذي يمكنني أن أقدمه لك لكنني لا أحبه. أنا حين أنهض كأنتي أخرج من قبر، أضحك كأنتي طائر لكنك لا تصل إلى ما أفكر فيه، أنت تأخذ الخارج، يمكنني أن أتهيا لك خارجيًا.. وكان يقوم بأداء كل مشهد وكأنه على خشبة مسرح، يرفرف بيديه كأنها جناح ثم يقف رزيناً وعلى ملامحه بعض الجدة مخلوطة بالحزن حين يقول: - أما داخلي، الغائر، فلا أحد يمتلكه ولن أفشيه لأحد حتى لنفسي.

كان على ما يبدو يرى أن الناس يوجد بداخلهم أشد خاص تحب الخديعة وأن يلعبوا أدوارهم بسذاجة، ويرتاحون لمن يقدم إليهم هذه المساحة لأدوارهم دون جهد.

أردف: - حين قلت إنك بحاجة إلي، كنت أعلم أنك تممر بأزمة ثقة كاملة في العالم، أنت مروط في هذا العالم وفيندا لهذا قررت أن ألبس صورة تريحك وأتقدم إليك لأكون ملجأك لكنها صورة لا تعجبني ستكون فقط لفرة لكنني

سأعود لألعب ألعابي المسلية مع هذا المجتمع.. يمعن محراك
التفكير بعد أن تخلص من ثقل كلامه ال ذي أراد دومًا أن
يصفع به ناصر، ينظر له بعين متحسسة إياه وهو يقُول: -
أفعل أحيانًا أشياء لا أحبها مثلاً أتحدث إليك بهذا الود ال ذي
خلفته علاقتنا المنتهية فأشبهه صورتي الحقيقفة دون أي حيل،
لكنني لا أعجبك أيضًا لأنك تضع بذرة الشك بيننا وتظُن
فكرتك عني كما رسمتها أنا وقدمتها إليك. لم تبد ثمة
بداخلي لنلتقي أنت مثلهم جميعًا تتخذ وتحب الملائكة.
لست نادمًا على قطع علاقتنا ولا يظل سوى خيط ال دم
بيننا.

في المرأة امرأة خليعة

كلما نظر محراك في المرأة وهو يضدع الأوان وان على وجهه يرى ذاته كما هي ملونة. يرى عمته، ويرى ربحانة، ويرى نفسه، والمرأة.

اليوم حين عاد إلى المنزل كان بملابس نسائية خليعة يضع ألواناً على وجهه ويظيل شعره إلى كتفيه كان عائداً من زفة عرس مع فرقة خموس، بعد أن أصبح أحد أعضاءها البارزين، وها هو يتفق مع إسحاق وإلماس وبعد ضأوه إسحاق وآخرين أن يكونوا فرقة مستقلة بهم مجرد فرقة مختلفة كلها رجال تلبس ملابس نسائية وتضع ألواناً على وجهها.

حين عاد إلى منزله جلس يخطط ويخطط لهذه الفرقة وسيشترى بعض الملابس اللازمة وبعض المكياج والروائح وأغطية الوجه والرأس، يتدرب مع فرقة على نوع الرقص والعناء والموسيقى ظل هكذا ينام طوال يومه ويسهر طوال ليله.

يراهم كثيراً ولم يهتموا به واليوم حين ينظر إلى المراءة
يعلم أن محراً هذا هو الوجه الذي يراه في المرأة، امراءة
خليفة لكن العالم كله لا يستحق غير ذلك.

الجزء الخامس

" الصمت بلاغة المحب والبوح

عمادة المودة "

بينلوبي

كل يوم تقوم صباحًا، في الفجر تنبّه، تجلس ببطء شديد على حافة سريرها، ثم تزلق قدميها حتى تلامس الأرض متشبّعة بالمشاية بكلتا يديها، وتقف متكئة عليها.

تبدأ السير، تسحب قدمًا وراء أخرى، ثم تحرك المشاية بصوتها العالي إلى أن تصل إلى الحمام. تتوضأ وتعد ود لتصلي الفجر وتقرأ بعض ما تيسر من القرآن، وتنتظر أن ينبّه أحد من الخدم ليأتيها ببعض الفطور: كوب من الحليب، فنان قهوة، قطعة صغيرة من الخبز وبعض السمن والسكر. تنتظرني حتى آتيها.. أمشط شعرها ونحن ننضحك قليلًا، ثم أقبلها وأذهب إلى الجامعة مشفوعة بدعواتها لي.

حين أعود، أدخل عليها وهي ترفو ثيابها:

- كل ما أدخل عليك أشوفك تخيطين، شو بينلوبي...؟

- منوه بينلوبي....؟

- بينلوبي هاي واحدة كانت تخيط ثيابها وتكها، تخيطها وتكها إلين ما أجاها حبيبها.

- وأنا منوه إن شاء الله حبيبي....؟

- لا حبيبتي، أنا.

نظرت إليّ بمحبة، توقفت عن الخياطة وفطحت ذراعيها
وهي تقول:

- حبيبتي، وقرة عيني بعد.

أدخل في حضنها، أضمتها وأقبل جبهتها.

هذه مريم التي تجلس هادئة مسكنة، هي نفسها التي
تزوجت جدي الحاكم وطلقت منه. وهي نفسها ابنة حاكم
الحيرة الذي.. وهي التي فتحت بينها للثوار، نوار الجبل
الأخضر وخبائهم، هي نفسها التي تستقبل الأفراد ليتم تكوا
إليها من الحاكم إذا حلت بهم مظلمة، فتدافع عنهم وتشد من
أزرهم حتى لا يستحق ذلك.

الجميع يهاب الحاكم إلا هي، أليست خالته وزوجة عمه

وأم زوجها.....؟

مشروع قلبي

- ١ -

هاتف يضع كل شيء بيدي هـ و ينظر ر، ي تكلم، به ثم
بالمحمولي من الأشياء ويسيسها، وعلي أنا، كباقي البشر ر، أن
أمجده وأعمل ما يراه هو.

لماذا تتغير وجهة نظري هكذا، هل بدأت أخذ رج من
محبته..؟ أنا فقط ألومه، لكنني كلما لمته ألوم نفسي على
لومها إياه.

- إنه الحب يا ستي.. هكذا همست في سري.

بدأت أدافع عن مشروع قلبي، أنا أقول إنه مشروع قابل
للنجاح مثلما هو مفتوح على الفضل، وهو يصدر على أن
يكون قضية.

قلت له: - كل حاجة تتحول إلى سياسة، كل حاجة لازم
تبقي شيء ضخم.. مع أن الحب شيء بسيط وجميل بس يا
ريت نعرف نحب، ولما نعرف نحب، نحب بجد ونحاول أن
نحققه عن طريق استمراريته، واستمراريته تؤمن من خلال
اثنين لا من خلال فرد واحد.

نظر هادف إلى الأفق رافعاً رأسه بشموخ ثم أسقط نظريته سريعاً عليّ وهو يقول: - هناك فرق بين الشيء وتأويله.. التأويل نتيجة لما يحدث وما يفعله المجتمع وهذا فرصة لإعادة النظر في مشروع أو قضية من خلال التجربة وحساباتها. فالزمن صعب بين مستوى الحلم والواقع.

قلت له: - ده مجرد سؤال عابر في الحياة، نوع من الغطاء والحماية لفكرة اكبر عن التاريخ الذي لم نعيشه بشكل حقيقي فيصبح فانتازي، كأنه حكاية.. إحنا دلوقت مش قضية إحنا حكاية أو تأويل.. صدى صوت مش صوت حقيقي. أنا مش قادرة ولا أنت أن ننقل حياتنا من سريتها في الغد وارع إلى إعلانها في الواقع والمجتمع، ده تأسيس لفشلنا. نؤسس له لكي نضطر للتعامل بشكل قوي مع الطبيعة، وعلشان إن كده بتأجل القرار وتحمل الحب أحمال اكبر منه علشان إن يبقى قضية، والقضية لازمها مواجهة، والمواجهة غير موجودة لأننا بنأجلها. علشان كده إحنا بنأسس للفشل في الأول وبنخلق منه موضوع، أو بنحول الحب من رومانسية باعتبار الرومانسية حالة سلبية إلى موقف أو قضية في داخلها

رومانسيّتها الخاصة. أنا عاززة إجابة عن سؤال واحد، لماذا
نستمر هكذا...؟

كل هذا الجدل الدائم مبني على نظرية الصد راع، الثد د
والجذب، النتيجة والانتصار، الحياة والامد تمرار، تتد ول
العلاقة من علاقة إلى قيمة مناقشات في حد ذاتها، وتجزئتها
من خلال مراقبة الهاجس في مشهد الحياة، في القلق، أو في
عدم إعلانها بل بتأملها لمجد رد فلسفة الوجد ود وتشد كيله
والاستمتاع بالحالة، وبالفكرة أساساً.

في الحياة حين تفقد من تلعب معه في الخارج، تُعيد
تشكيله في الأشياء، أليست الطبيعة خالقة لما هو مخلوق. إن
إذا اختفى هذا المخلوق فهو ما زوال في صور أخرى داخل
الطبيعة.. وما علينا سوى أن نستدعي الصور الموجودة في
الذاكرة كمشاهد.

جلوسنا كل يوم في الجامعة، رغبتني في التحرك من كلية
إلى أخرى، تعرفني على مشاهدات كثيرة، أسد ثلثي، رغبتني
ونهمي في المعرفة تجعلني أسأل كثيراً، وهادف لأنه معاد
على التعليم كان لا يمل من أسئلتي لكنه كان يتعامل معي

وكأنني عجيبة سهل عجنها لكي يسهل عليه تشكيلها بعد ذلك،
لكن هذا ما لم يستطعه معي.

٢ .

كانت قدرة هادف على ضبط النفس حيال الانتظار السلبي، وحيال روعي التي لا تملك حيال هذه القدرة مدوى الترقب المشبوب بتوتر ينفجر كل فترة في صور عديدة.. بدايتها معرفة ما يجول في ذهنه، أفكاره السرية والتي هي مفتاح هويته.. محاولة دائماً تبوء بالفشل لعدم خبرتي وعدم دخولي إليه بشكل كبير، مما أدى إلى تمزيق حالاتي العديدة والتي استغرقت مدة من الزمن لأبني غيرها على شكل نفس متبقية، نتف، وعمل شخصية جديدة، حاول هو أن يزحزحها إلى منطقة الأيديولوجيا.

وكنت حين أعود إلى البيت أجدني أمارس على نفس أكثر من دور، مما يؤدي بي في النهاية إلى الانفصال بين الفعل والسلوك، بين الخطاب والرغبة، وبين الحلم والتحقق. أنا بذرة عائلية في مجتمع يملك بنيته الثقافية الحادة حتى ولو كنت إنساناً متطوراً على هذه الفكرة. ولأن العائلة انتقلت

من مكانها الطبيعي إلى مكان آخر، حاولت بشد كل حداد ومتعسف أن تحافظ على هذه البذرة بمأوى واثم مجتمعه السابق لا المجتمع الذي هي فيه، بل كانت شديدة التمسك بذلك، ولهذا أصبحت ما بين أهلي وهانف أخذ أكثر من صيغة في الدخول وهكذا أصبح كل منهم لا يرى سوى جزء مني، وفي ظل هذه الصيغة أصبحت أتعامل مع الخارج بجزء ضئيل فقط من نفسي المتعددة، بخاصة مع الانشقاق الحاد منه والصمت الدائم مني مما جعله بعد فترة شخصاً مسيطرته ومؤثرته.

كانت العلاقات العائلية بما لها من ثقافات وتحددات لا تدخل ضمن تحديد حياتنا بمعنى العمل عليه. فأصبحت صدى علاقة، علاقة في السطحي من الأشياء، علاقة صوتية أكثر منها علاقة حميمة بين محبين. وحين نفقد مفهوم الصراع لا نمتلك القوة فكل حركة بها تاريخ خفي أو مغلوق.

لست متحررة، لأن فهمي للتحرر مختلف ضد من أستطيع ممارسته من هذه الحرية وضمن ما أؤمن به منه، لكنني أرى أن حريتي حرية حركة تبدأ من الذات مقابل

حرية ذات، تبدأ من الآخرين تحت وطأة اعتراف الآخر بها
أو حتى عدم الاعتراف.

- ٣ -

أحضرت معي بعض " الساندويشات " من البيت رف ض
هادف أن يأكلها، اعتبرني أطعمه، ما أغداه كذات جائعة
وأحببت أن نتشارك في أكل بيتي، لكنه حساس وغير قادر
على أن يفرق بين مفاهيمه الطبقة والحب، بين الأيديولوجيا
والواقع، بين الجوع والتظير.

- يا سيدي كل، وبعدين نظراً.

- لا شكراً أنا حاكل فول، كلي أنت

- فول، فول نأكل مع بعض، بس مش حرام

الساندويشات " ديه، دي لحمه.

- لا، معلش شكراً.

هكذا هو، حساس وغير واقعي. لقد قمت بعمل ه ذه

الساندويشات " وأحضرتها سواء أكلها أم لم يأكلها، هي
موجودة بالفعل لكنها بالنسبة له موقف وقضية.

قلت لهادف حين أبدى ملاحظة غيرة حول حديثي الدائم مع طه وأصدقائه بالرغم من أنها كلها مناقشات ودارات هو جزء منها:

- أنت بتتكلم في الأفكار بشكل أكثر حرية من كلامك في الأشياء اليومية.

- اليومي له علاقة بالآخرين، والآخرين أساساً لا غير مؤهلين للأفكار الحرة.

- الأفكار لا بد لها من أن تنطبق على الواقع، ولو كان واحد منا قال إن المجتمع غير مؤهل، يبقى المألش ضرورة. أمال فين كلامك على اني لازم أحرر من وضعي وتفكير أهلي هو كلام وخلص....؟ طبعاً ما ده جزء من عدم تواصلكم أساساً كحركة لأنكم شايفين إنكم أعلى من الواقع وأن أفكاركم مقدسة.

- أنت بتخلطي الخاص بالعام. وبعدين طه يفضّل في الآخر ولو انه متحرر في أفكاره برضه متخلف في علاقته بالمرأة.

- بالعكس انت اللي علاقتك بالمرأة مش قادر تخلصها
من وضعها الاجتماعي. فين كلامك عن الحرية والعدالة
والمساواة، وأنا كل ما آجي أدخل في نقاش مع أحد حابك
تسكتني وتغير الموضوع....؟

- انت مش عارفاهم كويس، وبعدين انت خبرتك مش
كافية للنقاش.

- طب علمني.

ينظر إلى نظرة استعلاء وبابئسامة خفيفة تحمّل داخلها
ابتهاجاً بنفسه قال:
- ما تستعجلش.

إن تصورات هانف وأفكاره بعيدة عن الواقع، إنه شخص
يبحث عن الانزواء. تذكرت لحظة المظاهرات كرفك إن
يتقاضي المواجهة، وفي قراءته كان يحاول دائماً أن يقتضي
بأن الصراع مع السلطة صراع فكري، أخالفه الرأي لأنني
أرى أن الأفكار مهما بدت مجردة أو متعالية لا بد لها من يد
تحملها.

أحضرت الخبز، قطعت كل واحدة إلى قطعتين وبدأت أحشو كل قطعة. قطعتها بسكين حادة وحين بدأت، جردت يدي

- والله عنده حق هادف، بنت متدلعة ومش عارفة نعمل
حتى "ساندويتش" مثل "ساندويشات" ريحانة. كان لابد أن أخبره أنني تعرفت على "الساندويتش" مؤخراً فقط لم نكن نعرفه، وأنتي حين أقوم بعمله أشعر بأنني أنجزت عملاً خارقاً، داخل نطاق معرفتي.

حين جرحت السكين يدي نزفت قليلاً وضعتها في الماء تحت صنوبر في المطبخ وأحضرت "كليند إكس" ولففتها عليها، وتركت السكين في الحوض.

نظرت إليها مضرجة بدمائي، سكين كبيرة ليست لقطعة الخبز، إنها للذبح.. لكن ذبح من.....؟

تساءلت فيما بيني وبين نفسي: كيف تكون الفكرة ذميمة على الواقع وهل تكون الجريمة كتفكير مبكر بها وتخطط لقيامها يتوقف على الشر....؟ الشيء النابع منا والكامن داخل

شخصياتنا والعنصر المؤثر فعلاً، هل الشر هو الوجه الأول
للجريمة....؟

-٦-

أنا التي تذبح، شمسة التي لم تر صديقها شد هلة مذ ذ أن
لبست كل منهما علماً ثم افترقتا. أنا التي عاشت هنا، تربت
وأقامت وأحببت لكنني حين ذهبت لجديتي وقلت لها:
- أنا أحب هادفاً.

لم تعقب، لم تتكلم، اعتبرت الكلام مجرد دخان بس يط
وسيرحل ولم تخبرها بأن عليونة تزوجت هاشماً، لم تذكر
شيئاً.

في الأيام التالية أحضروا زوجاً من أقربائي وأحضروا
مأثوناً وجاء أخي..

"يا اميه يا اميه يا امايه راعي البحر
ما أباه أبي وليد عمي بخرته وارداه".

حين أحببت ريحانة حبيبًا ذهبت إلى أمي وأشد ارت إلى ه
قالت:

- أنا أحبه وأريد الزواج منه، فزوجوها.
هي عبدة وتختار، والآن حين اختارت أن تتركهم لتع ود
إلى زوجها قالوا خائنة، خائنة لهم لأنها تركتهم م ن أجل
حبيب، أما أنا فليس لي حرية الاختيار .

هذه أنا، ابنتهم، أتزوج من بينهم، هم يختارون لي.
قالو: - زوجناك لابن عمك.. أنت منذورة له.
قلت: - في هذا العصر، ومنذورة.....؟
ذهبت إلى هادف وقلت له: - هادف، أنا مش حرة.
فرد علي: - يعني أية.....؟ كل إنسان يقدر يحرك حياته
ويختارها.

- ده مش حقيقي.
- انت اللي عاجزة، وبترضي بالسهل.
- تصور كده.....؟ لا أنا مش عاجزة، أنا عبدة، عبدة
لتصوراتك وتصوراتهم، عبدة لخوفي ورعي م ن العالم
حولي، لأنك حتى أنت مش قادر تحميني.

قَطَعَت الوردَة ونَثَرَتْهَا على سِرِيرِي، نَمَتَ فِي حَضَن
مَمْعَتَيْنِ مِنَ الوردِ الأحمرِ.

راعي البحر ما أباه

- ١ -

يَسْمَعُ مَحْرَاكَ صِرَاحًا بَلْ عَوِيلًا كَمَا سَمِعَهُ مِنْ قَبْلُ، يَوْمَ
خَرَجُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ يَتَّبِعُونَ عَمَهُمُ الَّذِي تَرَكَ إِمَارَتَهُ بِشِدَّةِ كُلِّ
دِرَامِي وَلِحَقَّتْهُ الْعَائِلَةُ وَهُوَ مَعَهُمْ، وَالْيَوْمَ هَلَاهُ وَبَسَ مَعَ
الصِرَاحِ أَيْضًا. هَا هُوَ أَبُوهُ وَأَخْتُهُ يَتَرَكُ أَنْ الْعَالَمُ، بِشِدَّةِ كُلِّ
دِرَامِي أَيْضًا فِي حَادِثِ سَيَارَةٍ انْقَلَبَتْ بِهِمَا حِينَ حَاوَلَ حَبِيبُ
قِيَادَةِ سَيَارَتِهِ وَهُوَ مَخْمُورٌ، كَانَتْ حَلِيمَةً بِجَانِبِهِ وَانْدَفَعَ بِقُوَّةٍ
نَحْوَ الطَّرِيقِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَفَادَى بَعْضَ الْجِمَالِ، كَانَتْ
الْجِمَالُ تَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ وَكَلَّمَا رَأَتْ أَنْوَارَ السَّيَارَاتِ انْدَفَعَتْ
نَحْوَهَا بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ أَكْبَرَ، سَاقِطَةٌ بِكُلِّ قُوَّتِهَا فَوْقَهَا، مَهْمُشَةٌ
الْجُزْءِ الْأَعْلَى فِيهِوِي عَلَى مَنْ فِيهِ. وَلَمْ تَسْلَمْ سَيَارَةُ حَبِيبٍ مِنْ
هَجُومِ الْجِمَالِ.

رَاحَتْ رِيحَانَةٌ تَحْدِثُ نَفْسَهَا وَهِيَ بَيْنَ وَعِيهَا وَغَفْلَتِهَا:

- كم مرة قلت له لا تقُد وحدك السِ يارة، هذاك سائق خاص، كانت القيادة زمان بالنسبة له وظيفة وفن لا يستطيع إلا القليلون تعلمه، أما الآن فهو لم يعد قادراً عليه لأنه يحتاج إلى التركيز ودقة الملاحظة وهما ما تفقدتهما. ما هو ذهب وأخذ أيضاً حليمة معه لمجرد أنه لم يس مع كلامي كأنني أمره وهو يخيظني، هكذا منذ أن عدت، وطلق فطوماً، وترك العمل. يتهمني بأنني دمرت حياته، هو الذي دمر حياتي كلها، يتهمني أنا التي دمرت حياته وحولتها إلى سيرك كبير هو المهرج الوحيد فيه لأنني أصررت على أن نرجع هنا، أصررت أن نبني هذا البيت ونعيش حياة كريمة لم يكن يحلم بها، ماذا كان هو؟ مجرد عامل يحمل ملابس له تدب إبطه، ولا يكاد يجد لقمة العيش. أنا التي أدخلت له الحصان، وأنا التي توسّطت له ليكون الأقرب إلى عمّي، وأنا التي حين عدت وسامحته وظففته في الجيش الذي أعطانا تعويضاً عن بيتنا هناك، هذا المال الذي عشنا به كملوك وأصد حاب ملايين. ومع ذلك ظل دائماً ينظر إلى كعبدة، لم ينس ذلك.

هو الذي جعلني في داخلي أحاول أن أتخلص من هذه النظرة، هو الذي جعلني أشرب وأسكر بأفعاله منذ أن تزوج

علي وحتى موته اليوم. وحين يموت يأخذ حليمه معه. لا يتركها لتؤنس وحدتي، كان يحبها ويرأها أقرب من بالبيت إليه. لم يحس بمحراك ولا بناصر، هي حليمه فقط التي تهمة في هذه العائلة وهي التي أخذها معه، وهو الذي كان يعيرني بالإدمان كان أكثر إدماناً مني حتى أنه مات وهو سكران.

- ٢ -

نظرت ربحانة إلى صالحة التي حضرت لمواساتها وكأنها تقول لها: كيف ألفينا أنفسنا هكذا نطن الوقت طويلاً، يمر جسدانا كعابرين في المكان بل في الحياة كلها، الحياة عابرة ومؤقتة إذن، لكننا بطرق عديدة يمكننا تلمس بعض الاستقرار النسبي لتكيف معها، عسانا نحياها بحق.....؟

وكانت ترى نفسها وكأنها تعبّر المضيّق هذا في " خورفكان"، وثمة أشباح تعبّر معها تمر من خلال المضيّق، مضيّق هرمز، الذي مر منه هاشم زوج أخته عليوزة، واختفى.

ثمة رجال تصطدم ظلالهم بظلمها، بظلمه، جماعة كانوا لكن حبيباً ليس معهم وثمة نساء يغنين أغانيهن الخاصة وهن غائب.

قالت، وهي تنتفض من شدة الصدمة:

وحليمة، كيف تموت...؟ كنت قد حلمت بها من قبل يا صالحة، أخبرت نصوراً أن حليمة ستموت يوم وصلت من السعودية. كان من الممكن أن يموت حبيب واحد لكنه لا تثبت بأبيها، لم ترند اليوم ثياباً مناسبة، كانت تتجهز للموت وتعلم أن كل الثياب ستسقط حال سقوطها، تسقط من على شاطئ على أرض مسطحة تعلو لتسقط، ترتفع لتهدى مفككة، تكون أضعف، أقل، أبسط مثل ذرة الهواء لا حمولة لها بل أخف من الهذيان.

ظهر عجزها، لا أب لها ولا علاقة، ها هي تستوحش في هذا العالم، ظهرها لا يستند على حائط، تتهاوى وتسقط، لا تستكن روحها في مكان، أنها تسبح، تطير، ليست من هذه الأرض ضيقة على مساحة الأشجار التي تتحرك فيها. تسحب روحها وجسدها في ملابس سوداء، تنزوي وتفقد كل يوم. كما لو أن الحظ يقذفها بعثراته كلما ابتسمت قليلاً، كما لو أن

الروح خاوية، وطبقاتها تَتَعَفَن. فهل هي التي خلقت
تَعَاسَتَهَا....؟

- ٣ -

كانت صالحة تبدو متماسكة بعدما استمعت إلى تعليمات
الطبيب حول مرضها الذي لم يعرفوا في البداية مصدره
وهي لا تحاول أن تفهم ما حدث بعد ذلك، حتى نظرت كما
كانت من قبل متماسكة، ذات صوت أجش قوي يحمله جسد
فيه من الذكورة أكثر بكثير مما يعتقد، حتى أنها تنظر
إليها تتذكر ما يحكي حولها من القصص في جلسات ليل
على سطح بيت جيرانها، الذين لم يكن لديهم أدنى شك في أن
هذه المرأة مسكونة برجال كثيرين يتناوبون عليها فتتقمصهم
دفعاً واحدة أو كل فترة أحداً منهم.

كان بيت جيرانها على شاطئ البحر مباشرة تسرع مع في
أصوات المراكب التي ترسو قربه، وسطح البيت يطل تماماً
على المساحة الأمامية من مدخل منزلها، بحيث يرى الواقف
هناك من يدخل إليها ومن يخرج، وكان في آخر الطريق
كان صغير لبيع بعض الأشياء الخاصة بالمواد التموينية،

تمتلكه مع بضعة دكاكين أخرى للخياطة والتطريز، كانت
تؤجر هذه الدكاكين لبعض الهنود أو الإيرانيين أو
السريلانكيين الذين يقومون بعملهم على أكمل وجه. كان
أفراد المنطقة يلجأون إلى هذه المجلات الصغيرة لجلب
حاجاتهم السريعة منها. كانت ابنتها بالتبني تخرج دائماً بحجة
شراء بعض الأشياء طلباً لحرية مفقودة داخل المنزل، ولم
يكن خروجها إلى الدكان وإحضارها بعض المؤن سوى ملاذ
وذريعة لتنفس بعض الحرية. ولم تكن تلك الأحاديث الجانبية
التي تحاول نسجها في هرولتها تجاه المنزل إلا محاولة منها
لطردها من الشبّاح من الطريق كلما عادت ممثلة ببعض الهوان
ومختلقة لدخولها المنزل، وهي تتساعل أي رجل منهم سآراه
فيها اليوم وأي صوت سأسمعه.

لم تكن صلوحة إلا جارية صغيرة في بيت أحد الأسر
الغنية التي تربت فيها دون أن تعلم من أين هي، وابنة مرن،
بالرغم من أنها تعرف جيداً أخواتها وإخوانها والذين ورثوها
بعد موتها بالرغم من عدم اهتمامهم بها في فترة مرضها.
إخوانها وأخواتها الذين توزعوا بعد ذلك في منازل أخرى
حين باعهم رب الأسرة التي تربت فيها، لكن رثتهم وعدم

احتياجه إليهم جميعاً وربما أهدى منهم أختها الصغرى التي ذهبت إلى الإقامة في منزل الحاكم وتربت مع ربحانة منذ صغرها ومع ذلك لم تكن صديقة لها بل كانتا تغاران من بعضهما بعضاً وكل منهما تنسلق إلى محبة عمته الهسي الأخت الأكثر قرباً من صلوحة التي تربت مع أم عمه أختها. تربت معها حين كانتا طفلتين صغيرتين تذهبان إلى البر حيث تخيم الأسر فيه طيلة فترة المطر كنوع من التخيير وكانتا تلعبان معاً وقد ارتبطتا بذاكرة جمعتهما بعد ذلك فترة طويلة من الزمن وها هي تمرض بشدة بعد وفاة مريم.

كان ذلك في القديم حيث طفولتها وما إن بدأت تعي وتفهم وتتحرك خارج تلك المنطقة، حتى كانت روحها تهفو إلى الحرية إلى أن تتخفف من ذلك النقل الروحي الذي يرغمها دوماً على الخنوع، تود أن تمارس الطيران، وأن تتخلى عن مساحة الجغرافية التي لا تكفي سوى قديمها.

لو نظرت يوماً إلى البعيد لوجدت أن بلاد الله الواسعة مبسوطة تحت قدميها، ولكانت تعلم بحسها أن لم يس الودد الأصم في بيت المعتمد البريطاني ليس بقادر على فتح مسامها لتستشق الهواء كما ينبغي، ومع ذلك فقد زنت من

مكانها أراحته عن قلبها الخوف الذي تراه ممترجاً بحرية لم تنلها بعد ولم تتذوقها من قبل، لكن طعمها يذوب في شد فتيتها وينسل إلى أعماقها فتتوق بل تتد رق لتجربة الإحساس بالحريّة ويظل هاجسها الأول والأخير أن تتحرر فقررت أن تمد يدها إلى تلك الحطبة وهي تعلم أنها تمد يدها لتلمس النار التي ستشتعل وتحرقها أولاً، وبلا ارتعاشة تتسلم صك حريتها من ذلك الرجل الأبيض القادم من البعيد، بحثاً عن النفط المخبأ في عروق التربة حيث إن مفهوم الحرية هي ألا تكون عبدة.

ذهبت إلى بيت المعلمد البريطاني، رأت كثير راء من العبدات يذهبن هناك ويلمسن تلك الخشبة المدقوقة في فناء بيته، وعلى إثرها يملكن صك حريتهن، وكثيراً أيضاً لأم يستطعن أن يفعلن الكثير بهذه الحرية، فعدن إماء وعبدات لمالكهن أو لغيره لكنها كانت تبحث عن شيء آخر، عن أن تكون حرة..

صالحوه، لم تمتلك من النساء الحرائر لا الجمال ولا الذهب والمال ولا حتى القوة والسيطرة. ولأنها تشبه الرجال

فلا بد لها من السيطرة والقوة كي تكون بقوة الرجال، ولديها الرغبة والطموح لأن تسعى خلف النداهة التي تتاديهما.

حين خرجت مع عمتهما أخت أبيهما من بيت المعتمد البريطاني حامله صك حريتها، كانت كمن به داء، الكل ينفر منه، كانت تحلم وتحلم، خرجت بحريتها إلى العالم الخارجي دون قوة ودون حتى أدنى إحساس بالرعب، لم تدرك أبداً أن هناك من يترصد لهما في الوديان البعيدة التي لا يلبد فيها سوى قطاع الطرق لم تنتبه إلى هذه الطرق البعيدة مسروقة حيث كانت الأسلحة والعبيد في تلك الأماكن البعيدة والتي لم تطلها يد الإنجليز فلم يستطيعوا الوصول إليها في ذلك العمق من الأراضي، ضاقت بها الأرض الواسعة قبل أن تراها وانخلقت مسامها قبل أن تتنفس بحمقها واءلحمت استطعمه أبداً.

- ٤ -

كانت صلوة تحب مريم ونأثي لها كثيراً. لم تنس أيامهما معاً وهما صغار ولم تنس طيلة غيابها مريم فقد تربيتاً معاً في سنوات العمر الأولى.

كانت صداقتهما تنمو حتى وعت صالحوه الفرق بين العبد والسيد، الفرق بين من يأمر ومن يؤتمر. فتوقف نمو الصداقة عند لحظة الوعي هذه. هي عبدة ومريم حرة، بل حرة وذات مكانة اجتماعية كبيرة، لكن علاقتهما تقترب من الصداقة، هذه الصداقة ليست صداقة اثنين في نفس المسنوى الاجتماعي. وإن كانت لم تستطع أن تنساها فظل هذا الود الطفولي معششاً في خلايا نفسيهما.

هما يلتقيان بعد أن عادت كل منهما إلى من غربتهما الإجبارية. مريم من القاهرة ببقايا السلطة التي فقدتها وبمالم لم يتح لها إلا امتلاك بيت شعبي صغير تؤنسها خادمة واحدة على عكس صالحوه العائدة من أرض الله بمالها الوفير لتبني بيتاً ضخماً، فرشته بأفخر الأثاث فصار أكثر أناقة وجمالاً بعد أن تلمعه خادماؤها الآسيويات. اللاتي يتدوّن مائدة الطعام تحيناً لإشارة من يدها مليبات أوامرهما بابتسام لا تغيب حتى حين تنهر الطباخ أو السائق.

جلست على حافة المقعد قبالة مريم في بيتهما القديمة وحاولت إخفاء أساورها الذهبية في خجل، ف رغم حسرتها البنكي الكبير والأرباح التي اشترت بها أرضاً وأقامت عليها

مسجدًا بغية أن يبني الله لها قصرًا في الجنة. لم يجعلها ه ذا
كله قادرة على أن تتواصل مع مريم مواصلة الأنداد، لأنها لا
تستطيع أن تتساها.

- ٥ -

بعد وفاة حبيب بدأ البنك يطالب بسداد ديونه، لم يكن لدى
ريحانة أو أولادها مال، كل ما كان لديها أنفقوه على مباح
الحياة، والرغبة في أن يكونوا محط أنظار الجميع لتحقق
ريحانة لذاتها الوجود الذي لم يتحقق من خلال الشرف أو
الإرث الاجتماعي، فحاولت تحقيقه من خلال المال وحين
انقض عنها الجميع، ضاحكين مستهزئين به مما جعلها
تترك حقيقة واحدة كانت تتهرب منها دائماً، وهي أنها مهم
حاولت أن تتخير، فإن الواقع لن يتيح لها ذلك إلا ضد من
شرطه الخاص، فمهما خرجت من منظومتها نظل ضد من
قسوة الواقع تقع في هامشه، وإن حاولت الدخول إلى عمقه
فهو عمق الهامش مما يسقطها في أوهامها وتظل تسقط في
شرفات أحلامها كل مرة أكثر حتى تقع في السحق من
الواقع، تصدم - وهي المصدومة أساماً - بما يسحقها أكثر
فيطالها الحقد والكآبة مع الإدمان بشكل أخطر وأعمق.. حين

عجزت عن دفع ديونها أخذ البنك قصرها وأحلامها الذي
بنيتها من أعماق تجربتها ومن دمها المهدر على طرق
المدينة كلها أخذ الموت حبيباً وحليمة وأخذ البنك البيت،
وأخذت الدنيا محراً وأخذ الدين نصوراً الذي أصبح اسمه
ناصرًا كما كان وظلت هي هنا على شاطئ البحر تضحك
بصوت عال منكوشة الشعر تكاد عينها تقط أن من بين
وجهها وهي تبحث عن سمكة البحر التي ستعطيها لأول مرة
كبيرة في محارة.

تتذكر لحظات وتغيب أخرى، تبكي ولا تنام كلما وجدت
أوراقاً أو علبة فارغة وضعتها على ثيابها، ولبست عفاً وداً
كثيرة من الأوراق اللامعة داخل علب المسجائر، وضفرت
شعرها بجميع قصاصات القماش الصغيرة التي تجلبها من
مخلفات محلات الخياطين، حتى أصد بحث ضد فائرها ذات
ألوان كثيرة وطويلة.

أصبحت مثل أمها مهيرة الخبلة تركض في الطرق
حاملة طبلية عبارة عن علبة صفيح، علبة سمن فارغة تدق
عليها بعضاً صغيرة أو حصاة تجلس بجانب البحر، ثم تذهب
إلى المدينة تعطيها النسوة بعض فتات وركض وراءها

الأطفال يغنون وراءها مهيبة الخيلة، مهيبة الخيلة تد زعج
وتدق على طلبتها.

أن أكون نعاماً

- ١ -

- طيب أنا عاجزة

- لا، أنت قادرة

- طيب أعمل إيه.....؟

- انت اللي تقررِي..

ومن انقضاء الوقت في التّحاور إلى الاشبّاه في الأُمْدِ ياء
تتشكّل مرارتي وتنزلق غير عابئة بالتوتّر.. هكذا أظلم مع
هادف نتحاور دون أن نقطة اتفاق واحدة رجعت إلى المنزل
ذهبت إلى جدتي لم تكن موجودة اختفت جدتي، عادت إلى
وطنها رحلت، طارت.

- أميه مريم، مريم... لم أجدها

وجدت المشاية في غرفتها، وجدت القرآن ومثد ريطاً لأم
كلثوم وديوان لأبي فراس الحمداني. جلست مكانها، أمسكت

القريط وضعته في الكاسيت، أسندت يدًا على المشداية
والأخرى سندت بها رأسي وسمعت.
" ولكن مثلي لا يذاع له سر "

- ٢ -

للمرة المائة يقوم انقلاب آخر في الإمارة ضد الحاكم
ولكن للمرة الثانية فقط بعد ظهور الدولة. وحدها هذه الإمارة
يندرج فيها مفهوم الشرعية ضمن وجود نظام أكبر يحتويها،
وهو نظام الدولة. ولفضل الانقلاب الأول، ولأن الدولة تتدخل
فقط في شئون الإمارات الداخلية التي تؤثر على النظام العام،
ولخوف جميع حكام الإمارات الأخريين من أن تُعَدَّ ود
الانقلابات فيختل الاتحاد وتختل الدولة، ولذا وفهم على
أنظمتهم هم أيضاً، وليس الإنجليز الذين لا يتدخلون في نظام
الدولة أو الإمارة منذ أن كانوا قوة ذات أسطول قوي سوا
أسطول القواسم الذين يدافع عن نفسه ومكانه، بالقرصنة
لأنهم يهاجمون سفنهم.. فضل الانقلاب الثاني بيد أخ الحاكم
لكن مفهوم الشرعية كان قد ظهر من جديد، وإن حاولوا
طمسه خاصة مع ظهور الأوراق الضائعة الملوثة بالدم رغم

طول ضياعها.. ظهرت في يد مدير الانقلاب الجديد كوسيلة
أخيرة للتهديد في حال فشل انقلابه.. لكن هذا الانقلاب كان
سليماً لم يضح بأحد فيه ولم يسجن أحد بل تم الصلح وعاد
الحاكم الأول وتمت مساومة مدير الانقلاب الذي أتى بأشد ياء
عديدة.

" ومشكلة الشارقة أن لها خلفية تاريخية - حضارية.
فالشارقة على الرغم من كونها إمارة صغيرة مرمية على
ساحل الخليج ومطلّة على صحرائه كان لها من أبنائها ثروة
هي النفط الذي حرمت منه بالكميات الكبيرة.

الشارقة قبل الاستقلال وقيام الدولة الاتحادية ويوم كان
الساحل المتصالح تحت رحمة بريطانيا العظمى ويوم كان
الساحل يخاص في خصم معارك ما سمي حرب القراصنة
في تلك الظروف المأساوية كان أبناء الشارقة يتطلعون إلى
الخليج وإلى ما وراءه. وحدهم في المنطقة كان يشدهم إلى
العروبة هاجس كبير ووحدهم يوم لم يكن الإعراس المردّي
والمسموع قد برز في العالم كانوا يتحينون الفرص لاصطياد
الصحف العربية من أي بلد كان، من بيروت من دمشق من
بغداد ومن القاهرة ويشتركون في كل مجلة أو صحيفة تطبع

بالعربية تأتي متأخرة شهراً بل أشهراً عن طريق الهند، عن طريق البحر، عن أي طريق بحري تصل منه باخرة تحمل لهم صحيفة أو ديوناً أو كتباً وهكذا كان أهل الشارقة على ترابط مستمر بالعالم العربي والتطورات فيه من سياسة وثقافية واجتماعية .

. ٣ .

هاتف، أحبك فهل تحبني...؟

فقال: - لا

- ليس ما تريد تقول....ز؟

- لأنني ما أحبك.

- لا، أنت تحبني وتموت في.

- طيب لي به بتسأليني....ز؟

- أحب أسمعها.

- وأنا رديت بس انت ما بتحبش ردي.

- متى سننزوج.....؟

- لسنا مؤهلين للزواج.

- لماذا.....؟

- لم نتعارف جيداً وكل الأشياء في حياتنا مؤجلة.

- ليش مؤجلة.....؟

- لم نستوف شروطها.

- شروط ماذا....؟

- شروط قضيتنا.

- أية قضية هذه....؟

قلت لنفسي: لماذا دائماً أضع قلبي على مدك العلاقة
ولماذا أستخدم كلمة العاطفة كثيراً...؟

. ٤ .

منذ فترة لم تظهر، كانت بوابر حمي شديدة واضحة عليّ
وكنّت أسأل نفسي كم من الوقت يكفي لمداومة الكتابة على
الأوراق كي تمتلئ.

بهذا اليتيم الذي يظهر عليّ كلما اس توحدت وأذ نت وراء
الباب مختبئ من محبتي التي أغمرك بها مثل زخلة مطر
كثيفة ثم تختفي.

دون إطلالة على عالمي.

دون إجابة تؤرجح هذه العاطفة التي أشعلتها ورحلت
لتبقيها تتقد.

كثمارين على الوحدة سوف أغلق علي المحبة لتكون غداء
لي في الأيام المقبلة، سوف أنام ملء الخديعة، باكية كقطعة
تذهب إلى المدرسة دون حذاء أو دفاتر. ستكون المعلمة حتمًا
عند الباب وبيدها النسييد المدرسي.

وتحت لسانها سيسيل الوطن مع اللعاب وكنت أرى العلم
كل يوم مثلما أرى وجهي في عينيّك. إذن لماذا لا أراك كل
يوم.....؟

ألسنت أنت مثل العلم أيضًا. أليس الحب وطن الأيتام الذين
مُتلي في العالم، لا آباء لي ولا أمهات؟

لا ألاحظ تكوري مثل جنين في رحم ما.. لا ألاحظ أحمر
الثغاف وهو على شفّتي فقط تجربة في الحياة وعلم يرفرف،
ألف به فتسألني عن معنى الوطن.

كلما حاولت التملص أجدني أقرب، وكلما حاولت الانفلات
بعيدًا وجدّتي مخلصّة دعوبًا إلى القرب.

عدت إلى المنزل ابتلعت أربعين حبة من الباندول كانت
الأخبار تقول: إن إسرائيل ضربت صبرا وشاتيلا. وأن
حاكمًا يعد لانقلاب على حاكم آخر، وأن العالم صار بلا
قضية.

هذه الخاتمة هي التي تستحق الندم هكذا أسد مع صدوت
ضميري أو صوت الكورس وراء مغنية ما. فعلت ربحانة
مثلما فعلت عليونة حين أحرقت نفسها أو كأنني صدقت
بالكهرباء وعدت أنا أخيراً إلى ذاتي نظرت إلى حداثتي
وتمننت فيها:

الحيوات التي تمر لم نألفها، لم نعشها بأكملها ولهذا
تربكنا. كل حياة نعيشها ليست حياتنا، كل حياة ندهشنا مثلاً
حسب قبل أن تتحول إلى جزء من حياة سابقة.

أشهد أنني لم أعش. أنني مت منذ زمن، ارتكبت فعل
موتي دون أن يدروا، وكلما تذكرت تلك الحالة داهمتني
أفكار تخبط فوق رأسي وكأنها تقاجئني من نومة.

اعتقدت لفترة طويلة أن بإمكاننا امتلاك حريتنا الحقيقيّة
بأن "نفعل" من وجهة نظرنا، ظلمت أبحث عما هو حقيقي
في البداية ثم بدأت أخون طفولتي بدأت أبحث عن عدولي
لأرفض، أرفض لمجرد الرفض، لأن نعم تعني الرضوخ ولا
تعني أن أكون موجودة، لا ونعم لا خيار بينهما.

قلت أسأتني فصيقاتي فأهلي فشخصي فعلاقاتي كلها ثم
بدأت أنحسر. كلما شرعت في الدخول أغراني التراجع بعد

الخسارة ولا خسارة إلّا. وتحت راية الذمير والحرية
تعلمت كيف أفقد وتحتها أيضاً خسرت حريتي كي أملك هذه
المرارة التي تسكن باطني جراء المعرفة الجارحة.

لم أعد أعلن هذا الموت، لم أعد أستطيع أن أجابه الموت
في المكان. البيت يتصدع والأجسام كذلك. لذا لن ألوذ به،
فهو المحور الأساسي للجريمة والموت، للحياة والمتعة، ومع
ذلك تظل مهانة ومستكبراً عليها في الوضوح.

كما لو أن هناك خيطاً ما يجمع صلوحة بريحانة وإسحاق
بمحرّاك ويظل صنعو السنهوري، الوحيد ذو الوجه المنحرف
قليلاً ناحية اليسار، الذي رأته ريحانة لأول مرة في ذهابها
مع أم عائدة إلى منطقة الباطنية لتجرب عالم الحشيش والإبر
المخدرة، وحده واقفاً هنا، أما أنا فسأظل مينة ساكنة وأشدّ به
النعامة.

الجزء السادس

" الضحك يميت القلب "

كعادته كل يوم يغتسل ويتوضأ ثم يهيم م تكلأ على الله،
ومع أذان الفجر يفتح باب البيت ويخرج سائراً بصمت، هادئاً
كنفسه التي وجدت سكنتها أخيراً في الإتكاء على ما يحفظها
من السقوط والانهيار، وعازلاً من فكره محراً وما يغط له.
بل يدعو له بالصلاح والتقوى، متخلصاً من عذابات له التي
تفتت كبده كمداً على انهيار عائلته بموت أبيه وأخته الوحيدة
وبجنون ريحانة الذي لا خلاص منه، وبمحراك الذي كان
خلاصة هذا العذاب الدائم واليومي، حيث يراه أو يسمع عن
حالاته وانهياراته في كل مناسبة، عن فرقته بعد أن وجد
إسحاق مقتولاً في حالة مزريّة ومخيفة إذ لوحظ أن قاتليه قد
عذبوه كثيراً قبل أن يقطعوا أوصاله وأعضاءه الناس لمية
ويرموها في صندوق القمامة.

لأكثر من ثلاثة أيام ظلت عائلته تبحث عنه، وظنوه في
البداية مع محراك، إلا أن الشرطة اكتشفت جثته حين أبلغ
عن العثور على بعض أشلائه أحد سائقي سيارات البلدية

التي تدور حول المدينة لجمع القمامة حين تم تقرير غ ذلك الصندوق وتم العثور على باقي الجثة مرمية في خرابة قريبة أيضا في صندوق قمامة آخر، وبمشاهدة الجثة اتضح أنه قد سُحِلَ بالسيارة قبل طعنه وتغذيته.

كل ما قالته أسرته إن هناك عدة اتصالات تمّت قبل خروج إسحاق الذي كان على مدى يومين يتهرب من الرد عليها وفي آخر اتصال تغيّر وجهه وذهب ليلبس ملابس ويخرج سريعاً دون أن يعلموا وجهته. كانت المتحدثة امرأة تنتظره في سيارة أمام الباب، لكنهم لم يتحققوا ممن بها، هكذا قالوا.

بالطبع استجوب محراك ومن حسن حظه أنه لم يكن سكراناً وإلا سيجلد ستين جلدة فما زالت هذه العقوبات موجودة برغم عدم وجود خطبة التوبة، ولكم خاف نصّور عليه وعلى نفسه، لكن سرّ الله كان عظيماً إذ كان بعض القتل من الفرقة والآخر من خارجها، ولكلّ منهم جميعاً يتاجرون في المخدرات والنساء، وهي التجارة التي لم يكن محراك يعلم عنها شيئاً، فهو يتعاطى فقط ولذلك لم يتم القبض عليه، ثم إنه أصر على إنكار معرفته بما حدث.

حين استدعى محراك من قبل الشرطة، ذهب ناصر إلى المسجد في الفجر ظل يصلي ويكي. كان خائفاً مرتبكاً يسير إلى المسجد كأنه يحمل ثقلاً على أكتافه. حين وصل إلى رك نخله عند الباب ودخل قبل الأذان، جلس بجانب الحائط يقرأ بعض سور يحفظها بعد أن صلى ركعتين تحية المسجد ثم تلاهما بركعتين ظل ساجداً في الركعة الأخيرة ما يقارب ربع الساعة حتى إن أحد الأخوة الذين كانوا بجانبه أمسك به وهزه فقام ووجهه مثل وردة حمراء والدموع تسيل على خديه. لا بد أن محراكاً قد استخدم مسدس والده وقتل به إسحاق مثلما رفعه على ذلك الفتى الذي أتانا في البيت بعد وفاة والده.

وتساءل هل موت والده وأخته أقل وطأة من غياب محراك في السجن...؟ هو لا يصدق أن أخاه يمكن أن يقتل ويمزق جسد صديقه أشلاء ثم يلقي كل جزء في منطقة. إن عاجز عن تصديق ذلك رغم أنه لا يحب إسحاق فهو يعرف الكثير عن مجونه وفجره اللذين يشاركه فيهما محراك، لكن أن يقتل وبهذه الطريقة الوحشية فهذا لا يقل عن فحش إسحاق ذاته.

حين جلس بجانب الحائط بعد أن أتم صلاته اعتدل فاقترب منه ذلك الرجل بجلبابه القصير ولحيته الطويلة ألقى عليه السلام، فرد ناصر: وعليكم السلام. قال: - " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، ثم جلس بجانبه وظل يتحدث عن رحمة الله وعن الخلوص من مزاهد الدنيا وأن المصائب وإن كانت كبيرة فهناك أكبر منها فكيف لنا أن نستكبر مصائبنا وهذا في دول أذرى لا يستطيع المسلم أن يصلي أو يجهر بإسلامه، نظر إليه بتمعن وهو يقول: إن إخواننا في أفغانستان مثلاً يحاربون ويقتلون ولا يجدون من ينقذهم ونحن هنا نبقى على مصائبنا الصغيرة يا أخي اتق الله وارحم إخوانك.

نظر ناصر إليه، كان الأذان قد بدأ فصلى وخرج مسرعاً وذهب إلى بيت محراك. دق الباب بعنف شديد وحين فتح له، سأله: - عليك أن تخبرني الآن بصدق، أنت تعرف ما الذي جاء بي.. فرد عليه بتهكم: بالسعادتى، نصور بس آل عذرى ويخاف على...؟ الآن فقط تهتم بي؟ اذهب لشأنك يا نصور واطمئن. ثم أغلق الباب في وجهه. كان ناصر يرى أن الجريمة داخل محراك كنتفكير مبكر بها، عنصر كامن داخل

شخصيته التي يحاول مسحها في الخنوثة، لهذا كان يرى أن من الممكن له أن يقوم بها كأداء أكثر اكتمالاً من أي شخص آخر. وكان صدى صوته يتردد في أذنيه حين عاتبه علي دخول الخرفة: أنت ما عشت يعني شو تك ون عبد ملك وممكن تتباع في أي لحظة، أنا صحيح أبوي مب عبد وممكن أنباع بس إحساس أمي كان يآثر علي، خوفها لو اتباعت وما يقدر أبوي يحررها شو بشوي ينتقل من بيت لبيت وأنا بكون وياها وبين ما تروح أنباع وياها أو تتركز في ويا أبوي تربيني " مرة أبو " وبين إحساسك أنك تبغي تسوي اللي تباه ودايمًا ما تقدر. عمرك ما انربطت في جذع شجرة ولا انضربت بالسوط.

ظل ناصر يذهب كل يوم إلى المسجد فيجد هذا الصاحب أو الأخ مرة وحده، ومرات مع أشخاص آخرين بنفس الهيئة والثياب القصيرة والذقون الطويلة، يتحدثون بجانبه ويدعونه إلى التآور معهم، وهو صامت أو يسأله أحدهم عن أحواله قائلاً:

- كيف حالك يا أخي....؟ أدعو لك الله بصلاح الدين والدنيا جزاك الله الخير. بعد أيام أتاه وقال له إنه

سيذهب ليحارب في أفغانستان ويدعو له أن يلاقى ه
هناك وذهب.

- ٢ -

ظل ناصر مضطرباً. هو لم يحنك بحرب من قبل غير ما
ذكرت له أمه عن حرب ١٩٦٧ حين كان ما زال وليداً لكنه
لم يع بها ولا بملاساتها هو يسمع عن حروب كثيره لكن
ليس لها علاقة به أو بأحد من الذين يعرفهم، يسمع عنها في
الأخبار فقط ما هو اليوم يفكر في هذا الرجل الذي التقاه عدة
أيام ثم اختفى مختاراً الجهاد في سبيل الله، دون أن يك
العدو عدوه المباشر حين قال ذلك انتقض الرجل وقائلاً:

- كيف يا أخي ليس عدوي أليس كل أعداء الله أعداءنا...؟
استغفر الله العظيم يا أخي، إن المسلمين أخوة وهم إخواننا
في الله وفي الدين.

ظلت تلك الكلمات ترن بعصبيتها الزائدة في أذنه، وكلم
ذهب إلى المسجد بحث عنه حتى همس أحد هؤلاء الأخوة
يوماً في أذنه بأنه استشهد وأنهم بعد الظهر مباشرة سيقومون
صلاة الغائب على روحه وسيقرأون القرآن ودعاه للانضمام

إلى صلاتهم. جلس مبهوراً نسي أمه وأخاه نسي نفسه وظل يقرأ ويقرأ ويصلي، في ذلك اليوم لم يتذكر ناصد ر م ن المسجد حتى أتت زوجته تسأل عنه قالوا لها: إنه بالداخل ناداه أحدهم لها فخرج صامتاً وحين عاد إلى المنزل ظل في غرفته لا يتكلم مع أحد لا يأكل ولا يشرب. حاولت زوجته أن تلهيه بأمور الحياة اليومية حاولت أن تعيده إليها أو إلى ما حدث لمحراك ولريحانة، لم يهتم ولم يكن مؤملاً لمسامح أي شيء بدأت تباشر حياتها بنفسها تشتري الأكل وتخرج إلى الأسواق، تسأل عن صديقاتها اللاتي هجرتهن في بداية زواجهن وتعيد علاقاتها بهن، ثم تعود إليه تحاول إطعامه ثم تجلس تتحدث في الهاتف لساعات طويلة.

بعد غياب عدة أيام وانقطاعه عن العالم وعن المسجد أتاه أحد الذين كان يراهم هناك، سأل عنه ودخل إلى حوش البيت، رفض الدخول إلى المنزل، سألته عن حاله وطلب منه أن يخرج معه للحديث، جره إلى المسجد حيث صعدوا مع الآخرين ثم ظل يتحدث معه نفس حديث صاحبه الأول الذي استشهد.

قال له: إن المصائب وإن كانت كبيرة فهناك أكبر منها
وأن أخاهم في الإسلام قد استشهد دفاعاً عن كلمة الله وإنه
مع الصديقين والشهداء وبآلئهم مثله. نظر ناصر إليه بصمت
لكن الآخر أكمل حديثه وقال له: إن الجهاد هو الجهاد في
سبيل الله والنصر من عنده تعالى، سكّ ناصر، اسمه تَردّد
كثيراً في معانٍ لم يسمع بها من قبل.

بدأ ناصر يتردّد على جلسات الجماعة وصدّ لواتهم
والعبارات التي تتردّد دوماً تتسلل إليه. تدفعه إلى الإحساس
بأن داخله يتواءم مع الزهد في ذلك العالم الذي يركّز على
حقيقة واحدة هي الفقد. الفقد بالموت أو الجنون أو الضياع.
ذهب مع تلك الجماعة إلى جلساتهم الخاصة وصلواتهم ثم
انضم معهم للسفر إلى أفغانستان، كانت هذه الجماعات تحاول
تستقطب الأشخاص من كل دول العالم ليتمّ تجنيدهم في
أفغانستان.

في لحظة مباغتة بدت له كهروب من ذاته، وماضيه،
ومن واقعه الذي أصبح يحمل همه وحده، وخوفه وحده، أخذ
بعض ملابسه وودع زوجته. لم يتوجه إلى ريحانة ولا إلى
محراك، ركب الطائرة مع بعض الصحابة وسافر دون إيمان

خالص بالفكرة، لكن نفسه التي تتوق إلى التخفف من عذاباتها فتحت له عالماً وهمياً انخطف إليه طلباً للسكينة. وما عاد هناك شيء يوقف قراره الذي لم يتخذه، لكنه أرغم عليه تحت ضغط ووقاحة أخيه وتخطيط حياته.

كانت بيشاور محطته الأولى في أفغانستان وبالتحديد في معسكر الانتصار حيث حظ الرحال بين من أطلق عليهم لاحقاً اسم " الأفغان العرب " والذين وصلوا إلى أفغانستان كم وصل هو الآخر إليها عن طريق رابطة العالم الإسلامي لتجنيد العرب من أجل القضية الأفغانية.

- ٣ -

التقى ناصر في سفره الكثيرون من جماعات الإسلام السياسي، حاولوا ضمه بالرغم من عدم انتمائه إلى أي جماعة لا هو ولا رفاقه، أنهم مسلمون فقط، لذلك حين بدأ تدريبهم على السلاح في برنامج مضغوط لسد النقص في صفوف قوات بن لادن التي استشهد منها الكثير. وبسبب هذا البرنامج المضغوط أبدى ناصر هذه الملحوظة في أجموعه بمقولات عديدة جعلت سؤال محراك يتضخم في رأسه. شعر

بأن استشهاده هنا سيكون مجانياً وبلا جدوى، كإن أغل بهم قليلي المراس وقليلي الخبرة مما جعلهم من أكثر الأشخاص استشهادهً وكان ناصر يلاحظ استشهاده صحبه، كل يوم. لم يرغب في الموت هكذا، إلا أنه رأى أن ذلك ما زال خيراً من الحياة التي يستبدلون فيها بقانون الله القوانين الوضعيه. هكذا أقنع ذاته التي لم تكف عن محاورته فبدأ يداخله التردد والشك والخوف، واحتمال بكل الطرق حتى لا يخوض معارك لا يعرف فيها قاتله ولا من سوف يقتله فالتجربة الوحيدة التي خاضها كان لا يلمح فيها غير كرات النار القادمة من الجهة الأخرى وهو يضغط على زناد رشاشه في مواجهة من ينفذ بتلك القنابل.

كانت إصابته ملاذاً احتّمى به للعودة. يعود حاملاً إصابته في وجه محراك الذي قلل من شأنه، بل كان حديثاً له يحمل الرهان بأنه غير قادر على هذه المواجهة. تراكت الأحاديث في ذاكرته متداخلة ومتشابكة لا يدري ممن سمعها هل من المرافق الذي عبر به إلى معسكر الأطباء المصريين على الحدود الأفغانية الباكستانية أم من ذلك الشاب البخاري الذي تسلمه وأتم له كل إجراءات العودة إلى وطنه مرة أخرى،

وهو يقول: - بيشاور منطقة وهابية ففي عام ١٨٢٤ أعلن الشيخ الوهابي سعيد أحمد الجهاد ضد الفكر الفريسي في منطقة البنجاب، وكان يحارب بنفس أسلوب " بن لادن " الآن. وفي عام ١٨٣٠ احتل بيشاور وأنشأ فيها دولة كانت لها سلطة خاصة حملت اسم أحمد ولذا كانت الوهابية قوة فاعلة تؤثر بأفكارها على المجتمع الأفغاني منذ قرنين، فما الذي دفعك أنت إلى هذه الحرب وأنت لا تعلم عن حقيقتها شيئاً.....؟

رد ناصر: - أثبت أبحث عن إجابة وأتم فرائضي وهأذا راحل دون معرفتها. حين التقيت بذلك الذي كان ينادي بالدعوة سكنت روعي أكثر. ظللت بقربه أتحادث إليه وأحاوره وأصلي بجانبه، كانت روعي شدة غافة لا تستطيع القتل، ويدي مسالمة لا تستطيع أن تمسك سلاحاً وتصدوبه ضد شخص آخر حتى لو كان مختلفاً عني عقائدياً. وبعد تدريبات عديدة عدت أكثر حزناً وأكثر صمتاً. لقد فقدت كثيراً من الأصحاب ورأيت الحرب بأمر عيني وتعرفت على أشخاص عديدين كنت كل يوم أكفن أحدهم وأنتقي آخر، كانت تجربة صعبة وموجعة وكنت أريد أن تستكين روحي وتهدأ بعد أن بدأت نوبات العذاب تنهش دواخلي وتفتح

ناظري على حقيقة واحدة هي الموت في العراء غريباً وحيداً
من أجل هدف أجهله ولا أمسك به. الفرار أو الموت. صمت
قليلاً ثم تمعن في المعنى وهو يقول لنفسه:

- نحن لا نستطيع إلا أن نفر من الفرار، لا فرق بيني
وبين محراك الذي كان يفر إلى قميص نوم عميتا ومكياجها
طالباً القوة لنفسه الهشة ولا فرق بيني وبين أمي ريحانة التي
تفر إلى الجنون هرباً من الواقع الذي يقسو عليها ولم تستطع
أن تتخطاه وهأنذا أفر من الفرار إلى فرار آخر لست قد أدرك
عليه. شعر في هذه اللحظة برغبة عارمة في ضم محراك
إلى صدره لكنه تساءل هل ليحميه أم ليحتمي به....؟

ابتسم حمد الشاب البخاري مبدئياً تعاطفه التام مع
المجاهدين وكذلك ناصر الذي أوحى له أنه مصدق له رغم
أنه يعلم تماماً أن ناصرًا رآه وهو يساوم على تسهيل
إجراءات عودته ومن كانوا معه من الجرحى أو المرافقين.
عاد ناصر إلى البيت أكثر حزناً وصمتاً وهشاشة وإعياء
تخف عيانه وهو جالس، ويصحو مفزوعاً من الكوابيس
والهلوسات التي تقفز إلى رأسه فيسمع أصوات من رافقه وه
إلى الجبال الوعرة والتلال التي نبتت فيها الأشواك، عاد وهم

هناك جنث مشوهة واراها بيديه التّ راب. تّ ذكر أس ماءهم
وناداهم بصوت عالٍ وبكى كما لم يبكي من قبل.

تحمّلت زوجته منه الكثير، وحين سألتها عن محراك حدثته
بأنها لم تعد تراه، ولم تسمع عنه منذ مدة. ألم يكن يبعتها عنه
ويرفض أن تذهب إلى بيتهم وحدها إذا كان محراك هذا،
ولم يرغب يوماً أن يزورهم في بيتهم...؟ كما أنها هي ذاتها
لا تحبه ولا تطيقه، سألتها عن ريحانة فلم تتكلم لكن تعابير
وجهها كانت كمن لا يعرفها. خرج مسرعاً يبحث عن آخر
خيط له بحث عن ريحانة عند بعض الأسر تكلموا عن مهيرة
الخبلة لكنها كانت هناك منذ سنين وسنين. كانت ريحانة
تُحكي له عنها أنها رأتها في صغرها امرأة مجنونة تذهب
إلى البحر وتكلم نفسها، تتذكر لحظات، وتغيب لحظات
أخرى، تبكي ولا تنام، كلما وجدت أوراقاً ما وعلاً ما فارغة
وضعتها على ثيابها وضفرت شعرها بقصاصات القماش
الصغيرة التي تجلبها من مخلفات محلات الخياطين حتى
أصبحت ضفائرها ذات ألوان كثيرة وطويلة.

- أين ريحانة إذن...؟

ذهب إلى البحر، إلى محراك، إلى الأسد واق، إلى ك ل
البيوت. دق أبوابها وسلم وسأل عن ريحانة، سألهم ع نهم
فحدثوه بأنها مهيرة الخبلة، إحداهن فقط قالت له بأن ريحانة
قد ذهبت مع عمته إلى القاهرة منذ زمن طويل ولم تعد.
قالت: - قالوا إنها أنجبت ولذا آخر اسمه نصور.

وقالوا: - إنها كانت في غرفة السطح في القاهرة لا تأكل
ولا تشرب ولا تتحدث مع أحد، مرة. ذهبت مع أم عايده التي
تبيع الذرة بجانب مدرسة ابنتهم مع محراك وترك نص ور
لهم واختفت هناك.

لكن هو نصور.. ضد حكوا جم يعهم وقال: إذن أين
ريحانة.....؟

اختفت..... كيف.....؟

أليست معتادة الخروج صباحاً تظل تسير على قدميها حتى
تهلك روحها في السير.. ألم يتكلم محراك بهذا الشد أن عده
مرات حين كانت تسير معه في شوارع القاهرة ممسكة يده
وهو يصيح ويصرخ من التعب دون أن تعي ه ي معاناة ه
كصغير، وهي التي اعتادت السير مع عمته حين أتيا إلى

القاهرة. كانا يجوبان الطرقات دون هدف غير السير ذاتاً،
إنها معادة ذلك...؟

دخل غرفتها وأشعل الضوء متأملاً كل شيء ثم عاد إلى
زوجته، إنه لا يصد حق أبداً أن تختفي ريحانة، كيف
تختفي.....؟ إن المدينة صغيرة وكل شيء واضح وجلي، كل
الأفعال تظهر ولا شيء يختفي حتى المر، حتى الكلام، ولا
يمكن لأحد أن يختبئ حتى قاتل إسحاق، حتى أفعال محراك،
وحتى انهيارات ريحانة. قفز ناصر إلى الخارج تتردد على
مسامعه كلمة: ريحانة جنت، ريحانة اختفت. هل كانت
زوجته تعني بالفعل أنها جنت ومن ثم اختفت ريحانة
وأصبحت فقط امرأة مجنونة تعاود سيرة أمها مهيبة أم أنها
جنت واختفت حقاً، أم أنها اختفت فقالوا: أنها جنت، لكي لا
يبحثوا عنها أصلاً.

أسند رأسه بين يديه، أحس أنه سينهار هو أيضاً.. أحس
أن العالم يغفل نوافذه وأبوابه عنها. لماذا لا يجن هو أيضاً
أليس من هذه السلالة المجنونة....؟

جلس على الكرسي.. اقتربت منه زوجته فقالت له:

- ناصر، شو فيك.. شو صار أنا ما قصرت بـ سـ مـ اـ
أدري شو أسوي، أنا روحي ومحد مع اي وإذ ت تركت ي
ورحت ومحراك إنت تعرفه.. وأنا حاولت الاتصال بـ هـ
وأخبرته سكر التليفون في وجهي بعد ما قال وشو يعني إذا
اختفت. بترجع ولو ما رجعت أحسن بعد.. ناصر.. لا تزعل
أرجوك، أكيد بتكون عند حد.. يمكن نسأل عنها عند أخواتها
أو عند عمته، أو يمكن مانت ما أدري، تعرف بـ اـ ناصر
تذكر الأوراق اللي كانت ضايعة من عمته واتهموا أمك إنها
سرقتها تذكرها، وجدوها ظهرت أخيراً.. سمعت عنها اـ ولا
لأ؟ لقطوها عند اللي قام بالانقلاب بعد اختفاء ربحانة بأبـ ام،
وحليلها ما عرفت. لكن الثوب.. ثوب عمته وجدناه متعلق
فوق إريال التليفزيون في بيتنا وكأنه علم يرفرف. مـ اـ أدري
منوه حطه هناك، وأنا مب قادرة أشيله، شو رأيك يا ناصر
تطلع السطح وتنزله من فوق.

الصورة التي لم تلتقط

عدت إلى البيت اليوم، دخلت غرفتي وأقفلته وراءني،
جلست أكتب قليلاً. كان والدي محبطاً كثيراً، قال لي وهو
ينظر بأسى:

- أنا بموت وما عندي لكم الشيء الكثير.
قلت له:

- يكفي أنك نورثنا اسمك هذا أكبر شيء ويكفي أنك في
يوم من الأيام كنت أبوي.

دخلت كان هناك حزن يضمني، ودن من مائتي اهتزاز
الأرض تحت قدمي.

بنخدع ويحب الملائكة

دخلت الغرفة، مددت يدي لأسلم عليه، اعتذر ناصر عن السلام باليد، وضع يده على صدره وأحنى رأسه وغض عينه عني قال: - وعليك السلام.
جلست: - كيف حالك يا ناصر وكيف محراك وريحانة وأهلك....؟

كنت كلما نظرت إليه وجدت ملامحه غارقة في شعيرات نفعه الممتدة بغير تناسق، وددت بصدق أن أسأله هل أذنت
نصور ذلك الطفل المدلل الذي كان عاريًا في الصورة على كتف ريحانة....؟ تلك الصورة باهتة الدوافع....؟ هل
أورثتك هذه المرأة ميراث التناقضات التي أورثتها محراكًا
فلم تتفك منها بل أخذتك إلى مناهات الازدواجية والأفئدة
المهمشة حين تتجسد الحقيقة أمامك وهما....؟
سكت ولم ينبس، فعدت أسأله:

- شو ربيت نفعك كثير، الله يرحم لما صدورناك وإذنت
عريان، عندي صورتك وانت طفل عمرك شهرين وكنت
أحملك عريان، ومحراك بملايس الشرطة.

قال: - الصغار يكبرون، هذي سنة الحياة.

قلت لنفسي، ماذا تفعلين الآن ما كنت تتحدّين به ما هو إلا وهم. لكن عليك الآن تجميع كل تفاصيل ريحانة الصغيرة والكبيرة وعلّيك أن تتذكّري ملامحها هل كانت حقيقة أم وهما هي الأخرى...؟

قلت: - عرفت أنك ذهبت لأفغانستان شو، رحّت تبعدت عن ريحانة.....؟

نظر إليّ وأدرك أنني أسخر منه، فعدت أسأله: - كل الذين يذهبون إلى القتال لا يعودون إلا في نعوش.

قالت أمي بغضب: - شمسة وبعد وياك، ناصد رجائي يسأل عن ريحانة ما في داعي لكلامك هذا.

لم يرد لكن ظلت ملامحه الحزينة صامتة مثله. إنما هناك شيء ما في صدره ما زال يتحرك.

قال: - لا حول الله، لا حول الله.

استودع أمي التي ظلت في مكانها وخرج.

لم يعد ناصر بعد ذلك. كان يجلس مع أمي في المجلس يضع عينيه في الأرض ويردد لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالت له جدتي:

- يا ابني ريحانة في غرفة السطح مع نصور ومحمد راء
ما تريد تكلم أحداً.

قال لها نصور:

- أنا ناصر يا عمي أنا ناصر، كبرت، وريحانة تركت
السطح من ٢٥ سنة وأنا جاي أسأل عنها لأنهم قالوا لي
رجعت مصر.

فقلت له:

- ريحانة جنت منذ فترة يا ناصر.

نظر للأرض ثانية مبعداً عينيهِ حتى لا تلاقى عيني قائلاً:

- قالوا أنها جنت، وكلما بحثت عنها لم أجد غير مهيرة.
سألته جدتي:

- هي مهيرة بعدها عايشة، مهيرة ماتت من زمان.

فسألها ناصر: - وريحانة وين.....؟

فرد عليه: - ريحانة.....؟ صممت ثم أضافت يمكن تكون

مهيرة الخبلة، ويمكن تكون في غرفة السطح.

تهدج صوته وهو يقول: - هل أمي وهم.....؟ صمت قليلاً

ثم قال كمن يحدث نفسه:

- إذا كانت حقيفة فأين هي، وإن كانت مجرد وهم فم من
التي أنجبتي، من التي رضعْتُ ثدييها.....؟
نظر إليّ لأول مرة قائلاً: - أنت ذاك ألم تك من ريحانة
حقيفة في حياتك.....؟
تردد على مسامعي صوتها وهي تتعبد: " يا ميه يا ميه يا
مايه "

نادي ناصر أيضاً: " يا اميه يا اميه .." يا ريحانة
قلت بقسوة: - أنت من ضيعها عبر توازنات القوّة
المتصارعة في تلال أفغانستان. وذهبت إلى غرفتي أحضرت
له مفتاح السجن الذي ظل معي منذ أن تركتنا ريحانة لتعود.
أعطيتّه المفتاح وأنا أقول له: - هذا ما ظل من ريحانة يمكن
تقدر تفتح به سجنك.

ابتسم بحزن ينفطر له القلب. إنه ناصر الذي حملته وهو
صغير وما هو الآن شخص آخر لا أعرفه مختلّف عذبي
تماماً. صمت قليلاً ثم قال:

- هل تعتقد دين أن هذاك حرية لم ن ه و أج وف
الروح.....؟

هالني هذا التّوصيف وشعر بانبهاري فابنسم باستحياء قبل
أن يسرسل في هدوء:

- هناك في المغارات انكشفت لي حقائق عدة. ما ينطبق
على الفرد يمكن أن يوصف به مجتمع بشكل أو بآخر ليست
ريحانة وحدها من تجد الراحة في عبوديتها بل كلنا.

فقلت له: - هل انضواؤنا تحت راية الإسلام في
أفغانستان بمساندة من أمريكا لصالح أهدافها إلا دليل على
أرواحنا الجوفاء....؟ الكثيرون ممن ذهبوا كانوا يبحثون عن
الخلاص لأنفسهم قبل الخلاص من أي شيء خارجي أو
كان....؟

لم يعلق، لكنه هز رأسه وكأنه يوافقني الرأي مما أربكني.
قلت، ربما كان يكاشفني الآن بالحقيقة. انكشفت أن ما قدمته
من دراسات واضحة نصب عيني تنبيه المجتمع إلى أمراض
طبقة ظلمت بانتهاك حقوقها ما كان إلا تعالياً على مأساتهم
ونوال الحظوة لدى من يتشدقون بالحقوق الإنسانية على
شاشات العرض السريع فقلت لنفسي إن فجيعتنا تتضاعف
حين تنقلب الحقائق أوهاماً، لحظتها فقط نعرف أن الطمأنينة
التي كنا نغرق فيها خداع وشرك نخشئ لأن مواجهة الحقائق

كما هي تفقدنا توازننا وتجعلنا نشك حتى في وجودنا فإذا كان
ما حولنا وهما فكيف نكون نحن حقيقة...؟

خرج ناصر من بيتنا بعد أن ودع جدتي وأمي، ناظرًا إلى
نظرة لم أفهمها، تاركًا المفتاح الذي وضعه أمامه على
الطاولة دون أن يمسسه، واعدًا أن يخبرنا عن ريحانة فور
توصله لأي جديد. قبل أن يصل إلى الباب الخارجي أخذ
أمي عن الأوراق التي ظهرت وفستانها الذي وجدته على
سطح بيته.. لم تكثر أمي وقالت له: وثدو الفايدهم
الحين، لا تهتم بهاي الأشياء خذ بالك من نفسك ودور على
أمك.

قَدَمِي المورثة

- ١ -

قال طه لهادف:

- لا يمكن أن تُحب الروح بدون جسد، الحب بدون جسد حب ناقص، غير مكتمل، الروح تُسكن جسداً وله ذا ح ين تُحب لابد أن يظهر أو بالأصح يتجه الحب إلى الجسد، شخص ما حتى وإن أحببت روحه الحب بدون جسد ه ذا الحب حب ناقص، رومانسي الروح بدون جسد موات.

قلت موجهة السؤال إليه:

- لأ.. ليه بتقول كده، الجسد بدون روح ج نس مث ل الحيوانات.

- الحيوانات عندها أرواح أيضاً بس نختلف عنهم في قوانين الطبيعة بيننا وبينهم، القوانين تختلف لكن الطبيعة موجودة بالنسبة للجسد.

- أنا خلقت موضة وعاء رومانسي يتي وباعتبار الرومانسية حالة سلبية حولتها لموقف في داخله رومانسي يتة الخاصة.

- انت قلقك يسبق طمأنينتك لهذا لا تتنازلين وحياتك مليئة بالاحتمالات.

- أنا فاقدة مشهدية حياتي وطبيعة مشهدي بشكل يتفق مع رغباتي في العالم، رغباتي تتحرك فيها الأزمات بشكل حسي وجميع أنوار الأسرة داخلي وإن هربت منهم حاروح فبين لكنني لا أستطيع إعلان الكره بسهولة.

- انقلي حياتي من سريتها إلى الإعلان عنها كتحبير نفسي.

- وانت بتعمل كده....؟

- بحاول.

- كده أبقي عامل لة زي ريحانة لة وزر مدراك.. أذا ماقدرش.

- محراك يستطيع إعلان الكره بسهولة ولهذا هو غير قادر إلا على الشكل الغريزي، وهو لا يلتزم بأي دور للأسرة بل يهرب منه، قوته مرتبطة بالعقل وهو ضد حيف وهش. يحاول اختبار شخصه وتأسيس فشله لكي يضطر للتعامل بشكل قوي مع الطبيعة. لا يضع القيم في احتمالاته وحين يمارسها يبدو كأنه أفضل من يمارسها إذا أراد ذلك

لكنه في النهاية يتجاوزها تماماً ويكون خارجها أيضاً ليس من أجل المتعة لكن من أجل إثارة أفكاره، مشاعره قد تصبح ضده حين تنفلت منه هذه الأفكار السرية التي تتكون به دون إرادة منه لقوة مضادة فتصبح مفتاح هويته.

بعد خروجه من السجن دخل غرفته نظر في المرأة فلم يجد نفسه، كان بلا ملامح.

وحين يقلب السكر في كوب الشاي الذي أمامه يظل بأفكاره كلها، بل حياته كلها يحس أنها تدور حول مركز واحد، الملحقة، هي التي تدور حولها الأفكار، أفكاره.

الملحقة كيف تأخذ السكر، كيف تضعه في الكوب كيف تذيبه دون أن يكون له أو لها أثر إذن كيف تصنع الجريمة دون إثبات واحد، دون أثر، حين وضع فمه على طرف الكوب رشف قليلاً من الشاي وانتبه إلى أنه محلي بالسكر. إذن هناك دليل واضح على الملحقة والسكر.

حلمت ريحانة، لم يكن حلمًا، لم يكن هذيانًا، لأنها عاشت هذا الحلم من خلال أشياء تعطيها الحق في الفائنض، فائض التعاسة، هذا الذي تحياه وترى أن الجميع سبب له. ظلت ريحانة تجتر هذه التعاسة، وتمهد لخليانها فلم تجد سوى

مأزقها مكتومًا، لم تجد سوى صرخة انهيار العالم حولها ولا شيء يدل عليها سوى هذا الهديان، هي تهتم بالعالم وهـ و لا يعتني بها، لو عرفت ما تريده لكانت اليوم تمثلك مفتاح سعادتها لكنها كانت دائماً تبحث عن مستحيل لا يتحقق إلا بدمارها، بل وتحقيقه يعني نهايتها بالطبع.

نظرت إلى النيل ونحن نسير أنا وهادف وطه. نظرت بعمق وكأنني أغوص داخله، أخرجت المفتاح، قلت له هادف: هذا هو مفتاح السجن في بيتنا، كان له نظير واحد فقط لدى مرهون. كان في الخزانة وسرقته ريحانة ولم تسقط أن تحرر المساجين حين فتحت الباب ولم تسقط أن تدبر نفسها حين عادت ولم أسقط أنا أيضاً أن أجد روبرت معه ولم يأخذه ناصر.

التقطه طه وقلبه بين يديه وهو يقول: مش قلت لك أريد أن أقابل جدك...؟

ابتسمت له، وهو يقول: - كان فيه عرايس نيل بنهديها له كقربان حتى يفيض وكان فيه مفتاح الحياة عند الفراغلة وعندك مفتاح السجن اللي لازم يترمي هنا علشان نتدبر من سجنك. وفي اللحظة ذاتها التي أسقط طه المفتاح في

النيل، تحولت ابتسامتي إلى حزن شديد، رغبت في الصراخ لكنه أمسك كتفي وهو يقول لازم تتحرري يا شمسة سيبك من السجن ومن المفتاح خليك مع الحياة. بكيت بحرقة وتذكرتهم بعد أن تابعت سقوط المفتاح في عمق النيل. لقد اختفى تمامًا ولن أحصل عليه ثانية. كان دليل خروجي كم لا الأوراق. لماذا نظل معنيين بالمحافظة على الشكل الخارجي حتى لو فقدنا داخلنا...؟ حين أعلنت رفضي لتاريخي نقلت التاريخ من السماوي إلى الأرض، أرض الواقع، لكي أعبر عن رغبتني في الاختيار وكانت العاطفة مصدر قوتي، وكل قوة مرتبطة بالعقل لكن عاطفتي رخوة، لم تستطع وحدها أن تعلن عن نفسها في مواجهة الاجتماعي الذي نشأت فيه ما لم يرتبط بالعقل، كان كل ما يحكونه نوعًا من الغطاء والحماية لفكرة التاريخ الذي لم أعشه إلا في الحكاية وما هو إلا دليل الوحيد عليها، يسقط أمام عيني دون أن أسد تطيع حتى الصراخ.

هاتف يحدثني وهو حزين، لم أعرف سبب حزنه، سألته فلم يجب، ظل صامتاً كجدار طيلة اليوم وظللت أنا صامتة لا أعرف ما الذي يحزنه لكنني تكلمت معه عن حياتي، أسرّي، ريحانة، مباركة، الوحيد الذي لم أعاود الحديث عنه محراك والوحيد الذي ظل بملابس بيضاء لضابط شرطة.

وتكلم هاتف، أخيراً تكلم. لكنه لم يفتح لي نفسه بكاملها لم يثق بقدره استيعابي له. يتعامل كمعلم، كأب، كرجل له ذا يستمع إليّ، ينصحنني ولا يتكلم إلا قليلاً وحين يتكلم كأن يعطيني العسل قطرة قطرة ويسحب مني الزبد لأخلص إليّ ذاتي. لكنني لا أحب العسل. لا أحب ملكة العسل أنها تقذف الذكور من أجل تلقيحها لا أحب أن أكون ملكة عسل ولا نحلة شغالة، أنا أحب أن أكون ملكة ليل فقط، أحب أن أكون شمسة ذات المفتاح الأسود الكبير، ذات الحكايات التي أسقطوها مني دون أن أتخلص منها، ربما مازلت أحب أن أكون نعاماً.

شعرت بالارتباك وأنا التي كنت أنتظر العودة إلى وطني لكي أضع يدي على آثار الانتهاك الإنساني الذي قد ارتكبت فيه، ولا تبرأ من ذنب لم تعترفه. أجد نفسي عاجزة عن أن أمد يد العون لمن شاركني أيام الطفولة والغربة وأني لاجئاً باحثاً عن ريحانة أمه لكي أنقذه من ذلك الاختلال الذي بدت عوارضه حادة عندها، ومستترة لديه لملت ذاتي وألقيت عليه السؤال كأني أتخلص منه: - ناصر أنت جاي تسأل عن ريحانة...؟

تلجلج وهو يقول: - نعم

سألته: - هل كنت تظنها هنا لدينا في القاهرة وهي التي حاربت من أجل أن تعود...؟

فقال: - لا شيء يمكن الجزم به، الذي أعرفه أننا نتعذب بحريائنا جميعاً كما كانت نتعذب بعبوديتنا.

سألت نفسي لماذا هذا الصمت وعدم القدرة على إدارة حوار على أرضية مفتوحة، وأنا التي أكتب عن الآثار النفسية للعبيد بعد الاتعاق وحدود مشاركتهم في المجتمع الجديد، أليس الموضوع قديماً بالنسبة لتطوّر المجتمع

الآن؟ وإذا كانت النظريات والرؤى التي تقدمت بها على المستوى النظري قد أتاحت لي درجة الامتياز، فما هي قدرتي على تطبيقها الآن على نموذج مادي...؟ أين قد درتي التشريحية التي تصل بي إلى مركز الداء...؟

قلت لنفسي: إن الفرصة مهيأة أمامك لتتبع بي الفرض النفسي في ناصر والممتد كالحبل السري إلى ريحانة الذي ورثته عن والدها سعيد العبد الذي ورثه الأجداد. ماذا يعني أن يبحث عن ريحانة بعد عودته من أفغانستان؟ هل وجد ذاته ليجتأ الآن عن ريحانة...؟

بدأت تحرير البحث الذي أشغل عليّ حول الأمور بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة.

بدأت بكتابة بضع فقرات حول ثورة ظفار.

بدأت الكتابة حول القواسم: هم قوة بحرية لها أكثر من أسطول بحري، أسماهم المستعمرون القراصنة. أخذت غرفة السطح لأجعلها غرفة خاصة بي.

ومن بعيد تنأى إلى أذني صوت مريم يشد قى عداة
السماء:

ولكن مثلي.. هل يذاع له سرٌ.....؟

تنويه

تم الاعتماد على بعض المراجع فى الرواية منها: رواية
بجعات برية، كتاب الإمارات العربية ، والخط الجوى
البريطانى إلى الشرق ، وبعض الكتب التاريخية ، والحكايات
والأغاني المروية.

ميسون صقر

- شاعرة وفنانة تشكيلية من الإمارات/ الشارقة.
- تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.
- أصدرت عددًا كبيرًا من الدواوين منها: هكذا أسمي الأشياء - جريان في مادة الجسد - الآخر في عثمته - السرد على هيئته - رجل مجنون لا يحبني.
- أقامت عدة معارض تشكيلية منها: الوقت على خرائب الرومانسية - السرد على هيئته - الآخر في عثمته.
- شاركت في عدد كبير من مهرجانات الشعر والفن التشكيلي في كثير من الدول العربية.

هذه الرواية

" ربحانة " رواية ذات مذاق خاص، ولدت من رحم أحداث مضت، لتعيش واقعًا تعذيبه المتناقضات والتساؤلات..

أبطال الرواية نماذج ثرية درامياً.. فريحانة عبدة لا تملك
من أمرها شيئاً، تترك موطنها بصحبة سادتها حاملة طفليها
إلى مصر، تاركة زوجها وبدخلها أفكر ثم ورطم وح
للعودة.. هل يتحقق حلمها في ظل الأحداث..؟

وشمسة سيدة صغيرة، يتفتح وعيها على صراعات حول
السلطة واستعمار ينسل في جنح الظلام.. ترحل مع أسرتها
إلى مصر، وتخوض غمار تدولات أسرتها السياسية
والاجتماعية، فتبحث لنفسها عن منطق..

شمسة وريحانة خطان متوازيان كل منهما في مقابله
الآخر وذاهب في اتجاه معاكس.

" ريحانة " عمل أدبي يظهر في شكله الروائي بعد فترة
اختمار طويلة، لذلك جاء مشحوناً بالدلالات والإشارات..
وإذا كانت كاتبته قد قالت في أشعارها:

" أفضى اليوم في تلمس أحداث تمضي أتحدث لأراني "
فإنها اليوم تحكي لنراها.. " ريحانة " .. دعوة للقاء
والتأمل.

تمت